نظام البريد في الدولة الإسلامية

تأليف

د. نظير حسان سعداوي

الكتاب: نظام البريد في الدولة الإسلامية

الكاتب: د. نظير حسان سعداوي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

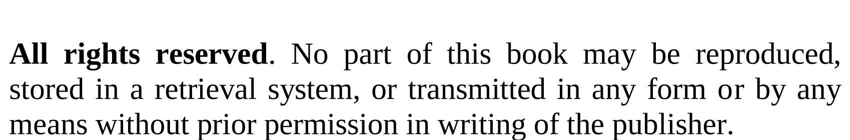
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com



دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

سعداوي ، نظير حسان

نظام البريد في الدولة الإسلامية / د. نظير حسان سعداوي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٤ – ٩١ – ٦٨٢٣– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٣٢٢٢ / ٢٠٢٠

نظام البريد في الدولة الإسلامية





تقديم

أما بعد فهذا كتاب في «نظام البريد في الدولة الإسلامية» تقدم به مؤلفه الأستاذ نظير حسان سعداوي منذ نحو عشر سنوات على هيئة رسالة علمية لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة، ولقد أنالته الرسالة المذكورة الدرجة التي تطلع إليها ثم سنحت به همته أخيراً إلى أن ينشرها ليعم بها النفع، فنشرها لأول مرة في هذا الكتاب بعد أن استدرك أشياء كانت قد فاتته عند إعداد الرسالة.

وغير خاف أن نظام البريد كان من أهم أنظمة الدولة الإسلامية القديمة، عنى به الخلفاء والسلاطين من أول أمرهم حتى نهايته أهظم العناية، وكانوا في ذلك إنما يحذون حذو أكاسرة الفرس وقياصرة الروم الذين كانوا يرون في هذا النظام دعامة من أقوى دعائم ملكهم العظيم.

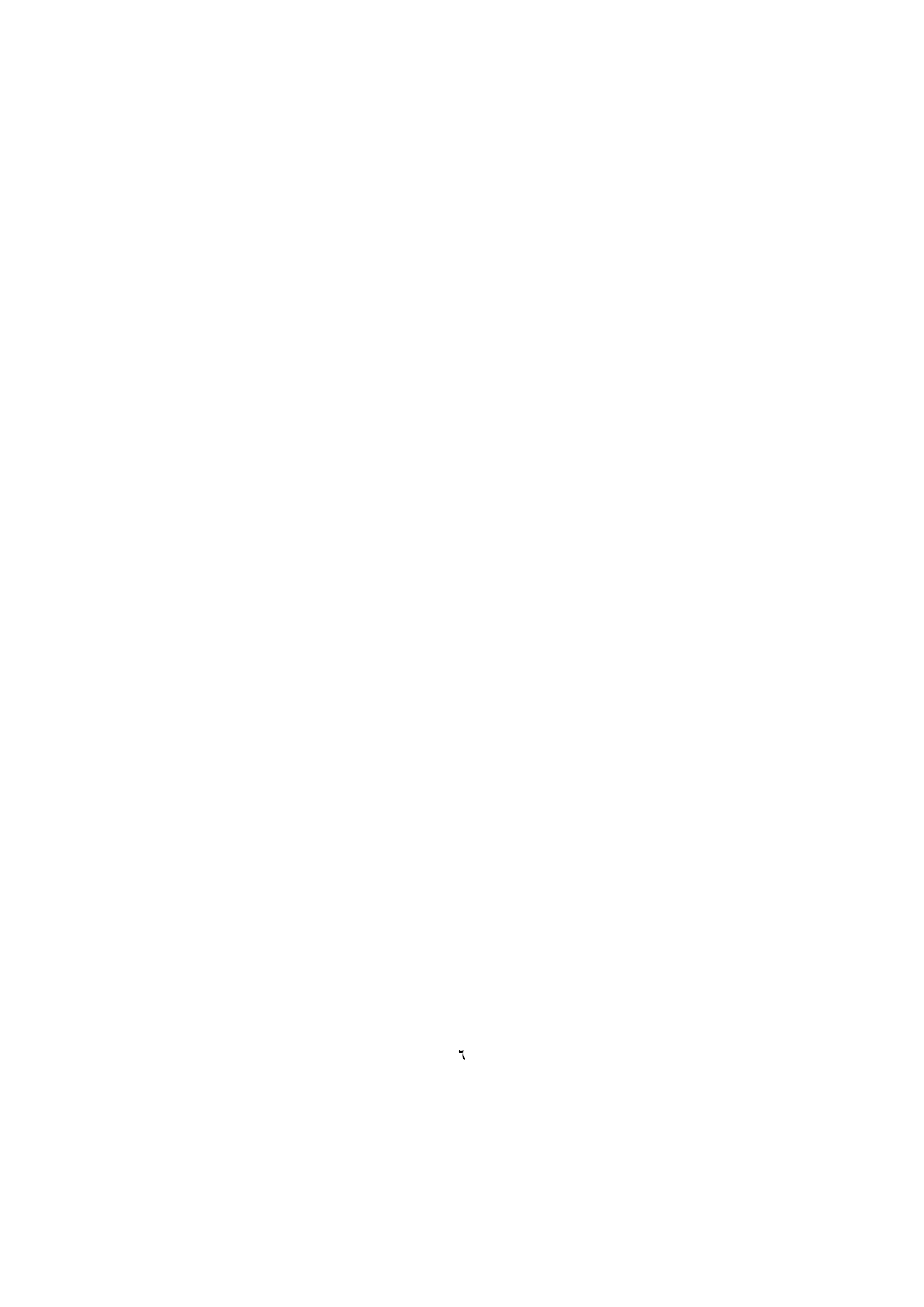
ومع أن الكتاب باكورة بحث المؤلف ألم فيبه بأطراف الموضوع، واستعان في جمع مادته بأمهات المراجع والمظان بين عربية وأجنبية، وأدرك منزلة نظام البريد من إدارة الدولة الإسلامية، ثم عرض خلاصة إطلاعه وبحثه عرضا شيقا جذابا.

وإني لأرجو أن يتابع الأستاذ المؤلف البحث في نواح من «نظام البريد» لم يتسع المقام لاستيفاء بحثها في هذا الكتاب، ففي ذلك استكمال للموضوع الأصلي، وإسهام منه في تجلية جانب من جوانب الحضارة الإسلامية الخالدة.

د.عبدالحميد العبادي

رمل الإسكندرية

٣١ يولية سنة ١٩٥٣م



تمهيد

عندما قررت الشروع في الاستعداد لكتابة رسالتي التي أتقدم بها اليوم للحصول على درجة الماجستير اتجه فكري إلى اختيار حادثة تاريخية، مشهورة، أو شخصية فذة من شخصيات التاريخ الإسلامي جعلها موضوعاً لرسالتي، لمافي ذلك من السهولة من ناحية والمتعة من ناحية أخرى، فضلاً عن غزارة المادة التي يمكن الإنسان أن يستعين بها... غير أن حضرة أستاذي الجليل عبدالحميد العبادي عميد كلية الآداب بالإسكندرية والمشرف على البحث اقترح علي موضوع رسالتي وأعني به «نظام البرد في الدولة الإسلامية» وظل متمسكاً باقتراحه وهو «نظام البريد...» وراح يعد لي أهمية الموضوع وما فيه من جدة وطرافة. وكانت حجته الكبرى أننا لن نتقدم في دراستنا العلمية إذا ظل الطلاب يتخيرون السهل من الموضوعات وينصرفون عن الهام منها بدعوى صعوبته. كما أنه رآى أن المكتبة الإسلامية تفتقر إلى هذا النوع من البحوث وأعني بها البحوث التي تكشف لنا كنوز الحضارة الإسلامية في عز العرب، وما أحوجنا إلى الرجوع إلى ينابيع وأصول تلك الحضارة ونحن في بدء نهضتنا العلمية التي تعتبر في دور طفولتها الأولى... وأخيراً انتهت إلى الاقتناع باختيار هذا الموضوع وتبدد ترددي وبدأت مباحثي تحت إرشاد أستاذي، ولكن لم أكد أمضي في هذه المباحث التمهيدية حتى عدت إلى ازوراري عن الموضوع وتمنى الخلاص منه_ ذلك أنني لم أجد إلا عبارات مختصرة وكلمات متقضبة هنا وهناك لا تكاد تشفي غليلا... وبدا الموضوع بالنسبة لي إلى جافا وسقيما عندما شرعت أستعرض كتب المسالك التي تشير إلى مراحل الأسفار المختلفة والمسافات بين بلد وأخرى ومقدارها وعددها واختلاف وحدة القياس باختلاف الكتب... وهي لا تكاد تنتهي وكأنه لا أول لها لا آخر وهي تسير على نمط واحد وأسلوب ممل وعلى هذا القياس تجرى صفحات طويلة عريضة بل وفصول كاملة تؤلف مجلدات_ هنا ويجب أن أعترف أنني بدأت

أقف في الخط تماما ةاعتزمت عزماً نهائياً أن أترك هذا الموضوع وأبحث عن موضوع آخر وأن أعلن لأستاذي عجزي عن الاستمرار في الموضوع الأول فبدأت أتحين الفرصة لإخباره بهذا القرار ولكن هذه الفرصة لن تسنح أبداً؛ فقد كان الخجل يحول بيني وبين إبدائها خاصة وأنه كان يواليني بالتشجيع ويشير لي في كل يوم إلى كتاب جديد أتجه صوبه وأستعين به، فكنت لزاماً علي أن أحضر هذا الكتاب الجديد وأقف على ما فيه فأرى فيه طرفة جديدة أو مادة تاريخية مشوقة، وفكرة مستلمحة أكثر مما قرأت في الكتب الأولى فلما تكرر هذا أكثر من مرة بدأت أشعر أن عناصر موضوع بدأت تبدو على «الأفق» وأن الموضوع الذي كان يبدو لي ظلاماً حالكاً بدأت بعض أشعة النور تنفذ إليه من هنا وهناك فأدخل في نفسي ذل شعاعاً من الأمل وقررت إرجاء إنفاذ قراري بالعدول عن هذا الموضوع، وساعدني على هذا الإرجاء سفر أستاذي إلى العراق منتدباً للتدريس في معاهدها في مارس ١٩٤٢.

ومن ثم دأبت على مطالعة هذه الكتب التي أرشدني إليها الأستاذ والتوسع في قراءتها بدلا من الوقوف عند حد الفقرات المعينة المكتوبة تحت عنوان البريد؛ فبدأت أرى في ثنايا السطور ومن خلال الموضوعات المختلفة إشارات صريحة أحياناً وغامضة أخرى أو ضمنية لموضوع البريد، ولكن ن شأنها أن يزيد في مكامل هذه الصورة التي بدأت تتكون في نفسي... شجعني ذلك على القراءة والتوسع فيها والانتقال من كتاب إلى كتاب وتتبع الخيوط المختلفة التي تؤديني إلى لب الموضوع؛ وسرعان ما وجدت نفسي غارقاً في صميم الإمبراطورية الإسلامية بمختلف نظمها ومؤسساتها.. سرعان ما وجدتني أتتبع تطور هذه الإمبراطورية منذ نشأت إلى حين شبت وترعرعت... سرعان ما وجدتني أذرع هذه الإمبراطورية شرقاً وغرباً فأذهب مع الذاهبين إلى حدود سور الصين العظيم ثم أندفع غرباً سائراً في هذا الطريق الذي يوصلنا حتى تخوم البحر الأبيض الشرقية ثم أهبط إلى الجنوب مخترقاً فلسطين حتى أصل إلى فسطاط مصر ثم أصعد منها إلى الإسكندرية وأضرب غرباً نحو برقة وشمال أفريقية حتى أطل على المحيط الأطلسي، وأعبر هذا المضيق الذي خلد ذكرى فاتحه

وأعنى به جبل طارق لأستنشق عبير الأندلس جنة الدنيا في ذلك التاريخ ولأستظل بحدائقه الغناء وقصوره الشماء، ولأذرع بقدمي أرض قرطبة والزهراء وغرناطة والحمراء وهي كأمثال الدرر المتلألئة أو المشاعل المضيئة التي بددت دياجير الظلمات في أوربا وبلداتها في هاتيك القرون وأراني أقفل في رحلتي على ظهر سفينة من السفن التي ترفع العلم الإسلامي المكتوب عليه عبارة «لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله» فتخترق البحر الأبيض المتوسط كأنها تجتاز بحيرة إسلامية بحتة؛ فما من ميناء على شاطئه إلا وكان تحت سلطانها أو يخشى جانبها وإذا بي أمر على جزائر البحر الأبيض المتوسط كلها ابتداء من قورسيقية وصقلية حتى مالطة وكريت ورودس وقبرص؛ وكلها جزر تخضع للسلطان العربي والدولة الإسلامية في مظهر من مظاهرها، حتى إذا ما وصلنا إلى موانئ المشرق في الشام وواصلنا طريقنا من جديد إلى بغداد مخترقين دمشق الفيحاء إذ بنا لم نكمل رحلاتنا بعد فهناكك طرق أخرى لا يزال علينا أن نمضي فيها وأن نتتبعها فقد ضربنا من بغداد شرقاً وغربا؛ ولا يزال علينا أن نمضي فيها جنوبا حتى هذه البصرة الميناء العربي الذي كان أول مدينة خطت في الإسلام حيث تشرف على الخليج الفارسي أو بالأحرى الخليج العربي في هذه الأيام. فكل ما يبسط من أراض يقع في تخوم دولة الإسلام... فإذا امتطينا منه سفينة سارت بنا إلى بلاد الهند وطوفت بنا حول الهند كلها ودارت حول جنوب آسيا، ثم صعدت بنا شمالاً إلى الصين لنرى استقبالاً حافلاً ينتظرنا وكرماً واحتراماً يلقاه كل عربي ومسلم يقصد هذه البلاد المفتوحة الأبواب لمتاجره وعلومه... ولا غرو فلم يكن في الدنيا في ذلك التاريخ سوى أمبراطورية واحدة هي إمبراطورية المسلمين تصانعها الدول وترهب جانبها الشعوب. والسعيد السعيد من حظى بمحالفتها والتعاون معها. وقد أستطيع أن أخترق الصين لأصل من جديد إلى تخوم الدولة الإسلامية فأعود برا مخترقا آسيا كلها من مشرقها إلى مغربها في ظل نظام البريد العتيد الذي كان له الفضل الأكبر في قيامي بتلك الرحلة العظيمة إذ مهد لي سبل الراحة في أثنائها. ففي كل طريق كنت أجد منازله على مسافات معينة مزودة بالماء والزاد....وفي كل منزل يستقبلني رجاله

بحفاوتهم وكرمهم البدوي ويمدونني بدابة من دواب البريد جملاً كانت أو بغلاً أو حصاناً، وأمتطيها إلى المحطة التي تليها فأستبدل بها أخرى... وإذا ما تعذر الحصول عليها سار معي أحد سعاته كي يرشدني الطريق ويهديني السبيل ويقاسمني حمل أمتعتي... ولم يكن هناك ما يزعجني أو ينزل الرعب في قلبي أثناء تجوالي؛ فجماعة المرابطين المتحصنين في أربطتهم على حدود الإمبراطورية وفي قلبها... وتعدد المناور هنا وهناك بمشاعلها ونورها ودخانها... ودق الطبول بين الأودية والجبال من وقت لآخر... كل ذلك كان بمثابة المصابيح في الطرقات العامة بددت الوحشة والظلمة وأبعدت اللصوص والوحوش... وهذا ما استعرضته للقاريء ةاضحاً في الفصل الرابع والخامس والسابع من الرسالة.

هذا ما وجدتني فيه في أثناء مطالعتي وبحثي خلف مادة أضمنها رسالتي عن البريد. ما أعجب ما ابتدأت به بحثي عن موضوع البريد، وما أعجب ما انتهيت إليه فيه... بدأت متشائماً قلقاً متضايقاً يائساً عن العثور عن شيء كلي وشيق ومفيد وانتهيت إلى الاعتقاد بأنه لو لم يقيض لي اختيار هذا الموضوع لخرجت بصفقة المغبون من دراساتي، ولما أتيجت لي هذه الفرصة الواسعة لاستيعاب العظمة الإسلامية غي عصورها الأولى، ولما أستطعت أن أكون فكرة عن هذا التراث العربي العظيم الذي خلفه لنا أجدادنا والذي تجني الإنسانية ثماره في هذه الأيام؛ بينما قد جهلناه نحن فحرمنا الانتفاع بثمراته وتخلفنا بالتالي في منتصف الطريق ورحنا نتطلع إلى الغرب نطلب الاستجداء بأعين مشدوهة وأنفاس مبهورة... وهو عين ما كان يفعل الغرب في القديم عندما ينظر إلى مدنية الشرق الإسلامي يعشو إلى ضوئها ويحوم حولها ويعمل على الاغتراف من مناهلها حتى إذا أكمل استيعابه لها عن طريق احتكاكه المتواصل بها في الشرق إبان الحروب الصليبية قرابة ثلاثة قرون عرف الغرب من أحوال الشرق ما لم يكن يعرف... وفي أقصى الغرب في الأندلس عندما كانت بعثات الأوروبيين تتوافد عليه فتستقي العلم من مناهله. عندما كانت اللغة العربية عي لغة العلم في أوربا.. عندما كانت كتب ابن رشد هي أساس النهضة العلمية الجديدة في أوربا..

عندما بدأت أوربا تضع قواعد إصلاحها الديني والعلمي والأدبي على أسس هذه الحضارة الإسلامية.

أجل ما أعظم الشبه بين الشرق اليوم في تطلعه نحو الغرب، وبين ما مان عليه الغرب بالأمس من تطلعه نحو الشرق، ونحن أقوياء الأمل وفي نفوسنا إيمان عميق بأن الساعة قد حانت من جديد ليقظة هذا الشرق واستعادة مجده القديم.. هذا المجد الذي رأيته في أروع صوره، وأنا أدرس موضوع البريد. فالحق أنني مدين بدين عميق لأستاذي الذي اختار لي هذا الموضوع، مدين له برفقه بي وتشجيعه المتواصل وإلحاحه علي في ضرورة المثابرة والمتابعة والكفاح... ولولا هذا لما قدر لي أن أتعلم ما تعلمت، وأن أقف على ما وقفت وأن أساهم كمصري عربي بقدر ضئيل في جلاء غوامض النظم الإسلامية وتقريبها إلى متناول البحث الحديث في العربية، لنستطيع أن نتخذها دائماً أبداً أساسا في أعمالنا، ونقطة لبدء تطورنا فنصل حاضرنا بماضينا، ونبني مستقبلنا على أساس استخلاص الصالح من كليهما، والتطور به في سبيل الكمال... فما من نظام في العصر الحديث. ما من اختراع مفيد. ما من فكرة علمية مستحدثة إلا وهي ثمرة من ثمرات التطور المتواصل وجهود الإنسانية المجتمعية المتكاملة... ولما كانت الغرب قد ورثت حضارة الفراعنة والفرس واليونان وصهرتها في بوتقة واحدة، ثم هضمتها كلها وأعادت صياغتها بإضافات جديدة، وأكملت الناقصة منها وصححت بعض أخطائها. فإن الإنسانية الحاضرة قد تلقت جل علومها وأنظمتها بعد أن مرت على أيدي العرب والمسلمين وطبعت بطابعهم. ولن نستطيع أن ندرك حقائق العلوم المختلفة ما لم نلم بتطوراتها... الأمر الذي يوجب علينا دراستها عند العرب، ونظام البريد كسائر الأنظمة يخضع لهذه القاعدة.

فإذا كان البريد في عصرنا قد تطور تطورا رائعا، حتى وصل إلى درجة مدهشة من حيث سرعة إرسال الأخبار والخطابات، فأستخدم النقل الجوي لنقل البريد، وأصبح يقطع آلاف الأميال في أيام معدودة، كما استخدم البرق في إذاعة الأخبار، فأصبح الحادث يقع في أقصى أطراف المعمورة، فلا تمضي لحظات قصيرة حتى تكون

الدنيا كلها قد عرفته... إذا كان هذا الأمر يبدو مدهشا ورائعا، بل ويمكن أن يكون عنوانا على عصرنا الحديث كله بمعنى أن نصف القرن العشرين، بأنه قرن اللاسلكي والسرعة.... أقول إذا كانت هذه النتائج الضخمة التي وصلت إليها الإنسانية في موضوع البريد ونقل الأخبار، فلا يجب أن ننظر إلى وسائل الماضي باحتقار أو استهجان، فقد كانت محاولات لا تقل ضخامة عن محاولات العصر الحديث بالنسبة لعصرها، والحاجة دائما أم الاختراع، فلم تكن حاجات الأمم في القديم بمثل حاجياتها اليوم، ولم يكن العالم الجديد بأكمله قد دخل إلى حيز الوجود، وكان الأمر قاصراً على العالم القديم حول حوض البحر الأبيض المتوسط، وفي بلاد فارس والهند والصين. ومع ذلك فكلما شعر القوم الأقدمون بضغط الحاجة عليهم تدبروا الأمر بوسائلهم ليحلوا المشكلة التي تعترضهم. وقد أستطاعوا أن يوفقوا وأن يسدوا الثغرات المفتوحة أمامهم، فكانوا بذلك يضعون الإساس لما يجد من مخترعات ونظم وتطورات.. فقد وصل الأمر في عهد الخلافة العباسية إلى تنظيم هذه الشبكة الرائعة من الخطوط البريدية في أنحاء الدولة، كل سنرى في الفصل الرابع، وتجهيزها بالخيول الجيدة المخصصة لهذا الغرض، فكان الخطاب ينطلق كالسهم من بلدة على حدود الصين، حتى يصل إلى بغداد دون أن يتوقف في الطريق وهو منطلق بسرعة مدهشة محتسبا زمن وصوله بالساعة واليوم.

ومثل هذا الأمر في ذلك الوقت كان يعتبر سرعة فائقة المقدار، ولكن هذه الوسيلة سرعان ما تجلى عجزها عن أن تفي بكل الحاجيات كإيصال الأخبار الخطيرة التي تستوجب الاستعداد السابق كهجوم عدو خطير، ففكروا في استخدام هذه الخاصية الغريبة التي أودعها الله طائرا من الطيور هو الحمام الزاجل، خاصية رجوعه إلى موطنه القديم، ولو بعد عنه ألوف الأميال، فشرعوا في استخدام هذا الحمام لإيصال الأخبار الهامة، وراحوا يترقون به على مر الزمن، حتى وصل الأمر به إلى أن أصبح شبيها بالتلغراف والتليفون في أيامنا الحديثة، فكما تمد لكيهما الأعمدة من حين لآخر لترفع أسلاكها وتنشأ المحطات من مكان لآخر لتقوية الأمواج الصوتية... فكذلك أصبح الحال

بالنسبة للحمام الزاجل، فنرى في الفصل السادس الدور الذي قام به في عالم الأخبار قديماً وحديثاً، كما نرى المحطات التي أنشئت خصيصاً له على طول الطريق ليقتات منها، فيأخذ بعض الراحة ويستأنف طيرانه السريع البعيد المدى حتى يصل إلى غايته... على أن هذا الأسلوب بدوره أصبح قاصراً عن أن يفي بكل الأغراض، فقد كان هناك من الأخطار الداهمة ما يحتاج معه إلى سرعة أكبر لإيصال الأخبار، مثال ذلك عندما أصبح العالم الإسلامي مهدداً بجيوش التتار التي راحت تفتك في بنيانه وتخرب مدائنه وتغطي بأمواجها المدمرة منذرة بالقضاء على الحضارة الإسلامية كلها... هذا الخطر كان يستدعي لاتقائه إجراءات سريعة وشديدة. فسرعان ما أوجدت الضرورة أسلوباً رائعاً ينقل الأخبار على وجه السرعة التي تشبه أن تكون سرعة البرق في عصرنا الحديث، فوضعوا نظاماً أوردناه في الفصل السابع والأخير وهو نظام المناور حيث يوقدون النار في أماكن معينة، فيرى لهيبها في أماكن تبعد عنها عشرات الأميال، فتشعل النار في هذه الأماكن الأخيرة فترى على أبعاد جديدة تشعل فيها بدورها نيران أخرى، وهكذا كلما رأى مركز النيران في المركز المتقدم أشعل النيران في مركزه، فلا تلبث النيران أن تتجاوب على طول الطريق حتى تصل إلى مركز الحكومة لتتصرف في الأمر بما ترى... وبطبيعة الحال لم يقف الأمر عند حد إشعال النيران، بل تطوروا إلى الاتفاق على رموز معينة واصطلاحات بواسطة هذه النيران، بحيث يمكن أن يكون لطريقة إشعال النار أكثر من معنى واحد أو بالأحرى ما يقرب من طريقة مورس مع فارق التطور والأرتقاء. وهكذا وصل القوم إلى ابتكار وسيلة تنقل الخبر الخطير بسرعة انتشار الضوء، وهي سرعة هائلة من غير شك تقرب جداً من سرعة نقل الأحبار بواسطة التلغراف في مراحله الأولى قبل التطور الحديث.

وفي الفصل السابع أيضاً شرحنا طريقة استخدام الطبول والماء في نقل الأخبار. وكانت الطبول غالباً تستخدم في المناطق الجبلية حيث يصعب الأتصال بين الفرق الحربية أما طريقة التراسل بالماء فكانت نادرة الاستعمال في العصور الإسلامية، اللهم إلا في الوديان حيث مجاري الأنهار... وفي أثناء رحلتي السالفة الذكر تاقت نفسي إلى زيارة البلاطين الأموي بدمشق والعباسي ببغداد، للوقوف على إدارة نظام البريد. ففي

دمشق الأموية لمست نظام البريد منذ أن زرعه معاوية بن أبي سفيان، وشاهدت الوثائق الأولى التي جمعها عن الرومان والفرس عندما شرع في وضع الحجر الأساسي لهذا النظام الذي تعهد بالعناية والإشراف من جاء بعده من خلفاء بني أمية.

أما في بغداد العباسية فيظهر لنا نظام البريد في ثوب آخر وصورة أخرى مغايرة تماماً لما كان عليه أيام الأمويين من حيث الدقة والتوسع والإدارة، وقد رتب له ديوان خاص منذ أيام الخليفة المنصور، وهناك نزلت على مكتب صاحب ديوان البريد فأستقبلني بكل حفاوة وترحاب كأني أنزل بمكتب أحد السادة وزراء العصر الحاضر. طاف معي بمكاتب موظفي الديوان، فشاهدت نشاطاً ويقظة منه ومن موظفيه، وأستأذنته في الحديث عن اختصاصاته وديوانه وعن من يتبعه من الموظفين سواء منهم من بالولايات أو الطرق ومنازلها أو الديوان العام. كما أنه بين لي بالتفصيل طريقة جمع الخرائط من الأقاليم، وطريقة فضها أمام الحضرة الخليفية. وأفرد لنا جزءاً من الحديث عن ميزانية ديوانه ومرتبات عماله ودواب البريد والخدمات التي أداها نظام البريد للدولة سواء في الحرب أو السلم.

وقد أعطينا القاريء صورة واضحة جلية عن هذه التفاصيل في الفصل الثالث من الرسالة، ومنه يتبين للقاريء مدى ما انطوت عليه الإدارة العربية من حزم ورقابة وصلتا إلى درجة فائقة من الإحكام والدقة. وفي الفصل الخامس أوردنا نصيب مصر الإسلامية من هذا النوع من النظام الإداري، ووالينا عصر الظاهر بيبرس على وخه الخصوص بالبحث والعناية، لأن عصره يعتبر العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامي من حيث تفوقها الحربي والسياسي والإداري على معاصريها من الدول الإسلامية الأخرى... أما الفصل الأول فقد أفردناه بكلمتين إحداهما عن معنى كلمة (بريد) والأخرى عن تاريخ البريد عند الأفراد والجماعات البشرية الأولى، ثم عند الأمم القديمة من فراعنة وفرس ورومان، وإلى القاري التفاصيل على الوجه الآتي في فصول الرسالة.

بحث في مصادر الرسالة

سوف لا أتناول الكلام على جميع المراجع التي أشرت إليها في ذيل صفحات الرسالة وإنما سأقتصر على الأساسي منها والتي تعدد ذكرها في معظم فصول الرسالة من ذلك الكتاب:–

(١) المسالك والممالك: لأبي القاسم عبيد الله بين عبد الله بن خرداذبة المتوفي سنة ٣٠٠ هـ الذي أمدني بمعلومات تاريخية لها قيمتها اللعلمية، ولا سيما فيما يختص بطرق البريد وسككه في أنحاء المملكة الإسلامية؛ وهي تعطينا فكرة واضحة عن المادة الجغرافية الأولى عند العرب كما يمثلها ابن خرداذبة في كتابه الذي يعتبر في الدرجة الأولى من الأهمية لأنه أورد نبذا من كتاب_ الخراج وصنعة الكتاب لأبي الفرج قدامة ابن جعفر الكاتب البغدادي_ وكلا الكاتبين أخذا شكل كتب المسالك التي تخصصت في المسافات. وابن خرداذبة يعطينا المسافات بين كل محطة وأخرى على طول الطريق الخرساني الكبير وفروع الطرق الأخرى كما يرى القاريء في الفصل الرابع من الرسالة. وقد سعر هذا الكتاب في رسالتنا كون ابن خرداذبة كان مديراً لمصلحة البريد **postmaster** في ولاية الجبال بينما كان قدامة عاملاً للخراج **Revenue accountant**(١) لذا جاءت رواية ابن خرداذبة رواية شاهد عيان لا يعتورها الشك ولا النقصان.

(٢) تاريخ الأمم والملوك: لمؤلفه أبو جعفر مُحَّد بن جرير الطبري وهو غني عن التعريف لدى قراء التاريخ. ولد ببلدة آمل من بلدان طبرستان في أوائل سنة ٢٢٥ هـ وكانت الرحلة في طلب العلك من لوازمه فانتقل إلى البصرة والكوفة فالشام ومصر. كل ذلك بفصد استيعاب ما عند شيوخ هذه البلدان من العلم والمعرفة، ثم عاد إلى

---

(١) **Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphate P. 12**

بغداد حتى توفي بها سنة ٣١٠ هـ– وكما اشتهر في التاريخ اشتهر كذلك في الفقه والتفسير وكان له مذهب وعرف أنصاره بالجريرية. وكتابه له قيمة تاريخية عظيمة لأنه في الواقع عبارة عن خلاصة تطور الرواية التاريخية عند المسلمين في الثلاثة قرون الأولى؛ لأنه مات سنة ٣١٠ هـ وهو أدنى كتاب حتى ذلك التاريخ والذي يقرأه يعرف كيف نبتت الرواية التاريخية القديمة، وكيف تدرجت وتنوعت على هذه الصورة التي يمثلها كتاب ابن جرير وهو بحق بديع في أسلوبه وفي مادته. وقد نقلت عنه نصوصا كثيرة تشير إلى عناية خلفاء بني العباس بنظام البريج كما تشير إلى عنايته هو أيضاً بهؤلاء الخلفاء والتأثر بهم. ويمتاز كتابه بأنه أتى بنصوص من كتب ضاعت بحيث لو ضاع الطبري لضاع معظم المادة التاريخية الأولى في صدر الإسلام، وإن كان البعض يعيب عليه عملية النقل والتقييد التي رتبها على السنين، ولكنني ألتمس له عذرا لعدم وجود وثائق مضبوطة يعتمد عليها في كتابة التاريخ؛ كما أنه اعتمد في روايته على الثقات من شيوخ العلم. وطبع كتاب الطبري عدة طبعات منها طبعة مصر وطبعة ليدن من (١٨٧٦ إلى ١٩٠١) باعتناء الأستاذ دي غويه وغيره من المستشرقين ويقع الكتاب في ثلاثة عشر جزءاً، يتلوها كتاب_ صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد الكتاب_ في جزء واحد. ويقول الأستاذ بارتلد [1] أنه قد كتب في بخاري ملخص للطبري باللغة الفارسية للأمير منصور الأول الساماني، كما ألف في قرطبة للحكم الثاني (٣٥٠– ٣٦٥ هـ) ملك الأندلس كتاب تاريخي مقتبس من كتاب الطبري مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس.

(٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر: لأبي الحسن على بن الحسين بن علي المسعودي الشافعي المؤرخ المشهور المتوفي سنة ٣٤٦ هـ نشأ في بغداد وجاء مصر وساح البلاد؛ فطاف فارس وكرمان حتى استقر في اصطخر، ثم قصد الهند والصين. وكتابه تناول تاريخ الخليقة منذ بدئها حتى سنة ٣٣٥هـ وأتي فيه على جميع نسبة أهل

[1] تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٩.

الأنصار من جملة الآثار، ونقلة السير والأخبار وطبقات أهل العلم من عصر المصحابة ومن تلاهم من التابعين على اختلاف أنواعهم وتنازعهم في آرائهم من فقهاء الأمصار وغيرهم وطبع الكتاب في مصر وبغداد وغيرها. وهو يلي في الأهمية كتاب الطبري، وهما مرجعان أساسيان في تاريخ العصور الإسلامية الأولى ومن جاء بعدهما من المؤرخين نقل عنهما. وقد اعتمدت على كتاب المسعودي في النصوص الخاصة بدولة الفرس والدولة العباسية.

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: لشمس الدين أبي عبد الله مُحَمَّد بن أحمد ابن أبي بكر البناء الشامي المقدسي الحنفي المعروف بالبشاري المولود بالقدس ولا يعلم له ترجمة وافية ولذلك يقول في مقدمته: «لقد سميت بست وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها مثل مثدسي، مصري، فلسطيني، عابد، سايح، زاهد أ لخ... وذلك لاختلاف البلدان التي حللتها وكثر المواضع التي دخلتها». وكتابه يمتاز على حد قوله بثلاث ميزات. قسم دونه عن معاينة شخصية، وقسم سمعه من الثقات، والثالث نقله عن كتب مصنفة. لذلك جاء كتابه أكثر إلماماً بالحقائق التاريخية والجغرافية عن غيره من الكتب التي سبقته. ولم يتكلم في كتبه إلا عن مملكة الإسلام، ولم يتعرض لممالك الكفار بل ذكر مواضع المسلمين فيها فقط. وقسم مملكة الإسلام أربعة عشر إقليماً ستة عربية وثمانية عجمية. وترى المدرسة الجغرافية الحديثة أن هذا النوع من الدراسة الجغرافية اتبع طريقة مدرسة الرءوس والخلجان **Capes and bays school** وهي المدرسة القديمة التي كانت تهتم بوصف الأرض وما عليها وصفاً مبنياً على الأسفار والرحلات والمشاهدات. وهي دراسة شيقة من غير شك إلا أنها تجعل الجغرافية مجموعة قصاصات غير متناسقة لذلك كان إلى التاريخ أقرب منها إلى الجغرافية. وقد طبع الكتاب في ليدن سنة ١٨٨٧م باعتناء دي غويه وعليه بعض تعليقات مع ترجمتها إلى اللغة اللاتينية وطبع ثانية مع ترجمة فرنسية وشروح وتعليقات باعتناء الأستاذين دوزي ودي غويه في ليدن سنة ١٩٠٦م.

(٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر: لأبي زيد ولي الدين عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن بن

خلدون التونسي الحضرمي الأشبيلي المالكي المتوفي سنة ٧٩٧هـ،، دخل في خدمة أمير تونسي ثم رحل إلى بجايه وقلده سلطانها أعمال دولته. ثم فارق تونس سنة ٧٨٤هـ وأقام بالقاهرة وعينه السلطان برقوق قاضي القضاة المالكية وعزل عنها بسبب تعصب الأمراء عليه. ثم سافر إلى الشام مع السلطان فرح الملك الناصر وأخذ تيمور لنك أسيراً سميراً إلى سمرقند وقال له يوما [١]«لي تاريخ كبير جمعت فيه الوقائع بأسرها فخليفته بمصر وسيظفر به المجنون»«يشير إلى برقوق» وأستأذنه في أن يعود إلى مصر فأذن له ورجع إليها فكانت وفاته بها فجأة. وكتابه يعرف بتاريخ ابن خلدون ويقع في سبعة أجزاء اتبع في تأليفه الطريقة الزمنية أي تسلسل الحوادث حسب تعاقبها الزمني منذ بدء الخليقة حتى وفاته واهتم كثيراً بأخبار المغرب والبربر.. اعتمدت كثيراً عليه ولا سيما الجزأين الثالث والرابع. كما أخذت نصوصاً من مقدمته المشهورة، وعي على جانب كبير من الأهمية التاريخية، وتعتبر أول كتاب من نوعه في الأدب العربي وتجربة وحيدة لتلخيص التاريخ من القصص وجعل التحقيق مسيطراً عليه، وللبحث في قوانين التاريخ مما أكد الصلة الوثيقة بين التاريخ كعلم وبين العلوم الأخرى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. فقد اتخذ لبن خلدون تطور الحالات الاقتصادية والانتقال من البداوة إلى حالة الاستقرار، ومن الحياة القروية إلى حياة المدن أساساً لنظريته بدل تغير النظم السياسية المتخذة أساساً لدى مؤرخي اليونان الاستنباطيين **Pragmatique** ويتساءل الأستاذ بارتولد [٢] بتأثير من من العلماء وأي الكتب نشأت نظرية ابن خلدون، ثم يجيب عن هذا السؤال بأنه بحث لا يزال مجهولا إلى اليوم، ولم يستطع ابن خلدون تطبيق نظريته على الأحداث التاريخية كما حدث لكثير من أصحاب النظريات في الأزمان القديمة والحديثة.. وفي نظر حضرة المستشرق مقدمة ابن خلدون كمقدمه ديودوروس تشبه جداراً مزخرفاً لواجهة جميلة فإذا أخرجنا المقدمة بقى كتابه مجموعة من الحوادث؛ فهو كجميع جامعي القرون

---

(١) معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف سركيس جـ ١ مجلد ٢ ص ٩٥.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٦٠.

الوسطى ينقل روايات من سبقه من المؤرخين بدون تغيير في معظم الأوقات، ولم تؤثر نظرية ابن خلدون في غيره من مؤرخي العرب.

(٦) التعريف بالمصطلح الشريف: لمؤلفه شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى المشهور بالعمري لانتهاء نسبه إلى عمر بن الخطاب. تقلد ديوان الإنشاء والرسائل في البلاط القاهري أيام ولاية الناصر مُحَمَّد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩– ٧٤١هـ) والذي كان اختصاصه يتناول ما يسمى يتناول ما يسمى اليوم في لغة السياسة الحديثة بنظم «البروتوكول»وهي عبارة عن الرسوم الإجراءات التي تجري عليها الدولة في تنظيم علاقتها الخارجية وتسمى هذه الرسوم والنظم في الدولة الإسلامية بالمصطلح الشريف [1]. وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها، ويعرض نماذج منها ومن الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية. ثم يتحدث عن أوضاع الممالك وتقاسيمها الإدارية وعن مراكز البريد والخيل وبريد الحمام الزاجل وأبراجه ووسائل المواصلات البحرية. ويعتبر كتاب العمري دستور المصطلح الشريف في مصر الإسلامية.

(٧) ويرى القلقشندي صاحب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أن كتاب العمري أنفس الكتب المصنفة في هذا الباب [2]، وقد انتفع به القلقشندي في موسوعته أعظم انتفاع، ونقل إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل والمكاتبات السلطانية التي دبجت بقلم العمري في ظروف ومناسبات مختلفة، ويمكن القول أن الجزء الخامس بالبريد في موسوعة القلقشندي منقول عن العمري مضافاً إليه تعليقات القلقشندي الخاصة، وتوفي العمري سنة ٧٤٩هـ، ١٣٤٨م... ولفضل الله العمري أثر آخر ضخم هو «كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار»، وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية المصرية الضخمة وهي: مسالك الأبصار، ونهاية الأرب

---

(١) الأستاذ مُحَمَّد عبد الله عنان. الرسالة العدد ١٠٧ سنة ١٩٣٥م.

(٢) القلقشندي ج ١ ص ٧.

للنويري، وصبح الأعشى للقلقشندي... والأولى تملأ عشرين مجلداً كبيراً أخرجت دار الكتب المصرية الجزء الأول منها، والباقي مخطوط... والثانية أخرجت الدار نحو ثلثه في ثلاثة عشر مجلد والباقي مخطوط.. أما الثالثة فقد أخرجتها لنا دار الكتب في أربعة عشر مجلداً. وقد اعتمدت اعتماداً كبيراً على موسوعة القلقشندي في رسالتي خصوصاً المقالة العاشرة بالجزء الرابع عشر، وتكلم فيها على البريد وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام، وبيان معالم ومراكز ومطارات الحمام الرسائلي وأبراجه بالديار المصرية والبلاد الشامية والمناور والمحرقات. وكتاب القلقشندي كتاب تاريخ كما هو كتاب أدب لم يغادر صغيرة ولا كبيرة °لا أحصاها، ولم يدع شاردة ولا واردة إى ذكرها. ولد القلقشندي ببلدة قلقشندة بمديرية القليوبية سنة٧٥٦هـ وتوفى سنة ٨٢١هـ.

(٨) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار: لتقى الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر بن مُحَّد الحسيني البعلي الأصلي القاهري المعروف بالمقريزي نسبة لحارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة. نشأ بالقاهرة وتفقه على مذهب الحنيفة، ثم تحول شافعيا بعد مدة طويلة، وتفقه وبرع وصنف التصانيف المفيدة النافعة الجامعة لكل عمل؛ وبلغت شيخوخة ستمائة نفس، وكان حسن الذاكرة بالتاريخ. فأشتهر بعمدة المؤرخين وعين المحدثين حتى صار يضرب به المثل. ولي حسبة القاهرة أول ولايته من قبل الملك الظاهر برقوق، وولي عدة وظائف دينية وعرض عليه قضاء دمشق في أوائل الدولة الناصرية فأبى أن يقبل ذلك... وكتابه جامع لكثير من الخطط والآثار والحكم المأثورة حتى تاريخ وفاته سنة ٨٤٥ هـ وقد استفدنا منه كثيراً في الفصل الخاص بالبريد في مصر الإسلامية... وللمقريزي نرى كتاب آخر هو:

(٩) السلوك لمعرفة دول الملوك: وتقوم مطبعة دار الكتب المصرية الآن بإخراجه في صورة جديدة تحت إشراف أستاذي الدكتور مُحَّد مصطفى زيادة الذي ذيله بكثير من شروحه وتعليقاته وتصحيحاته القيمة؛ وولاد في رسالتنا كثير من نصوص المقريزي التي عالجت موضوعنا في عصر الظاهر بيبرس. والكتاب يشتمل

على ذكر ما وقع من الحوادث إلى يوم وفاته. وقد ترجم منه إلى الفرنسية الأستاذ quatremère قسما سماه «تاريخ السلاطين المماليك» طبع في باريس سنة ١٨٣٧ في جزأينHistoire des Sultans Mamlouks 2 tomes ولم تخل رسالتنا من بعض النصوص المأخوذة منه خصوصا من الجزء الأول القسم الثاني.

(١٠) ومن المراجع الهامة التي اعتمدت عليها كتاب الطائر الغريد في وصف البريد تأليف نعمان أفندي أنطون من موظفي البوستة المصرية في أواخر القرن التاسع عشر. يقع كتابه في أكثر من مائتي صفحة مكتوب بأسلوب الموظف لا بأسلوب المؤرخ أو الأديب. وشكل الكتاب وورقه وطبعه يوهم القاريء بضآلة قيمته العلمية. يقع الكتاب في بابين الأول خاص بعموم البريد؛ من بريد حربي وبريد عمومي وكذا البريد الخصوصي؛ ثم إدارات البريد ومراكزه وأدواته ومعداته وطوابع البريد وموظفوه؛ ثم الخصوصي؛ ثم إدارات البريد ومراكزه وأدواته ومعداته وطوابع البريد وموظفوه؛ ثم لمحة عن تاريخ البريد القديم والحديث... والباب الثاني خاص بالبريد المصري من أقدم العصور إلى أحدثها مع شرح مستفيض للبريد المصري الحديث وما طرأ عليه من تطورات وإصلاحات في عصوره المختلفة من حيث طوابعه وقوانينه الخ... والكتاب به مادة تاريخية محترمة عن البريد، أعتقد أنها جمعت من مصادر عربية وأفرنجية لها قيمتها العلمية. ويشير المؤلف في مقدمته إلى هذا المعنى بقوله «حتى لو تمكنت من أن أودع هذا التأليف كلما يلذ المطابع خبرة ويفيده أمره من أصح الموارد وأصدق الشوارد مع بيان ما صادفته جميع البرد من التقلبات والنظامات من ابتداء ترتيبها إلى وقتنا هذا. فلم أترك من أوصاف البريد وطرقه وترتيبه وحكمه واسطة أو حادثة إلا ذكرتها، ولا فائدة أو نادرة إلا أوردتها بنوع مجرد من الغايات الخصوصية في علاقاتنا بالأشغال العمومية»...

ويؤخذ على المؤلف أنه لم يذكر المراجع والمستندات التي استقى منها منها مادته وأنه لم يذيل كتابه بالأصل الذي أخذ عنه النص فجاء كتابه خلوا من الإشارة إلى أي مرجع كان؛ فهو لم يفد الباحث من هذه الناحية. الأمر الذي أتعبني كثيراً في الرجوع إلى الأصول الأولى التي أخذ عنها بالبحث عنها في الكتالوجات فكنت أوفق أحياناً

في العثور عليها وأفشل أحياناً أخرى.

(١١) تاريخ البريد في مصر: وضعته مصلحة البريد المصرية بمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمي العاشر بالقاهرة سنة ١٩٣٤؛ ومن المدهش حقاً أن مؤلفي هذا الكتاب قد وقعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه مؤلف الكتاب السابق إذا استثنينا بعض المراجع الأجنبية التي ذكروها بصفة عامة في أول الكتاب، وقد اتصلت بأحد واضعي هذا الكتاب وهو رئيس قلم بمصلحة البريد الآن على استشف منه بعض المعلومات التاريخية، وأخبرته بهذا النقص البين في كتابهم؛ فأجاب بأن معظم النصوص الواردة بالكتاب جمعت عن طريق تكليف بعض السفارات المصرية في الخارج بترجمتها من أوراق البردي المصرية هناك أو من الكتب الأجنبية أو عن طريق مصلحة الآثار نفسها. كما أنه شكا من عدم إعطاء مصلحة البريد مكافآت مالية لهم إزاء هذا المجهود الشاق. والكتاب عظيم من الناحية التاريخية للبريد النصري من أقدم العصور، ومطبوع على ورق يغري القاريء بقراءته، واعتمدنا عليه اعتمادا كبيرا في الفصل الأول والخامس كما نقلنا عنه خريطة للبريد في مصر المملوكية وأخرى لبريد الحمام الزاجل.

(١٢) وهناك كتاب آخر اسمه «تاريخ البريد في العالم» لمؤلفه جمال العربي أفندي. أعتقد أنه نقل معلوماته التاريخية نقلا حرفيا عن الكتابين السابقين، ولم يأت بجديد من عنده اللهم إلا ترتيب وتقديم بعض الحوادث على البعض الآخر، ولم يشر في كتابه إلى مرجع واحد على الإطلاق فهو قد فيما وقع فيه مؤلفو الكتابين السابقين مخالفاً لقواعد البحث العلمي من ناحية، وغير مراعيا الأمانة التاريخية من ناحية أخرى.

وثلاثتهم قد أفادتني في نواح كثيرة، ولا سيما معرفة البريد عند الأمم القديمة ومصر خصوصا، ثم بريد مصر في العصور الوسطى، وكذا البريد الجوي والمائي. ولو كتب الطائر الغريد في وصف البريد على طريقة البحث الحديثة وبأسلوب العلم الحديث، وذيلت نصوصه بالمراجع الأصلية، لكان خير كتاب كتب عن تاريخ البريد في العالم على ما أعتقد.

(١٣) تاريخ التمدن الإسلامي: للمرحوم الأستاذ جورجي زيدان المتوفى سنة ١٩١٤ وهو لبناني الأصل اشتغل بالطب ولم يكمله، واتجه إلى الأدب بعد أن احتضنته مصر. فتولى تحرير جريدة الزمان، ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤، بصفة مترجم بقلم المخابرات، واشتغل في إدارة المقتطف فترة، وأنشأ مجلة الهلال في أواخر سنة ١٨٩٢. وضمن في هذا الكتاب الكلام على الدولة الإسلامية وسعة ملكها وتاريخها الإداري والسياسي والمالي وأسباب ثروتها وتكوينها وانحطاطها، وتناول الكلام على خلفاء الإسلام ورجال حكومته. طبعته مطبعة الهلال في ستة أجزاء، وإني أعتقد أن الأستاذ جورجي زيدان أول من طرق باب الحضارة الإسلامية منبها المحدثين إلى الثروة المخزونة في بطون الكتب عن تلك الحضارة، وسرعان ما كان لمؤلفاته صدى كبيرا وأثرا مشكورا في نفوس المؤرخين المعاصرين أمثال حضرات الأساتذة: مُحَمَّد كرد علي، وأحمد أمين، والدكتور مُحَمَّد مصطفى زياده، والدكتور حسن إبراهيم، ومُحَمَّد عبد الله عنان، والأمير شكيب أرسلان. الخ.. والمادة التاريخية التي نقلتها عن هذا الكتاب وعن مجلة الهلال (المجلد السابع من السنة العاشرة) ذات قيمة علمية ملموسة الأثر في معظم فصول الرسالة.

(١٤) التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التي كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية في المدينة المنورة العلية، تأليف العلامة السيد عبد الحي ابن عبد الكبير الحسني الكتاني الإدريسي الفارسي، اعتمد فيه على كتاب تخريج الدلالات الشخصية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية للعلامة أبي الحسن علي بن ذي الوزارتين المعروف بالخزاعي (٧١٠هـ- ٧٨٩هـ). ذكر الكتاكي أنه رتب كتابه على عشرة أقسام، كما رتب الخزاعي كتابه على عشرة أجزاء، وقسم كل قسم إلى أبواب وكل باب إلى فصول، وقد اعتمدت على القسم الأول باب الرسول، ثم باب الخانات والتجسس وباب الطرق وباب العمال الخ. يقع الكتاب في جزأين وله مقدمة طويلة في ترجمة الخزاعي والتعريف بالكتاب وهو قيم من حيث أنه يجمع ما ورد عن الشيء الواحد في

عدة كتب؛ ويؤخذ عليه أنه لم يعلق على النصوص أو الأحاديث النبوية، مكتفياً بما ورد في المقدمة من استعراض كتب السيرة والأحاديث والشريعة الإسلامية من فقه وتفسير وقصور المؤلفين المحدثين عن ذكر الوظائف الإدارية في عهد الرسول. ولولا عثوري على هذا الكتاب بإرشاد من معلمي العبادي لجاءت رسالتي خلوا من المادة البريدية في عهد الرسول والخلفاء الراشدين. طبع الكتاب سنة ١٣٤٦ بالمطبعة الأهلية بدرب الفاسي عدد ٣ بالرباط.

(١٥) فجر الإسلام: وضعه الأستاذ أحمد أمين دراسا فيه الحياة العقلية للأمة العربية إبان القرن الأول للهجرة، مبتدأ الكلام عن جغرافية بلاد العرب وأثرها في أهلها، ثم علاقتهم بالأمم العربية المجاورة من روم وفرس وأحباش، وقد اقتبسنا نتفا قصيرة من هذه العلاقات، ووضحنا أثرها في النظم الحكومية عند العرب، ثم يستمر في الكلام عن العقلية العربية في جاهليتها وإسلامها، والكلام عن الفرق الدينية والسياسية من خوارج وشيعة ألخ. وللكتاب مقدمة طريفة بقلم الدكتور طه حسين والكتاب في مجموعه قيم وعظيم لا لرجل أدب فحسب، بل ورجل التاريخ أيضاً. ولا أكون مغاليا إذا قلت أن الإنسان لا يستطيع أن يحكم على مبلغ ما وصلت إليه الضحارة الإسلامية من القوة والسلطان إذا لم يكن قد قرأ كتاب فجر الإسلام، وقد ورد كثير من نصوصه في الفصول الأولى من الرسالة، لأنه المرآة التي يرى الباحث من خلالها حياة العرب العقلية والسياسية والإدارية والاجتماعية.

ومن المصادر الأفرنجية التي اعتمدت عليها...

(١٦) كتاب الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري **Die Renaissance des Islams** تأليف الأستاذ أدم متز **Adam Mez** أستاذ اللغات الشرقية بجامعة بال بسويسره، والمتوفى سنة ١٩١٧. نقله إلى العربية في جزأين الأستاذ مُحَمَّد عبد الهادي أبو ريده وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر، وقد اختار المؤلف القرن الرابع الهجري لأنه هو العصر الذي بلغت فيه الحضارة والعلوم والفنون الإسلامية ذروتها،

فجاء شاملا لجميع نواحي الحضارة الإسلامية من سكان ومال وإدارة وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع. وكانت طريقة الأستاذ آدم متز في معالجته للنواحي الغامضة، كما قال الأستاذ أحمد أمين في تصديره للترجمة العربية تكاد تقتصر على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر متعددة دلت على مجهود مشكور بذله الأستاذ في جمع المادة وترتيبها ترتيباً علمياً، ومن جملة مصادر مخطوطات أربت على الأربعين موجودة في مكاتب أوروبا، ويؤخذ عليه أنه اكتفى بجمع النصوص وترتيبها من غير أن يدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل النادر، كما يؤخذ عليه أنه يستدل في بعض المسائل على رأي بنص واحد، والكتاب يعلمنا طرق البحث العلمي، ويقدم لنا درساً في صبر العلماء على معاناة البحث والاستناد إلى أكبر عدد من المصادر وغربلتها وأخذ خير ما فيها، ويكشف لنا عن نواح من الحضارة مجهولة.. وقد أورد لنا المؤلف جزأ كبيرا من الكلام عن المواصلات البرية والبريد وطرق البريد الهامة في الأمبراطورية الإسلامية، وقد اعتمدت عليه كثيرا في هذه الناحية، وأعطاني درساً في كيفية الحصول على ما أنا في حاجة إليه من كتب جغرافي العرب بعد أن يئست من قراءتها وخرجت وأنا جاهل لكل ما قرأت، فلما وقع نظري على كتاب الأستاذ متز بين لي أهمية ما قرأت في الكتب العربية.

(١٧) أما كتاب **The Lands of the Eastern Caliphate** لمؤلفه الأستاذ **Le Strange**، ويبحث كما هو مفهوم من عنوانه في طبيعة بلاد الشرق من حيث الأنهار والجبال والطرق والجسور ووسائل العمران، وكذلك المدن والقرى وقد شفع المؤلف بحثه بذكر الخرائط لكل إقليم على حدة، واقتصرت فائدة الكتاب لنا على المقدمة التي أورد فيها الكلام عن طريق الشرق الكبير المعروف بطريق خراسان، وكذلك الكلام عن الطرق المتفرعة منه وطرق الحج الخارجة من بغداد، وتتبع المؤلف طريق المشرق من بغداد حتى أعالي الصين، ثم ختم مقدمته ببحث علمي جميل في الكتب الجغرافية والجغرافية التاريخية للمؤلفين العرب منذ ظهور الإسلام حتى نهاية العصور الوسطى تقريبا موضحاً نواحي الضعف والقوة في كل كتاب، فجاء نقده لها

نقداً علمياً من الطراز العلمي الحديث.

(١٨) ومن المراجع الأفرنجية التي اعتمدت عليها كثيرا كتاب **Die Post-UndReiserouten des orients** للمؤلف الألماني **Sprenger** طبع في سنة ١٨٦٤ بمدينة لبزج واسمه البوستة (أي البريد) وطرق السياحة في الشرق، وزوده بست عشرة خريطة لهذه الطرق، استند في وصفها على أقوال وأوصاف مؤرخي العرب وجغرافيهم. والمطلع على الكتاب لا يسعه إلا أن يقدر المجهود المضني الذي بذله المؤلف في استعراض أجزاء الطرق المختلفة ومحطاتها وأبعادها كما وردت في كتب العرب المقارنة بها. وكثيرا ما يرى الإنسان جداول للمسافات بين شتى المحطات كما وردت في كتب ابن خرداذبه وقدامة والأصطخري فيصعب على الإنسان المقارنة بينها. على أن المجهود الأكبر الذي بذله المؤلف هو في إعداد هذه الخرط على وجه الدقة بقدر الإمكان، فليس يخفي أن العرب لم تترك لنا خرطا لهذه الطرق، كما أنها في ذكرها للمحطات والبلدان المختلفة كانت تكتفي بذكر البعد بينها وبين البلد السابقة أو اللاحقة دون أن تذكر إذا كانت إلى الشمال و الجنوب أو الشرق أو الغرب منها. كما أن كثيراً من الأسماء التي ذكرها العرب في كتبهم عنواناً على محطات البريد والبلدان قد أندرس معظمها ومحى أثره من الوجود، إما لتفاهة شأنه وأما لحلول أسماء جديدة محله. كل هذا مضافاً إلى الخلافات السابق ذكرها في تحديد المسافات كما وردت في كتب جغرافي العرب. وجب أن نضم إلى ذلك كله كون المؤلف في نهاية الأمر ليس عربيا، فهو يبذل بعض الجهد من غير شك لقراءة النصوص العربية وبخاصة في الكتب القديمة التي تخلو من الشكل بل والتنقيط أحيانا الأمر الذي يشير إليه المؤلف بالذات في مقدمة [1] كتابه.

كل هذا يمكن أن يعطينا صورة واضحة عن المجهود الشاق الذي بذله المؤلف بمساعدة كثير من زملائه العلماء للوصول إلى عمل هذه الخرائط، معينين بها بقدر

---

(١) ترجمة الأستاذ أحمد حسين المحامي.

الإمكان مواضع البلاد المختلفة التي ورد ذكرها في طرق البريد بالنسبة لخطوط الطول والعرض بحيث يمكن رسمها على أي خريطة وتتبعها والانتفاع بها.

وليس يسعنا إلا أن نقدر هذا المجهود الذي سبقنا إليه المستشرقون من الأجانب وكنا نحن أولى الناس به، والحق أن الطالب منا ليصيبه كثير من الخجل الممزوج بالحسرة والألم وهو يرى نفسه مضطراً إلى الالتجاء إلى كتب المستشرقين من ألمان وإنجليز وغيرهم ليستعين بهم في فهم مسائلنا العربية والإسلامية بل والدينية أحياناً، ولا جدال في أن هذا مظهر من مظاهر تطور البحث العلمي عند الأوربيين في هذا المضمار. غير أننا نحمد الله أن تم إنشاء جامعتين مصريتين [1] وزودتا بعدد من أكفاء الأساتذة سنتمكن نحن الطلاب بمعاونتهم من الإلمام بتراث أسلافنا فلا نعود في حاجة للاتجاه نحو الغرب لفهم شرقيتنا، وإلى أن يتم ذلك ولعله أوشك على التمام فنحن مضطرين من حين لآخر للالتجاء لكتب الأوروبيين عن الشرق في مختلف الشئون وبشتى اللغات.

ونحن مضطرون إما للعلم والحقيقة أن نسجل تقديرنا لمجهودهم العلمي الفذ وهذا هو ما نقرره ابتداء بالنسبة لكتاب الهير شبرنجر وإن كنا قد عدنا في مواضع مختلفة من الرسالة إلى تسجيل بعض الملاحظات والردود على ما ورد فيه.

(١٩) **La Poste aux Chevaux dans L'Empire des Mamlouks** بدأ الأستاذ **Sauvaget** العالم الفرنسي المشهور في تأليفه أواخر سنة ١٩٢٣ ونشره سنة ١٩٤١ ولم أعثر عليه إلا عند طبع الرسالة.

تناول المؤلف الحديث في الفصل الأول عن نشأة البريد في الدولة المملوكية والخدمات التي أداها الظاهر بيبرس بنوع خاص إلى الإدارة البريدية وطرق البريد ومحطاته وعماله وبريد الحمام وأبراجه والإشارات الضوئية. واعتمد بيبرس في تنظيمه للبريد على القواعد المعروفة عند كل من الخلفاء العباسيين والأباطرة المغول.

---

(١) أصبحت الجامعات المصرية الآن ثلاث عدا الجامعة الأزهرية.

وأشار الفصل الثاني إلى ازدهار مصلحة البريد بعد أن توقف الزحف المغولي وبعد أن زال الخطر الصليبي، كما أشار إلى التغييرات الجديدة التي أدخلها بنو فضل الله على المصلحة كالتنظيم المالي وإنشاء الطرق والمحطات الفرعية، وجعلها جميعاً في خدمة التجارة وتنشيطها فضلا عن القيام بنقل الأخبار الحكومية وهو العمل الأساسي للبريد.

ووضح الفصل الثالث عوامل تدهور نظام البريد ومنها انشغال السلاطين بالثورات والفتن الداخلية. واستبدال المدنيين بالعسكريين في الإشراف على مصلحة البريد من النصف الثاني للقرن الرابع عشر ثم غزو تيمورلنك أخيراً سنة ١٤٢١م.

ويحتوي الكتاب على ستة خرائط لتوضيح طرق البريد البرى والجوي ومحطاته في عصر المماليك، وبه أيضاً رسومات هندسية ومعمارية لدراسة بعض محطات البريد دراسة تفصيلية، فضلا عن خمسة عشر صورة فوتوغرافية للخانات والاستراحات البريدية في سوريا وفلسطين وشبه جزيرة سينا وبعض مناظر للمؤلف أثناء مشاهداته لتلك الآثار التاريخية.

وجمع المؤلف مادته من الأصول التاريخية والأدبية المعاصرة ومن مشاهداته الشخصية لبقايا محطات البريد والنصوص المنقوسة عليها، وصحبه في زياراته لها أساتذة المعهد الفرنسي بدمشق.

الفصل الأول

البريد قبل الإسلام

١- معنى كلمة بريد:

قبل أن نمضي في استعراض البريد عند الأمم القديمة كان من لوازم البحث العلمي أن نفسر معنى بريد اصطلاحاً ولغة، وأن نبحث كذلك عن أصل الكلمة وهل هي فارسية أم عربية أم رومية، بحيث يخرج القاريء من هذا البحث الأولي وقد أدرك تماماً المقصود من موضوع الرسالة وتتبع بإيضاح ما يقع تحت بصره ممن نصوص وحقائق تاريخية ملموسة. والواقع أن تفسير معنى هذه الكلمة كان محل خلاف في الرأي لدى جماعة الكتاب والمؤرخين وهل الكلمة عربية الأصل أم أعجمية، فالبريد اصطلاحاً هو أن يجعل خيل مضكرات في عدة أماكن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى المكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً وكذلك يفعل في المكان حتى يصل بسرعة [١], وهذا ما فسره الأستاذ العبادي بقوله: «إن كلمة بريد مأخوذة من الكلمة اللاتينية **Veredus** أي الدابة التي يركبها العامل في نقل مكاتبة من مكان لآخر فالبريد في الأصل اسم الدابة التي يركبها العامل ثم نقلت مجازاً إلى المسافة المقطوعة فهو عندهم كذلك وساتعملت للنظام كلمة كمصلحة البريد»[٢]. وعلى ذلك يكون المعنى اللغوي لكلمة بريد مسافة معلومة بين مركزي بريد، قدرها الفقهاء وعلماء المسالك والمماليك بأنها أربعة فراسخ أو أقنى عشر ميلاً [٣]. وقد اختلف المؤرخون في أصله فذهب بعضهم ومنهم القلقشندي إلى أنه عربي مشتق من

---

(١) النظم الإسلامية ص ٢٥٤– **Sauvaget P. 27**

(٢) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبدالحميد العبادي.

(٣) التراتيب الإدارية ج ١ ص ٢٩١– **Sauvaget P. 27**

برد أو أبرد بمعنى أرسل فتقول بردت الحديد إذا أرسلت ما يخرج منه، وقيل من برد بمعنى ثبت لأنه يأتي بما تستقر عليه الأخبار ويقال «اليوم بارد سمومه» أي ثابت [(١)]. وذهب آخرون إلى أنه فارسي معرب فأصله بالفارسية «بريدة دم» ومعناه مقصوص الذنب، وذلك لأن الفرس من عادتهم أن يقصوا ذنب الخيول والبغال التي يقيمونها في البريد ليكون ذلك علامة لكونها من حيوان البريد، وفي المعنى أنشد الجوهري لأمريء القيس:

على كل مقوصو الذنابي معاود   بريد السرى بالليل من خيل بربرا [(٢)]

وقد ذهب فريق ثالث إلى أن الكلمة محرفة عن (بردي) وهو نوع كالورق كان يستعمله قدماء المصريين وقد أطلق على البردي بريدي ثم اختصر فصار بريداً [(٣)] وهذا الرأي بعيد عن الصواب من غير شك لأن الأخذ به يفهمنا خطأ أن العرب لم يعرفوا البريد إلا عند فتحهم مصر ومعرفتهم

ورق البردي [(٤)].وكان هذا غير صحيح إذا المعروف كما سيجيء بعد أنهم البريد في جاهليتهم أي قبل فتحهم مصر بمئات السنين... صحيح أن العرب لما فتحوا مصر كثر استخدامهم لورق البردي ونشروه في أنحاء المملكة الإسلامية وقد اشتهرت مصر بهذه الصناعة من عهد قدماء المصريين واستمرت مصانع الورق على عملها بعد فتح العرب لها.. وخلاصة القول نستنتج أن العجم لهن الفصل الأكبر في

(١) القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٦٦.

(٢) القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٦٦.

(٣) الطائر الغريد ص ٥.

(٤)ذكر الأستاذ أحمد أمين أن الوليد بن عبد الملك كان يستعمله في شئونه الخاصة وكان الخلفاء يفضلونه على غيره من أنواع الورق لأنه لا يمكن محو ما فيه من غير أن يعرف، وأكثر مصانعه كانت في الوجه البحري لكثرة ما فيه من نبات البردي، وأهم مراكز صناعته مدينة بورة على الساحل قرب دمياط. وكانوا يصنعونه أنواعاً، منه ما نعم وغلا ومنه ما خشن ورخص ويصنعونه أدراجا يلف كل درج منها، وقد يبلغ طول الدرج ١٥ مترا وكان يباع الدرج حول سنة ١٨٤ هـ من النوع الجيد بدينار ونصف دينار وهو ثمن عال خصوصاً إذا لاحظنا أن هذا القدر يدفع إيجار الفدان صالح للزراعة مدة عام. وقد أصدر عمر بن عبد العزيز أمره بالاقتصاد في استعمال الورق_ ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢١.

معرفة البريد وترتيب نظامه بمعناه الشامل وأن اسمه أعجمياً في أصله لا عربي كما ذهب القلقشندي وغيره. ويؤكد استنتاجي هذا ما ذكره بعض المستشرقين [1] من أن أكثر مصطلحات البريد التي كانت مستعملة أيام الخلفاء فارسية الأصل ومنها الفرانق والفيج [2] والشاكري [3] بمعنى راكب البريد والأسكدار وهو السجل الذي يدون فيه عدد حقائب البريد والخطابات ويثبت فيه كذلك ساعات الوصول إلى سكك البريد والخروج منها.

وعليه يكون لفظ «بريد» فارسي الأصل لا روميه لأن دولة الفرس أقدم في الوجود والحضارة من دولة الرومان، ولأن ما اقتبسه الرومان من أنظمة الحكم وقواعده من غيرهم مرجعه إما إلى الإغريق أو الفرس وبما أن الإغريق لم يرد في ما تناولته من مصادر ما يثبت عنايتهم بالبريد على النحو الذي كان معمولاً به في فارس فإني أعتقد إرجاع الكلمة إلى الفرس كما يفهم من النصوص السابقة ومما سيرد بيانه عند الكلام على البريد عند كل من الرومان والفرس.

وكثيراً ما كانت تطلق كلمة بريد على الرسول وفي الحديث_ إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد أي لا أحبس الرسل الواردين علي [4] _ ومنه الحديث أيضا_ إذا أبردتم إلى بريداً إي أنفذتم رسولاً [5]_ وقال بعض [6] العرب الحمى بريد الموت أي رسوله تنذر به، وأيضاً قيل ادابة البريد بريد لسيره في البريد وهو المسافة التي بين السكتين_ قال الشاعر:

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن ٤هـ جـ ٢ ص ٣٤٧

ومعناها الساعي على قدميه ونلاحظ أثر كلمة **Ped** الرومية في هذه التسمية_ متز جـ ٢ ص ٣٤٧.

(٢)ومعناها الساعي على قدميه ونلاحظ أثر كلمة **Ped** الرومية في هذه التسمية_ متز جـ ٢ ص ٣٤٧.

(٣) ومعناه الصياد.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر جـ ١ ص ٧٢.

(٥) نفس المصدر والصفحة_ لسان العرب جـ ٤ ص ٥٣.

(٦) لسان العرب جـ٤ ص ٥٣

أني أنص العيس حتى كأنني عليها بأجواز الفلاة بريدا[1]

ومسافة البريد تقاس بالأميال أو الفراسخ كما ورد عند ابن خرداذبة وقدامة أو بالمراحل كما فعل الاصطخري والمقدسي، وقد قومت المرحلة لفرسخين في بلاد فارس وأربعة فراسخ في المغرب والفرسخ في الحالتين ثلاثة أميال [2]، وفي الحديث لا يقصر الصلاة في أقل من أربعة برد وهي ستة عشر فرسخا [3]. وكان الخلفاء يقيسون المسافات بالأميال غربي الفرات أما في شرقية فبالفراسخ [4] وقد اختتم **Sprenger** مقدمته ببحث طويل في الأطوال خصوصاً مقدار الميل عند العرب وكيف وصلوا إلى تحديده فيشير إلى حادث المأمون عندما طلب من علمائه الرياضيين قياس درجة من درجات محيط الكرة الأرضية فإذا مقدارها ٥٧ ميلاً عربياً، وفي رواية أخرى أن مقدارها ٥٦ وثلثاي ميلا، ويرى البعض أن الميل العربي يساوي ٢٠٠٠ متراً أو ٢١٨٦ ياردة انجليزية وليس عندنا قياس تركه العرب على وجه الدقة عن الميل والذراع، وقد اعتبر شبرنجر طول الميل العربي أنه يزيد عن الميل الإنجليزي بمقدار ٣٥٧، قدم وقد قدر المقدسي الفرسخ الواحد بثلاثة أميال عربية أو ساعة طريق والمرحلة في صحراء سوريا والعراق بأثنى عشر ميلاً والمرحلة في سوريا وخراسان بستة أميال والسائر المجد يقطع في اليوم ستة فراسخ وسبعا [5].

(٢) البريد عند الجماعات والأمم القديمة: لا شك أن نظام البريد بمعنى تبادل الأخبار والرسائل الشفوية والمكتوبة بين فرد و آخر في مكانين متباعدين أو بين جماعة وأخرى من الأنظمة التي تأخر ظهورها في الجماعة البشرية، ولم تبدأ خطواتها

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٢ ص ٦٠٩.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر جـ ١ ص ٧٢.

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن ٤هـ جـ ٢ ص ٣٤٨_ لسان العرب ص ٥٣٤.

(٥) مقدمة **Sprenger**

انظر ملحق الرسالة عن المقياس الطولي عند العرب.

الأولى في أبسط صورها وأصغر معانيها إلا بعد محاولات واجتياز عدة حلقات من تدرج الإنسان في سبيل المدنية والعمران. فهذا الإنسان القديم الذي كان يعيش بنفسه على الفطرة يتلمس الرزق من الصيد والقنص محاطاً بأسرة مؤلفا بذلك وحدة مستقلة، قلما كان يدور بخاطره فكرة الأتصال بإنسان آخر لأي غرض من الأغراض، إلا أن يكون السطو والاعتداء عليه، معتبرا العزلة ضرورة من ضرورات حياته، ولكن سرعان ما تبدد هذا الاعتبار طواعية لاتساع نطاق الأسرة الذي بدأ يوجد بذرة العمران رويدا رويدا، وما تحمله في طياتها من تعاون بين أفراد الجنس البشري.. وتدرجت الإنسانية بعد ذلك في سلم الارتقاء، فكان التفكير في صنع الآلات، وكان الالتصاق بالأرض والاستقرار في أماكن معينة منها، وما استتبعه ذلك الاستقرار من خلق فكرة الحكومة التي يتعين عليها الدفاع عن سلامة المجموع ضد غارات المغير من الأجانب من القبائل المنافسة أو العناصر الأقل تمدنا... ومنذ ذلك اليوم الذي فكر فيه زعيم القبيلة الحاذق أن خير وسيلة يدفع بها الأذى عن قبيلته، هو وضع الحراس على أطراف منطقة قبيلته لإنذاره بالغارات الأجنبية قبل حدوثها ليتقي شر المباغتة، ويتخذ الأهبة للدفاع... منذ ذلك اليوم وقد وضعت اللبنة الأولى في نظام البريد، وعلى مر الزمن ذهب بعض الزعماء خطوة أبعد من ذلك، إذ وجدوا أن إنذار طلائعهم الساهرين في حدود منطقتهم لا يفي بالغرض المقصود، ولا يسمح لهم بالوقت الكافي للاستعداد، والأجدر بهم أن يبثوا العيون والأرصاد على حدود القبائل المجاورة لتنذرهم بالخطر في أدواره الأولى، فيتاح لهم فرصة أوسع للاستعداد والتهيؤ للدفاع. هذه الجاسوسية البدائية هي خالقة فكرة البريد في معناه القديم؛ وليس أدل على ذلك من بقاء الجاسوسية جزأ حيوياً في نظام البريد، حتى بعد أن تطور وصار يشمل أغراضاً أخرى في حياة الأمم القديمة الكبرى: كالهند والصين والفرس واليونان والرومان ثم العرب فيما بعد.

وليس هذا التصور الذي تصورناه لنشأة نظام البريد سوى ضربا من ضروب الخيال بطبيعة الحال على أن الذي نقرره في تأكيد هو أن السلطة الحكومية في أخشن

مظاهرها أو بالأحرى في صورتها البدائية هي التي شعرت بأن من لوازمها أن تتلقى أخبار بعض ما يجرى في مكان آخر، وعملية نقل الأخبار هذه هي لب نظام البريد في العصور القديمة، فالحكومة وليس الأفراد هي المنشئة لنظام البريد، فلم يكن للأفراد في أي جماعة من الجماعات القديمة أي نشاط من شأنه خلق التراسل، فقد كانت كل جماعة تعيش في حيز محدود من الأرض، في استطاعة كل فرد فيها أن يزرعه على قدميه من مشرقه إلى مغربه، ولم يكن لدى الأفراد من الشواغل والموانع ما يحول دون مشافهة فرد لفرد آخر... وقد كانت كل جماعة تؤلف وحدة مستقلة تكاد لا تتصل بما يجاورها من جماعات إلا أتصال المنافسة والعداء، فكان من الطبيعي ألا يكون لأي فرد من جماعة أدنى اتصال بفرد في جماعة أخرى، وحسب الإنسان أن يتصور المجتمعات القديمة في مصر وفي اليونان وفي الفرس، حيث يجد كل مديني تنطوي على نفسها متحصنة خلف أسوارها مقطوعة الصلة عن كل ما يجاورها، لها لغتها الخاصة وتقاليدها وعاداتها ورئيسها، بل ومعبودها الخاص وشعارها.. على أن تطور البشر رويدا رويدا، وإخلاء القبائل إلى الاستقرار قد دفعهم نحو الرغبة في السلام دفعا، فجاش في صدر زعيم من الزعماء أنه من الخير له ولعشيرته ومدينته أن يتراضى مع جيرانه الذين لا ينفكون يشنون عليه الغارات، فأوفد لهم مندوبا من قبله يدعوهم للتفاهم والتفاوض على احترام كل من الجارين لجاره، ولم يكن هذا المندوب الأول في الواقع إلا رائد أصحاب الرفعة والسهادة من سفراء [1] العصر الحاضر، كما كان أول ساع من سعادة البريد بالمعنى الفني، فقد كان يحمل أول رسالة من زعيم إلى أخيه زعيم القبيلة الأخرى يبلغه فيها تحياته واحترماته، ويدعوه فيها لما يعود بالخير والنفع على القبيلتين. وهكذا وجد الوجه الثاني من أوجه نشاط البريد لأغراض السلم.

(٣) نصيب الأفراد من نظام البريد: قد يلاحظ القاريء اهتمامي بتحليل

---

(١) شبه **Henri Lammens** (ص ٣٢١) صاحب البريد في الدولة الإسلامية بسفراء الدول الأوروبية الذين ترسلهم حكوماتهم إلى بعض المستعمرات لمراقبة ملوكها الوطنيين ومشاركتهم في الإشراف على حكوماتهم.

الحوافز والعوامل التي أدت إلى الإحساس بضرورة نقل الأخبار ثم الرسائل ضاغطا على القول بأنها ثمرة من ثمرات النظام الحكومي في أبسط صورة لأننا سنرى في كل الفصول المقبلة أن البريد سيظل دائماً أبدا من أخص خصائص السلطة الحكومية، سيظل إلى عصور متأخرة جداً وقفا عليها، وسنرى أن كل تنظيم للبريد وأعماله ليس له إلا غاية واحدة هي أن يظل الحاكم على اتصال مستمر بعماله في أنحاء المملكة مراقبا لما يجرى فيها وأن يكون أكثر قدرة على حكمها في الداخل والدفاع عنها في الخارج. أما الجمهور والرسائل كما هو الحال في العصر الحاضر حيث تطغى رسائل الأفراد على رسائل الحكومة في الداخل والخارج؛ فلا تكاد تبذل مصلحة البريد من الجهد لنقل الرسائل الحكومية إلا جزء من مائة جزء ما تبذله لنقل رسائل الجمهور وأفراد الشعب، فإذا لم ندرك منذ الآن أن هذا الانقلاب في موضوع نشاط البريد ليس إلا مظهراً من مظاهر التطور البشري الحديث، وآية من آيات العصر الحاضر الذي تطورت فيه الإنسانية تطورا منقطع النظير، فإني أخشى عندما نصل إلى استعراض نظام البريد في الدولة الإسلامية أن نرميه بالقصور والتخلف لمحض اقتصاره على المصلحة الحكومية؛ فيجب أن نفهم أن البريد قد نشأ لحاجة من حاجات السلطة الحكومية وظل كذلك محصوراً في هذا النطاق لدى جميع الدول القديمة السابقة على الدولة الإسلامية بل وفي الدولة الحديثة أيضاً إلى ما قبل قرنين أو ثلاثة.

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك وجود للرسائل الخاصة أبداً، بل لقد نشأت الرسائل الخاصة وتكاثرت بمجرد استتباب السلام بين الجماعات المختلفة وتبادل المنافع فيما بينها مما انتهى حتما إلى اختلاط التجار من هنا وهناك وإقامتهم لمدد مؤقتة أو دائمة في الجماعة أو تلك، فلما استعت رقعة العمران وانساح الناس ضاربين في سائر الاتجاهات أصبح من المتعذر عليهم الاتصال المباشر في كل وقت وآن بمساقط رؤوسهم، فبدأت الحاجة للتراسل بل والتراسل المنظم كما هو الشأن في وقتنا الحاضر؛ على أن ذلك لم يؤثر عن قريب أو بعيد في تطور نظام البريد، فقد كان كل فرد يسعى لإيصال رسائل بوسائله الخاصة إلى المرسل إليه، فإذا عن له أن يرسل

لشخص آخر في بلد بعيد وكان غنيا فما عليه إلا أن يرسل ساعيا من قبله يسير على قدميه أو يمنحه دابة يمتطيها فيؤدي الرسالة ويعود إلى سيده. وإن كانت ظروفه المالية لا تمكنه من ذلك أو الذهاب بنفسه فإنه يلجأ عادة إلى الانتظار والتربص ريصما يوفق إلى معرفة شخص يقصد هذا البلد فيعهد إليه برسالته لإيصالها إلى مستقرها، وبغير ذلك لم يكن ثمة وسيلة لإبلاغ الرسالة. وقد ظل هذا هو الأسلوب المتبع حتى في أوج الحضارة الإسلامية عندما تم انشاء مصلحة بريد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى فلم يكن أمام التاجر الذي يريد أن يبعث برسالة أو بمبلغ من المال إلا أن يبعث بها مع رسول خاص أو شخص من معارفه قد يتفق أن يكون مسافرا إلى نفس البلدة، فإذا لم يكن هناك أحد من ذوي معرفته فما عليه إلا أن يخرج إلى ظاهر المدينة في انتظار القافلة المسافرة إلى البلد المقصود ليعهد برسالته أو أمانته إلى رئيسها أو واحد من أفرادها إما على سبيل التطوع والتبرع أو على سبيل المقارضة والاتفاق على جعل معلوم، ولا يزال هذا هو أسلوب أعراب البادية في نقل أخبار رسائلهم في طول هذا الخضم من الصحراء وعرضه.

ولذلك فيجب أن نوفر على أنفسنا منذ الآن مؤونة البحث في نظم البريد القديمة عن مدى استعماله في مصالح الأفراد الخاصة فلقد جهدت نفسي إجهاداً شديداً خلف هذه الغاية، وفرضت أنني لا أستطيع أن أصف نظام البريد عند العرب بالتطور والارتقاء إلا إذا حققت مدى استعماله في الشئون الخاصة، ولكني رجعت من بحثي بصفقة المغبون، لم أجد سوى عبارات قليلة شاردة هنا وهناك، حاولت أن أفسرها لتحقق غرضي ولكني أدركت أنني أتعسف التفسير وأنه خير لي أن أقرر بصورة قاطعة أن نظام البريد في القديم إلى عهد الدولة الإسلامية المتأخر كان ينظر إليه كمظهر من مظاهر السلطة المحضة وأن مرجع ذلك هو الضروريات الأولية التي أدت إلى ظهور نظام البريد.

(٤) البريد عند الفراعنة: لسنا الآن في صدد التعرض لمصر القديمة وتاريخها بين المدنيات القديمة وهل كانت سابقة على بعضها أم لاحقة عليها، وهل كانت مصر

القديمة هي ينبوع المدنية الأول أم فاض هذا النبع من بلاد الهند على بعض الآراء ومن آشور وبابل على بعض الآراء الأخرى. فسوف كان الأمر هذا أو ذاك فليس ثمة جدال أو نقاش في أن التاريخ المصري هو أقدم تاريخ محقق ومضبوط، وأن أقد وثائق يملكها البشر في العصر الحديث عن العصور الممعنى في القدم هي وثائق عن التاريخ المصري، وهي ليست وثائق مكتوبة على الورق البالي ولكنها وثائق قد نحتت على الصخور الفولاذية، نحتت ونظمت بحيث فاقت الجبال شموخاً وثباتا وروعة وبهاء. وليس أهرام الجسزة إحدى عجائب العالم السبع القيمة إلا وثيقة من هذه الوثائق التي تتحدث بأجلي بيان أن قد كانت على ضفاف النيل منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح مدنية من أرقى المدنيات التي استطاعت أن ترفع هذا البناء الذي يحار العقل في قدرة هذه العقول التي صممته، والقوى التي رفعته، والأيدي التي نحتته، والنظام الكامل الدقيق الذي تهيأ في ظله القيام بمثل هذا العمل الفذ في تاريخ العمران. وغنى عن البيان أن هذه المدنية قد احتاجت للوصول إلى هذه الذروة إلى يضعة آلاف أخرى من السنين سابقة على بناء الأهرام وهذا ما يرجح القول بأن وادي النيل الخضيب كان أول مسرح من المسارح التي مثلت عليه الإنسانية قصة تطورها منذ كانت تعيش في الكهوف والأدغال أقرب ما تكون إلى الحيوان إلى أن صارت دولة كأرقى ما تكون عليه الدول في الحضارة والعمران.. فلا عجب إن كان نظام البريد في ظل هذه الدولة المصرية كأكمل ما يكون من حيث الدقة والنظام. ولسنا في حاجة لتقديم الدليل على ذلك فإن مقتضيات الأحوال تؤدي إليه، فبعد أن صارت مصر قطرا واحدا من البحر حتى الشلال وأصبحت تحكم من عاصمة الملك في منف أو طيبة فلا بد من اعتماد ذلك على نظام محكم للبريد الفرعوني.

على أن أول وثيقة جاء بها البريد يرجع تاريخها إلى عهد الأسرة الثانية عشر (حوالي ٢٠٠٠ ق م) وهي وصية كاتب لولده يظهره فيها على أهمية صناعة الكتابة والسمتقبل المجيد الذي ينتظر الكاتب في وظائف الحكومة، ويتحدث فيها عن بؤس أصحاب الحرف والصناعات الأخرى مما ينطبق تماماً على معنة الصور الساحرة التي

وجدت في بني حسن. فقد قال هذا الكاتب ضمن ما قال: «أما ساعي البريد فإنه يحمل أثقالاً فادحة ويكتب وصيته قبل أن ينطلق في مهمته، توقعا لما قد يصيبه من الوحوش والأسيويين»[1]. وواضح من هذا النص أن البريد كان موجوداً عند الفراعنة منذ الدولة القديمة وأنهم تمكنوا عن طريقه من الاتصال بالعالم الخارجي. إلا أنه كانت تعوزه الطرق السابلة بالأمن والمتزودة بالمحطات ووسائل الراحة كما كان الحال عند الرومان والفرس مثلا؛ ولم يكن هذا النقص في طرق المواصلات عن قصور الفراعنة وجهلهم بفن الطرق وإنما قسوة الطبيعة في ذلك العصر وتحكم العوامل الجغرافية في نظمهم هي التي حالت دون إكمال هذا العيب. فتنظيم طريق للمواصلات في هذا العصر كان يعد مجهودا ضائعا في بلاد تغطى بالفيضان معظم السنة ولذلك يقول هيرودوت «عندما يفيض النيل على البلاد لا تظهر إلا المدن فقط من وسط الماء ويكون مثلها كمثل الجزر الصغيرة في بحر إيجه. وباقي مصر يصير بحرا وعندما يحدث ذلك فإن القوارب لا تمشي في مجرى النهر الطبيعي بل تسير في طول السهل وعرضه فالمسافر من نقراش متجها منف يمر بالضبط بالقرب من الأهرام»[2] وعليه لم تكن تسمح طرق المواصلات للسلطة المركزية بأن تقوم بتحقيقات مستفيضة مع حكام المقاطعات الذين أعطوا سلطة واسعة في عهد الفراعنة الضعفاء، وبدأوا يعملون على الاستقلال من التاج ولعل أقدم وأهم مجموعة وصلت إلينا من الرسائل مجموعة رسائل تل العمارنة المكتوبة بالخط المسماري، وهي في الواقع عبارة عن سجل للمراسلات السياسية نقلها أمنحتب الرابع سنة ١٣٦٤ ق م **Amenohis** من طيبة إلى أخيتاتون (تل العمارنة) عاصمته الجديدة وقد تبودلت هذه الرسائل بين أمنحتب الثالث والرابع (١٤٠٥– ١٣٥٢ ق م) وبين ملوك الحيثيين وآشور وبابل وقبرص وصقلية وهي

---

(١) تاريخ البريد في مصر ص ٢٠_ انفرد هذا المرجع بتلك الوثيقة.

(٢) مصر القديمة للأستاذ سليم حسن جـ ٢ ص ٢٢١.

راجع المراسلات البريدية بين أمنحتب الرابع وعماله في سوريا بالمتحف المصري بالحجرة رقم ٣ بالدور الأول تحت البطاقات من رقم ١١٩٣ إلى ١١٩٧.

تثبت أن فراعنة مصر كانوا يستخدمون كتابا يجيدون اللغات المعروفة وقتذاك [١] من ذلك يستدل على أن الفراعنة قد نظموا بريداً داخلياً وخارجياً اتسع نطاقه أيام الدولة الحديثة وجابت سعاته العالم القديم المعروف حينذاك. ولكن ذلك مالا يستطاع القطع فيه برأي للافتقار إلى الوثائق والإيضاحات ولكن يفهم من المتواتر في كتب التاريخ وما كتبه الباحثون أن الفراعنة كانوا يرسلون سعادة البريد إلى حيفا والشام وكنعان والحبشة وأنه كان يتعين على هؤلاء السعاة أن يتقنوا لغات البلاد التي يحملون إليها الرسائل. أما الرسائل الرسمية الداخلية فكان لها بريد منظم وكان يتولى نقلها سعاة معروفون بالأمانة. وأما بريد الجمهور فلم يكن له نظام بذاته لأن الفراعنة لم ينشئوا إدارة للبريد بالمعنى الذي نفهمه اليوم بل كان الأغنياء يبعثون برسائلهم نع عبيدهم وكان الفقراء ينتهزون هذه الفرصة ليرسلوا خطاباتهم مع هؤلاء العبيد [٢].

وقد رأى بعض المؤرخين [٣] أن قصور المصريين عن ترتيبهم البريد يرجع لأمرين:

الأول أن غنى البلاد بعلومها وخصب أرضها جعل في الأهالي ميلا إلى السكون وتجنب الغربة للاتجار أو اكتساب الفنون التي من أهم حاجاتها التراسل. والثاني أن تسلط آراء الكهنة واستبدادهم بالعلوم منع الأهالي من التعليم والحكام من افتتاح طرقها وتوسيع نطاقها بواسطة التراسل بالبريد. وإذا ناقشا هذا القول اتضح لنا فساد الأمر الأول لمنافاته للواقع والتاريخ، فالأمم عادة إذا ما شعرت بالرخاء والسعادة رغبت في التوسع والاستعمار الاقتصادي والسياسي، فالفراعنة رغم خصوبة أرضهم وغناها، اشتغلوا بالتجارة واهتموا بطرقها وسفنها، فالملكة حاتشبسوت أرسلت بعثة تجارية إلى بلاد بنت بقصد الاتجار معهم، والملك نخاو الأول اهتم بكشف سواحل أفريقية فأرسل أسطوله للطواف حولها، أما الأمر الثاني فقد يكون فيه شيء من الصحة إذا ما عرفنا أن اهتمام ملوك الأسرة الخامسة والملك أمنحتب الرابع بالمسائل

---

(١) تاريخ البريد في مصر ص ٢١_ انفرد بالخبر.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٣) الطائر الغريد ص ١١٦٨.

الدينية أدى إلى إهمالهم ورجال حكوماتهم النظم الحكومية، فانفرط عقد الأمور في الحكومة المركزية وانقطعت الصلة بينها وبين حكوماتها المحلية.

ويغلب على الظن مما تقدم أن الحمار قام بدور هام في المواصلات البرية، خصوصاً في عصر الدولة القديمة يوم أن كان دابة الحمل العادية لصبره وتحمله، وقد استعمل منذ أقدم العصور في القوافل والبعوث التي كان يرسهلها الملوك إلى الجهات النائية [١].

مما يثبت قطعا تخصيص الفراعنة للبريد دوابا [٢] تقوم بحمله خارج القطر وداخله. هذا إلى جانب استخدامهم لسعاة القدم الذين كانوا يتبعون ضفتي النيل في رواحهم وغدوهم في داخل البلاد، ويسلكون إلى الخارج الطرق التي تسلكها القوافل والجيوش [٣].

(٥) البريد عند البطالمة: يغلب علي الظن مما تقدم أن مصر لم تعط نظام البريد حقه كما نبتغي ونشتهي، حتى غزاها الفرس في القرن السادس قبل الميلاد. وكانوا قد عرفوا البريد في دولتهم ونظموا له دوابه ورجاله كما سنرى بعد، فلا بد وأن يكونوا قد أدخلوا بعض التحسينات على البريد الفرعوني، فوجد البطالمة إذن فيما بعد نواة هذا النظام فتعهدوا بالعناية والرعاية. وقد سجلت مصلحة البريد المصرية يوم انعقاد مؤتمر البريد العالمي بالقاهرة سنة ١٩٣٤، ما بذله ملوك البطالمة من جهد مشكور في المحافظة على هذا النوع من الأنظمة الحكومية، والاهتمام بسعاة البريد ومواعيد

---

(١) مصر القديمة للأستاذ سليم حسن جـ ٢ ص ٢٢١.

(٢) أما الحصان فلم يدخل مصر إلا مع الهكسوس الذين جلبوه معهم من أواسط آسيا في القرن ١٨ ق م فهو حيوان شرقي كما أطلق عليه البعض " **The beast from the East Comb ridge Anc. Hist Vol. 2 P 227**".

والجمل هو الآخر لم يعرفه المصريون إلا عند دخوله مع الاسكندر.

(٣) تاريخ البريد في مصر ص ٢١.

سفره إذ أشارت المصلحة المذكورة [1] إلى وثيقتين تاريخيتين على جانب عظيم من الأهمية ترجعان إلى هذا العهد، تبين إحداهما نظام البريد السريع لنقل رسائل الملك ووزيره الأكبر وموظفي الدولة، وتبين الثانية نظام البريد البطيء الذي استخدم في نقل البريد بين الموظفين في داخلية البلاد.

فأما الوثيقة الأولى: فهي ورقة بؤدي في إحدى القرى المصرية، وظهر أنها جزء من سجل كان يستعمله رئيس مكتب البريد في بلد بالفيوم لقيد عدد المراسلات الصادرة من الملك والواردة إليه ووزيره وكبار الموظفين. وفي هذه الوثيقة التاريخية الهامة الدليل الكافي على انتظام البريد في عهد البطالمة. ولم يذكر في هذه الوثيقة تاريخ معين، وإنما جاء بها ذكر رسائل وردت اسم وزير المالية أبو لونيس، ولما كان قد تقرر من مصادر أخرى أن هذا الوزير عاش في المدة بين السنة السابعة والعشرين والسنة الثانية والثلاثين من حكم بطليموس فلادلفوس في القون الثالث قبل الميلاد، فإن هذه الوثيقة لا بد أن تكون كتبت في هذه الفترة، وقد سجل رئيس مكتب البريد عدد الرسائل والملفات التي صدرت أو وردت إليه، وذكر أمام كل إرسالية اسم الساعي الذي أرفقها وساعة وصوللها أو خروجها، والطريق التي سلكها في الصعيد أو الدلتا. ومن ذلك أمكن الاستدلال على أنه كان بمكتب البريد أربعة سعاة يتناوبون العمل، اثنان لنقل البريد شمالا، واثنان لنقله جنوبا. وأنه كانت تمر بالمكتب المذكور أربع إرساليات يوميا. الأولى صباحا في الساعة السادسة من الجنوب إلى الشمال، والثانية ظهر من الشمال إلى الجنوب، والثالثة والرابعة مساء من الشمال إلى الجنوب في الساعة الخامسة، ومن الجنوب إلى الشمال في الساعة السادسة... وأما المدة المقررة لنقل إرسالية البريد من هذا المكتب إلى المكتب الذي يليه فكانت ست ساعات ذهابا ومثلها إيابا.

وقد لوحظ أن الخطابات المرسلة إلى الملك لم يذكر بها غير اسمه وذلك دليل

---

(١)تاريخ البريد في مصر ص ٢٢– ٢٩.

على أن موظفي البريد كانوا يعملون محل وجوده حتى لو غادر الإسكندرية في سياحة. أما رسائل الملك إلى كبار رجال الدولة في هوقيوبوليس أو طيبة فكانت تذكر بها جهة الإرسال. وأما الخطابات الأخرى التي لم تذكر بها الجهة فكان مفهوما أنها مرسلة إلى الإسكندرية؛ وذلك بخلاف الخطابات المرسلة إلى الجنوب فكان لا بد فيها من ذكر اسم المرسل إليه وعنوانه. ومما يستوقف النظر في تلك الوثيقة وجود اسم شخص لا صلة له بأعمال البريد، وقد ذكر أمام الاسم أن صاحبه دفع مبلغا من المال مما يدل على أن هذا الرجل لم يكن من موظفي الحكومة، وإلا لأرسل خطاباته بدون مقابل وأنه لم يدفع هذا المبلغ لنقل مراسلاته لأن هذا البريد السريع كان خاصا بنقل رسائل الملك ووزير المالية وكبار الموظفين. وإذن لا بد أن يكون الرجل قد دفع هذا المبلغ على سبيل الغرامة لأنه لم يقدم لسعاة البريد الخيل والطعام، فقد كان سعاة البريد السريع يستخدمون الجياد، ومن المرجح أن إعداد الجياد كان فرضا لازما على أصحاب الإقطاعيات.

وحسبك دليلا على سرعة البريد المستعجل في زمن البطالمة أن خطابا أرسل إلى الإسكندرية من بلد في الفيوم فبلغها بعد أربعة أيام. مما يفيد أن البطالمة أنشأوا بريدا سريعا منتظما لنقل الرسائل الرسمية، وأن مكاتب ومحاط البريد كانت منتشرة على طول الطرق بين المدن الهامة وحاضرة الجولة، وأنه كان يوجد لكل مكتب عدد من السعاة الراكبين يتولون نقل البريد شمالا أو جنوباً عقب وصوله من المحطة السبقة أو اللاحقة، وأن موظفا كبيرا في كل مكتب كان يتولى قيد الرسائل وساعات إرسالها أو ورودها وأسماء السعاة الذين رافقوا الإرساليات وأن أصحاب الإقطاعيات كانوا في الغالب مكلفين بتقديم الجياد وتسهيل عمل موظفي البريد.

أما البريد البطيء فقد نصت عليه الوثيقة الثانية المعروفى بردي **Oxyrhynchos 71o** ويرجع تاريخ هذه الوثيقة إلى سنة ١١١ ق م. ومنها نستدل على أنه كان يوجد بإحدى المقاطعات مكتب للبريد يعمل فيه رئيس و ٢٤ ساعيا وجمالا وشرطيا. فكان رئيس المكتب مكلفاً بقيد المراسلات والاهتمام بالموظفين والدواب. أما الجمال فكان

ينقل الطرود الثقيلة التي لا يستطيع نقلها سعاة القدم الأربعة والعشرون ويحتمل أن تكون مهمة الشرطي قد اقتصرت على مرافقة الجمال للمحافظة على الطرود. ويغلب أن يكون هذا البريد قد استخدم في نقل المراسلات في داخلية البلاد ومن حاضرة إحدى الإقطاعيات إلى حاضرة الإقطاعية الأخرى؛ ولكننا لا نعلم هل كانت له مواعيد معينة أم كان السعاة المشاة يرسلون عند اللزوم. كما أننا نفتقر إلى المزيد من المعلومات عن بريد الجمل في هذا العصر، وإن كان ذكر هذا البريد قد ورد في كثير من البردي الذي تخلف عن العهد الروماني، ولكننا نفهم من وجود جمل واحد في مكاتب البريد أن الإرساليات كانت تنقل مرة في اليوم على الأكثر. ومن الثابت أن المراسلات الخاصة لم تكن تنقل بالبريد السريع وأن الأهالي كانوا ينتهزون فرصة سفر أحد أقاربهم أو معارفهم إلى بلد لينوطوا به نقل مراسلاتهم إلى ذلك البلد. وهذا هو السبب في أن أكثر الخطابات الخاصة التي يرجع تاريخها إلى عهد البطالمة كانت تستهل دائماً بهذه الكلمات «إنني أنتهز فرصة سفر فلان لأبعث معه بهذه الرسالة وأنبئكم بأن...».

ويوجد الآن في متحف البريد ببرلين وثيقة تاريخية ترجع إلى عصر البطالمة وهي عبارة عن قائمة من الرسائل والملفات الواردة إلى البلاط الملكي [(١)].

(٦) البريد عند الرومان: لقد اختلفت الروايات التاريخية في تقرير ابتداء نشأة البريد عند الرومان، فمنها من نسب أول ترتيبه إلى يوليوس قيصر، ومنها من قال بوجوده أيام الجمهورية الرومانية القديمة. ولكن يغلب علي الظن أنه لم يكن مرتبا فيها بنوع عام، وإن كان لأمراء البلاد برد كثيرة مختصة بمراسلاتهم، وقد قال البعض بوجوده عند الرومان قبل ميلاد المسيح بقرن [(٢)]، بينما قال الآخرون بنشأته في أوائل القرن الأول الميلادي، حيث أقاموا شبكة من مراكز البريد تتراوح المسافة بين كل مركز

---

(١) **Encyclopedia Britannica Vol. 183. P. 303**

(٢) الطائر الغريد ص ١٠٩.

وآخر بخمسة أو ستة أميال، وبكل محطة أربعون من خيل البريد يقطع المسافر بفضلها يوميا مائة من الأميال [١]. ومهما يكن من اختلاف المؤرخين في تقرير ابتداء نشأة البريد عند الرومان، فإن أباطرتهم أدركوا ما للبريد من أهمية سياسية وحربية وإدارية فعنوا بتنظيمه في أمبراطوريتهم المترامية الأطراف، وعرف عندهم باسم **CursusPublicus**[٢].

ومما يؤثر عن يوليوس قيصر أثناء إقامته ببريطانيا أنه أرسل خطابين إلى شيشرون في روما. وصل أولهما بعد مضي ثمانية وعشرين يوما، وهذا يدل على مدى السرعة التي وصل إليها البريد في عهده، ومدى عنايته بنظام المراسلات، وقد وضح قيصر في مذكراته نظام المراسلة السريع في استخدامه لدى الغاليين، إذ رتب السعاه على مسافات معينة، يعدو الأول بكل قواه إلى الثاني فيحمل هذا الرسالة بنفس السرعة إلى الثالث وهكذا حتى الأخير، وكانت الأخبار والأوامر ترسل من نقطة إلى أخرى بسرعة مقطوعة النظير، فمثلا ما يحدث في أورليان يعرف في مساء اليوم نفسه عند الأرفرن **Lesarvernes** في أوفرن **Auvergne**[٣].

وبلغ البريد الروماني أعظم مبلغ من الدقة في عهد الأمبراطور دقلديانوس الذي أقام المراقبين **CuriosiCursuspublici** على عمال البريد ومحطاته، وأجاز لهم إلا غ المخالفات إلى رؤساء الشرطة أو الأمبراطور ذاته [٤]. وقد حاول أوغسطس إصلاح البوليس عن طريق استخدام عربات البريد فكثيرا ما كان يجتمع عمال البريد من جهات وأماكن مختلفة في عربة واحدة. فيسأل أحدهم عن الأحوال العامة في مقاطعته

Gibbon Vol. L.P. 45(١)

(٢) **La administration civile de L. Égypte Byzantine. 113** دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٦١٠.

.P. 1500. oeusPierre Larousse Vol 12(٣)

(٤) تاريخ البريد في مصر ص ٢٠.

وما تتطلبه من إصلاح في الأمن والإدارة [١]. وتوسع دقلديانوس في نظام البريد فخصص نوعا منه للإدارة، وآخر للشئون الحربية، وثالث للأفراد، وقد أفاد البريد الحربي تراجان عندما أراد أن يؤمن الاتصال بين الفصائل الحربية التي وزعها على أطراف الأمبراطورية، فأنشأ مراكز البريد وزودها بالحراس والخيول [٢]. وحرم على كبار رجال الدولة وأعيانها السفر عن طريق الـPublic Post فكان لهذا التحريم وقع حسن في نفوس ساكني الولايات [٣]. ولما انقسم العالم الروماني إلى شرقي وغربي نال نظام البريد حظا وافراً من عناية أباطرة الدولة الشرقية سيما الأمبراطور فسطنطين وسرعان ما ظهر لديهم البريد السريع CursusVelox لنقل رسائل الدولة، والبريد البطيء CursusClablaris لنقل الأشياء الثقيلة [٤]. ولا أدل على عظمة البريد السريع عندهم من أن أحد حكام الأمبراطور تيودوسيوس Theodosius حمل على البريد من مدينة أنطاكية Antioch إلى القسطنطينية وقد بدأ رحلته ليلاً من كابادوكيا Cappadocia فوصل إلى القسطنطينية في ظهر اليوم السادس بعد أن قطع مسافة طولها ٦٦٥ ميلا [٥]وفي العصور الوسطى أُندت بيزنطة إدارة بريدها إلى شخص كان يلقب The Logothete of the Dromos [٦] ولعل هذا اللقب يقابله في العصر الإسلامي صاحب ديوان البريد زقد وصف ابن خرداذبة بريد الروم بقوله «وبريد الروم براذين لطاف محذفة الأذناب خفاف وحلبتهم غرة إذار يجري الملك خيله وخيل أمرائه بباب الذهب وهي خيل بين فرسين عجلة، عليها الغلمان الوصفاء قيام بالسماط، وليس في عساكرهم أسواق إنما يحمل الرجل من منزله كعكه وزيته وخمره

---

(١).P. 1500Pierre Larousse Vol 12

(٢) Gibbon Vol. L.P. 638

(٣)The Roman Sys of Pr. Adm. P. 109

(٤)تاريخ البريد في مصر ص ٣٢.

(٥)Gibbon Vol. L.P. 46

(٦) 4 p.731 Cam Med. Hist. Vol

وجبنه [1]» غير أن هذه الخيول استبدلت بالحمير في عهد الأمير أطور جستنيان على أثر انحطاط البريد بالتدريج لعجز الولاة عن الانفاق على خيل البريد ومحطاته [2].

ولم تقتصر مهمة عمال البريد الروماني على نقل الرسائل الخصوصية والعمومية بل تعدتها إلى نقل الأسماك والأطعمة النادرة الآتية من مختلف أجزاء العالم, وكانت عجلات البريج بطبيعة الحال هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه الرغبة الأمبراطورية، كما أن هؤلاء العمال قاموا بعمل الجاسوسية الخطيرة المنظمة والمراقبة الدقيقة على ولاة الأقاليم، وبلغ عددهم في عهد الأمبراطور قسطنطين مائتي أو ثلثمائة عامل يرأسهم صاحب ديوان البريد، وصل هذا العدد إلى العشرة آلاف في عهد الأباطرة الضعاف، وكثيرا ما اشتط هؤلاء العمال في تقاريرهم عن مسلك حكام الولايات وبالتالي عن مسلك المواطنين أنفسهم. لذا حق على جيبون أن ينعتهم بعيون الأمبراطور الساهرة على مصالحه وإن كانت هذه العيون وبالا على عامة الناس [3] وكان لما يغدقه البلاط الأمبراطوري من المنح والمكافآت المالية على هؤلاء الجواسيس أثر فعال في تتبعهم بكل يقظة واهتمام علامات السخط والخيانة في الولايات التي تنذر عادة بقيام الفتن والثورات بها، فكانت مهامهم دائما مصوبة إلى كل من المذنب والبريء، فالحاكم المخلص في ولاية كوريا أو بريطانيا مثلا معرض في أي وقت لاتهاماتهم فيؤخذ مكبلا بالسلاسل والأغلال إلى ميلان أو القسطنطينية للدفاع عن حياته وماله إزاء ما وجه إليه من اتهامات خطيرة عن طريق هؤلاء الجواسيس. فليس من التعسف في الرأي القول بأن نظام البريد عن الرومان كان موصوما بالجور والظلم وقد اتخذه الأباطرة سلاحا ماضيا لمعالجة الخلل الذي أصاب الأداة الحكومية سيما

---

(١) ابن خرداذبة ص ١١١.

(٢) **L' Administration civile de l' Egypte Byzantine p. 303** _ تاريخ البريد في مصر ص ٣٢.

(٣) يشير جيبون في ذيل (ص ٥٤٨) من الجزء الأول إلى أن أباطرة الرومان أخذوا نظام الجاسوسية عن الفرس وسيشاهد القاريء في العصر الإسلامي عناية خلفاء المسلمين بالجاسوسية كما سيشاهد أيضاً خذوهم حذو الأباطرة في جلب الأطعمة والفواكه من الولايات عن طريق البريد.

بعد أن زادت شكوكهم في مدى إخلاص حكام الولايات لهم [١] وكان عمال البريد الرومانيين يحمل بعضهم أجراساً أو آلة تشبه الناقوس الصغير يقرعونها وقتا بعد آخر أو ينفخون بالصور وذلك إشارة إلى مرور البريد، بينما يحمل الآخرون قطعة من البرنز بقدر الريال منقوش عليها اسم «بوستة» تمييزا لحامليها بنوع جامع بين اللياقة والمهابة، وفي وقت سير البريد غير المستعجل كانوا يتناوبون الترنم بالأناشيد المتنوعة وهي أشبه بحداء العيس المعروف عند العرب. وإذا كانت مواعيد البريد متباعدة فإن مصالح البرد تطلق التنبيه بالمدينة عن يوم سفره ويوم وصوله، وذلك بأن يطرق العامل جرسا يطنه في كل نقط المدينة المهمة وحينما يجتمع عليه الناس يعلنهم بأعلى صوته عن وقت سفر البريد أو وصوله [٢].

وفي الوقت الذي أخذ فيه بريد الدولة في الانحطاط والتدهور شرع كبار الملاك في تنظيم بريد سريع لنقل مراسلاتهم الخاصة [٣]. ويقول بعض [٤] الباحثين أن بريد النبلاء والملوك وضع أيضاً في خدمة الأهالي ولكن هذا القول يحتاج إلى الإثبات. وقد تخلفت عن العهد البيزنطي بمصر وثيقة هامة من بريد الملاك والنبلاء هو عقد يرجع تاريخه إلى سنة ٥٥٠ م مبرم بين رجل يدعى أوريليوس سيرجوس من منظمي الإصطبلات وبين نبيل من كبار الملاك في بهنا يدعى فلاريوس سيرنيوس يتعهد فيه الأول بصفته «منظم اصطبلات الخيل للبريد السريع» بنقل مراسلات الثاني لمدة سنة واحدة ابتداء من أول شهر باكون. وذلك بكل سرعة وإخلاص وأمانة وبدون التورط في ذنب أو خطأ وبلا تأخير إلا في حالة المرض، على أن يكون الأجر ٨٠ كم من الحنطة وتسع قطع من الذهب و ٢٤ كم من النبيذ... الخ. ويقرر أنه قبض سلفا نصف القطع الذهبية ويتعهد بألا يتخلى عن العمل طيلة المدة المتفق عليها وإذا فعل

(١) Gibbon Vol. L.P. 548

(٢) الطائر الغريد ص ٢١، ٢٤، ٩٤.

(٣) L' Administration civile de l' Egypte Byzantine p. 203

(٤) تاريخ البريد في مصر ص ٣٢.

تعين أن يدفع ضعف المبلغ الذي قبضه سلفا.. من ذلك يتبين لنا مدى عناية كبار الملاك بتنظيم البريد وعليه تكون عناية الدولة أعظم شأنا وأجل خطرا. وبسقوط الأمبراطورية الرومانية في الغرب وتغلغل البرابرة في شرايينها أصاب نظام البريد ما أصاب غيره من النظم الحكومية الأخرى من مظاهر التدهور والانحطاط حتى أعاد ملوك القوط الغربيين تنظيمه من جديد خصوصاً الملك تيودريك (١).

أما عن بريد اليونان فإن المصادر التاريخية التي وصلت إلينا لم تشر بقليل أو كثير عن اهتمامهم به غير أن بعضها قال إنهم كانوا يسمون بريدهم الخصوصي بما معناه «ملاك» نسبة إلى الملك جبرائيل الذي يحمل الأوامر الآلهية إلى الأنبياء والصالحين كما يسميه الصينيون «كوما» ومعناه جائب أو رائد على ما يقال (٢).

(٧) البريد عند الفرس: أسس دولة الفرس القديمة الملك **Cyrus** ولسنا نعرف بالضبط هل كان نظام البريد الموجود في أيامه والذي لم يرد ذكره في عهده إلا في رواية واحدة (٣) من ابتكاره الخاص أم نقله عن الدول القديمة السابقة لدولته، فمن عبارات ديودورس المؤرخ اليوناني يفهم أن البريد كان مرتبا عند الصينيين في القرن العاشر قبل الميلاد، وعند الآشوريين والبابليين منذ القرن الثامن قبل الميلاد، وأن يجوسيس لما تملك على الميديين رتب البريد في القرن السابع قبل الميلاد، فكأن ما عمله كورش اعتبر من ضمن حذقه واجتهاده في إدخال الإصلاح والتمدن للبلاد ليستميل قلوب الشعب إليه بواسطة ترتيب أمور لم يسبق لهم أن «تذوقوا لذتها من قبل (٤)» على أن التواريخ الأكثر تداولا قديماً وحديثا تثبت أن أشهر البرد القانونية ما كان مرتبا عند الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد، وأن أول من رتبه الملك دارا الأول ابن قمبيز

---

(١) **Encyclopaedia Brit annica Vol. 18 P, 303**

ملحوظة: لنا عودة إلى الرومان في الفصل الرابع عند الكلام على طرق البريد.

(٢) الطائر الغريد ص ٤٧.

(٣) **Larousse Vol. 12. P. 1497**

(٤) الطائر الغريد ص ٤٧.

فهو الذي أقام في سكك البريد دواب مقطوعة الأذناب سميت (بريد ذنب) وعنه ذهب البعض [1] إلى إسناد أصل الكلمة إلى الفرس كما سبق القول ثم سقطت دولة القرس على يد الإسكندر سنة ٣٣١ ق م. وأعيد تأسيسها سنة ٢٢٦ م على يد ساسان مؤسس الأسرة الساسانية، وأعاد كسري أنو شروان تنظيم الأداة الحكومية ومن بينها نظام البريد فأسند البعض خطأ ترتيب البريد الفارسي إليه؛ مع أننا نرجح إسناد ترتيب البريد الفارسي بمعناه المفهوم اليوم إلى دارا الذي جعل له دواب خصوصية مبتورة الذنب تمييزاً عن غيرها فسميت «بريد ذنب» أي مبتورة الذنب فلما عربت حذف جزؤها الأخير فقالوا بريد [2] ويؤيد هذا الترجيح بقاء اسمه الفارسي المتداول بين العالم إلى الآن نسبة إلى دوابه الخصوصية... ولما كان الغرض الأساسي من إيجاد نظام البريد خدمة مصالح الدولة لا مصالح الأفراد [3]. كان لزاما على ملوك الفرس أن يفردوا ديوانا خاصا للبريد ليتأكدوا من دوام وسرعة إيصال الأخبار من الحكومات المحلية إلى الحكومة المركزية كما يفهم من عبارة المسعودي [4]«وكان لأنو شروان خواتيم أربعة: خاتم للخراج فصه من العقيق نقشه العدل، وخاتم للضياع فصه فيروزج نقشه العمارة، وخاتم للمعونة فصه ياقوت كحلي نقشه التأني، وخاتم للبريد فصه ياقوت أحمر كالنار نقشه الرجاء». وإذا ما تحدث عن الملك أبرويز يقول: «وكان لأبرويز تسعة خواتيم تدوم في أمر الملك. منها خاتم فصه ياقوت أحمر...، ..... والخاتم الثالث فصه جزع نقشه فارسي وحلقته ذهب منقوش فيه ألوحا يختم به أجوبة البريد». ومما يؤثر عن أبرويز أنه كتب إلى ابنه شيرويه ينصحه بمعاقبة من يتلكأ في دافع الخراج واستخدام البريد كوسيلة من وسائل ضمان جبابي الخراج وعدم تملص أحد من دفعه: «اجعل عقوبتك على اليسير من الخيانة كعقوبتك

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٤٧_ دائرة معارف البستاني جـ ٥ ص ٤٠٠,

(٢) الطائر الغريد ص ٥.

(٣) Christenesen P. 75

(٤) مروج الذهب جـ ١ ص ٢٢٦، ٢٣٧.

على الكثير منها.. وأبرد البريد في الدرهم ينقص من الخراج، ولا تعاقبن على شيء كعقوبتك على كسره [١] ». غير أن البلاذري [٢]يشير إلى انضمام مصلحة الرسائل والرسل إلى المصالح الأخرى تحت إشراف صاحب الزمام « كان لملك من ملوك الفرس خاتم للسر وخاتم للرسل، وخاتم للتخليد يختم به السجلات والأقطاعات وما أشبه ذلك من كتب التشريف، وخاتم للخراج فكان صاحب الزمام يليها وربما أفرد بخاتم السر والرسائل رجل من خاصة الملك» ويفهم من هذه الإشارة أن ملوك الفرس اختصوا عنايتهم بصاحب الرسل والرسائل وكانوا يتحرون الدقة في من يتولى وظيفة البريد لاعتبارها من الوظائف الهامة في الدولة. ومما يؤثر عن كسري أنه كان لا يولي البريج إلا أولاده [٣]. لضمان ثقته بهم واطمئنانه إلى سرعة إيصال أخبار الولايات إليه... وكان أكبر علامات عمال البريد في الفرس كساء خيالة نقل البريد وهو قباء طويل أحمر اللون معلم بشريط أبيض وقلنسوة طويلة من الفرو الناصع البياض وكان العمال يظهرون بها بهئية تبهيج الناظرين [٤].

ومما تجدر ملاحظته أن عمال البريد لم تقتصر مهمتهم على نقل الرسائل فقط بل كانوا مثقلين بعبء مراقبة الإدارة في الولايات وكتابة التقارير إلى البلاط فكأنهم كانوا أشبه بالجاسوسية المنظمة في عصرنا الحديث. ويحدثنا المسعودي [٥] عن أنوشروان أنه جلس يوما للحكماء ليأخذ من آدابهم وحكمهم وتكلم كل واحد بما خص من الرأي فقال أحدهم: «أيها الملك أنا جامع لك ذلك في اثنتي عشرة كلمة» ثم عددها حتى قال: «... والحادية عشرة إذكاء العيون في الثغور ليعلم ما يتخوف فيؤخذ أهبته قبل هجومه». والمقصود من كلمة العيون هنا من غير شك عمال البريد

(١) فجر الإسلام جـ ١ ص ١٤٢.

(٢) فتوح البلدان ص ٢٦٤.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٨٠.

(٤) الطائر الغريد ص ٩٤.

(٥) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٢٨.

لأن الجاسوسية من طبيعة عملهم ولوازمه. وعليه تكون فارس قد أحكمت نظام الجاسوسية من أقدم العصور، تلك الجاسوسية الخبيثة التي لم يكن في استطاعة القضاة أنفسهم الإفلات والتملص من الوقوع تحت مراقبتها وشرها، ويتضح لنا من خطاب **Tensar**مدى ما شعر به العظماء في عهد خسرو الأول **Khusraul** من عبء تلك المراقبة السرية التي ولدت الخوف والدهشة لدى الناس أجمعين، وقد احتاطت الحكومة الملكية لهذا الأمر فعملت على حماية الجمهور من نظام الجاسوسية بتلك الوسيلة وهي «ألا يعين الملك عيونا أو شرطة إلا من الرجال المخلصين، الخاضعين الأتقياء، الأمناء، المتعلمين، المصليين، الورعين، الفضلاء، على شريطة ألا يخبروه بشيء إلا إذا كان قد وقع تماما وموثوق في صحته [(١)]».

بقي أن يتساءل القاري هل عرف بنو إسرائيل البريد أم لا؟ فنجيبه بأنه كان موجودا عندهم وتراسلوا بالحمام والمشاعل وسيرد الكلام عن ذلك في موضعه. ومهما يكن من مبلغ تأثير اليهود في العرب فإني أقصر هذا التأثير على الحياة العقلية والأدبية للجاهلين من أهل الحجو لئلا نصل إلى المجازفة والمبالغة في الحقائق التاريخية فيظن القاريء حقا أن العرب اقتبسوا عن اليهود من النظم الحكومية بقدر اقتباسهم عن الفرس والرومان مثلا.

هذا العرض الموجز عن البريد لدى الجماعات والأمم القديمة يعطينا فكرة واضحة عن مدلول هذا النظام ونشأته. والأمر الذي لا يحتاج إلى إثبات هو أن طرق التراسل قديمة جداً ولا يمكن تحديد زمن ابتدائها، كما أن ترتيبها نشأ حكومياً عند المصريين أولاً فالبابليين والآشوريين ثم الفرس فالرومان، أي أن أمم الشرق كان لها شرف الأسبقية في خلق هذا النظام والتفنن في أساليبه وطرقه.

ولا يفوتنا أن نسرد ما روى عن بعض ملوك الشرق الأقدمين أنهم كانوا يأتون بالساعي ويحلقون رأسه ويكتبون عليه صورة الرسالة التي يريدون إرسالها في وقت

---

(١) **Christensen P. 75**

الحرب ثم يشمونه بالإبر كما توشم اليد فينطلق الساعي إلى رئيس الجيش ويخبره بأمره فيخلو به ويكشف رأسه فإذا أمكنه تلاوة ما كتب عليه قرأه وفهم الغرض منه وإذا حال دونه ظهور الشهر أمر بحلقه ثانية وقرأ الكتابة ثم يأمر بقطع رأس هذا الساعي المنكود الحظ وكشط جلده ودفنه سراً مخافة أن يقف أحد على هذا الأمر (١). على أن هذه الطريقة كانت نادرة الحصول ولم يتخذها إلا العتاة عند إعياء الحيل ولم يبق لها الآن في العالم المتمدن إلا أثر الخبر وإن كانت توضح قدرة هؤلاء الجبابرة على التحايل والإفلات من حدوث المستحيلات قبل الممكنات.

انتهى الفصل الأول وهو في نظري أشبه بجمع ما يمكن تسميته بالتراث الإنساني عن البريد وصلنا إليه على أكتاف الغابرين... ومهمتنا هضم عصارة ما جادت به تلك الأجيال السابقة حتى يتسنى لنا أن نلمس مظاهر النشاط الابتكاري في العقلية العربية إزاء نظام البريد وهذا ما سيظهر واضحاً جلياً في الفصول القادمة.

---

(١) الطائر الغريد ص ٧.

الفصل الثاني

البريد في الدولة الإسلامية

انتهيا في الفصل السابق إلى القول بإسناد نشأة ترتيب نظام البريد إلى الفرس الذين عنهم نقل الرومان، إلا أنهم توسعوا في ترتيبه، واعتنوا بطرقه عناية فائقة كما ورد في الفصل الرابع. وسنحاول في هذا الفصل معالجة تاريخ البريد عند العرب، وعن أي الدولتين الفارسية أم الرومانية أخذ العرب نظامه، ولنبدأ أولا بكلمة عن بريد الجاهلية.

(١) بريد الجاهلية: لما لم يكن للجاهليين تاريخ صحيح مدون، ولما كانت أخبارهم قد وصلت إلينا عن الطريق التي تصل منها القصص والأساطير، أعني طريق الرواية والأحاديث فإن الكلام عن بريدهم سيكون من باب التصور والتخمين على نحو ما تخيلناه لدى القبائل القديمة؛ على أن تصورنا في هذه المرة سيكون أحسن حالا من سابقه، لأنه سيستند على الشعر الجاهلي الذي يمكن اعتباره نصا تاريخياً له قيمة علمية كبيرة، إذ كان مقامه عند العرب مقام الجرائد الآن، يذيع الأخبار بينهم ويستعمل في أخبارهم السياسية، فلنتخذ منه إذن مادة للاستشهاد على وجود البريد عندهم، فامرؤ القيس وهو شاعر جاهلي ومن قبيلة قحطانية يمنية يقول:

علـــى كـــل مقصـــوص الـــذنابى معـــادى	بريـــد الســـرى بالليـــل مـــن خيلـــي بربـــرا
وقـال آخـر: فـدتك عـراب اليـوم أمـي وخـالتي	وناقـــتي النـــاجي إليـــك بريـــدها [1]

وعلى ضوء هذين البيتين نستطيع أن نقتبس مادة تاريخية محترمة، فعلاوة على إشارتهما إلى معرفة الجاهليين لكلمة بريد، أقرر وأنا مطمئن أن اليمن هي الأخرى قد

(١) لسان العرب جـ ٤ ص ٥٣_ لبتاجي إليك بريدها أي سيرها في البريد.

عرفته وكان نصيبها فيه لا يقل عن نصيب الحجاز. ذلك لأن امرؤ القيس يمني الأصل فهو يصور ما رآه من نظم إدارية لا في الحجاز وحدها بل وفي اليمن أيضاً. ولا بد من التشابه بين أنظمة الإقليمين إذ المعروف عن التاريخ الاجتماعي للعرب أنهم ينقسمون إلى قسمين قحطانية ومنازلهم الأولى في اليمن، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز.

وأنا لا أشك مطلقا في معرفة عرب الجاهلية للبريد لسببين_ الأول أن ما صوره امرؤ القيس وغيره يتمشى مع منطق الحوادث التاريخية ومقتضيات الأحوال عند عرب الجاهلية الذين اتخذوا من الغارة والسلب وسيلة من وسائل العيش، فتسطوا القبيلة على الأخرى تأخذ جمالها ونساءها وأولادها وتتربص بها القبيلة الأخرى ذلك فتفعل ما فعلت. فهذا التربص يتطلب إقامة الحراس على منطقة نفوذ القبيلة لإنذار شيخها بالخطر الخارجي قبل حدوثها، كما يتطلب أيضاً بث العيون والأرصاد على حدود القبيلة المجاورة لينذروا شيخهم لتاخطر في أدواره الأولى كي يتهيأ للدفاع عن قبيلته [1]. والسبب الثاني الذي يقطع الشك في وجود البريد عند عرب الجاهلية هو أن كلا من دولتي الفرس والروم رأت أن خير وسيلة لدفع شر العرب أن يساعدوا بعض القبائل المجاورة على أن يستقروا على التخوم يزرعون ويتحضرون ثم يكونون ردءا لهم **Buffer State** يصدون غارة البدو الذين يغزون وينهبون؛ فتكونت إمارة الحيرة على تخوم الفرس، وإما الغساسنة على تخوم الروم، وكان الأخيرون على ما يظهر أرقى عقلية حتى من عرب الحيرة لأنهم كانوا أقرب اتصالا بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية [2] لذلك كانت حياتهم بيزنطية في بذخها وترفها ويمكن أن يقال مثل هذا في نظمهم أيضاً. وعن هاتين الإمارتين العربيتين تسربت المدنيات المجاورة إلى

---

(١) وطبيعة العرب البدوية كانت تدفعهم_ إذا لم يجدوا عدوا من غيرهم_ إلى مقابلة أنفسهم: وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا_ فجر الإسلام جـ ١ ص ١٠.

(٢) فجر الإسلام جـ ١ ص ٢٣.

قلب شبه الجزيرة العربية [1]. تلك حال البريد عند عرب الجاهلية والآن ننتقل إلى العنصر الإسلامي، ولكن قبل استيعاب موضوع البريد في الدولة الإسلامية يحسن بنا أن نعرف القاريء.

(٢) المعنى المقصود من «الدولة الإسلامية»: كان حادث الهجرة النبوية حادثاً تاريخياً له خطره من الوجهتين الدينية والسياسية عده المؤرخون فاصلا بين عهدين: العهد الملكي والعهد المدني فبالنسبة للرسول نجده يصيطبغ بالصبغة الزمنية ويصير زعيما دينياً وسياسياً في الوقت نفسه، وغدت السياسة من لوازم دعوته. وبالنسبة لمكة نجد أنها أخذت في الإضمحلال والتدهور وورثتها المدينة في الزعامة السياسية فعظم شأنها وصارت قبلة أنظار العرب، وتنازع القوة والسلطان في شبه الجزيرة حكومتان: إحداهما إسلامية مركزها المدينة والأخرى وثنية قرشية مركزها مكة ولم يكن ثمة ما ينبيء هذه المدينة الصغيرة إنما هي الحجر الأول في صرح الدولة الإسلامية العظيمة التي قامت بعد ذلك بعشرين عاما فقط على أنقاض دولتين من أعظم دول التاريخ؛ هما الدولة الفارسية والدولة الرومانية الشرقية، وظلت المدينة حاضرة الإسلام نحو نصف قرن ثم حدث أن فاض الجنس العربي بدينه ولغته وخيره على أمم المشرق والمغرب، فلفظب شبه الجزيرة دفعات من أهلها، وقذفت إلى الخارج أفواجاً بعد أفواج في كل جهة تقريباً، فكانت ظاهرة التوسع هذه أشبه بهجرة قومية كبرى؛ وتبع ذلك تبدل في أساليب الحكم والحاكمين بل ومقره أيضاً ونتج عن هذا التبدل عملية

---

(١) على أن تأثير الروم في العرب كان مباشراً وأكثر وضوحاً من تأثير الفرس فمنذ القرن السادس م حل عرب الحجاز محل اليمنيين في القبض على ناصية التجارة. وكان هؤلاء الحجازيون يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ثم يبيعونها على حسابهم في أسواق السام ومصر، وقليلاً ما يبيعونها في أسواق فارس لأن التجارة مع فارس كانت في يد عرب الحيرة. وجعل عرب الحجاز مكة قاعدة لتجارتهم ووضعوا الطريق تحت حمايتهم، ووصل المكيون قبل الإسلام_ عندما كان العداء مع الفرس والروم بالغا منتهاه_ إلى درجة عظيمة في التجارة، وكان على تجارة مكة يعتمد الروم في كثير من شئونهم. بل وكان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشئون التجارية وللتجسس على أحوال العرب_ فجر الإسلام جـ١ ص ١٤، ١٥.

مزج قوية بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة، مزج في الدم، ومزج في النظم الاجتماعية، ومزج في الآراء العقلية، ومزج في العقائد الدينية، ومزج في النظم الحكومية... نقلت العاصمة من المدينة إلى الكوفة ثم إلى دمشق فبغداد فسامرا ثم عادت إلى بغداد، وطاب لها المقام وظلت في الأخيرة زهاء خمسة قرون ونصف، تمتعت خلالها بغداد، بما لم تتمتع به عاصمة حديثة من أبهة الملك وعظمة السلطان. فكان رسلها يجوبون العالم المعروف من مشرق الدنيا إلى مغربها يستظلون براية الإسلام، ويتفاهمون بلغة القرآن أني حلوا مع شعوب صهرهم الإسلام في بوتقته، ثم كانت غزوات التتر وأصاب بغداد ما أصابها من ذل واستعباد، وانتقل بلاط الخليفة العباسي إلى القاهرة أيام الظاهر بيبرس وبقى بها حتى مجيء السلطان سليم العثماني لمصر في القرن التاسع الهجري، واعتبر هذا التاريخ نهاية للدولة الإسلامية التي عاركت الزمن حوالي عشرة قرون امتدت رقعتها إلى ما وراء سيحون وجيحون شرقا، وإلى ما وراء البرانس غربا، وإلى أبواب القسطنطينية شمالا، فبلاد النوبة واليمن جنوبا [1].

(٣) البريد النبوي: قد أكون قاسياً في الحكم إذا ما رميت بعض الباحثين بالسقطات والهفوات لأنهم عند معالجتهم لتاريخ المدنية العربية والنظم الحكومية الإسلامية اقتصروا على ما كان عليه الحال زمن الأمويين والعباسيين ليتسنى لهم بعد التصريح بأنهم أخذوا ذلك عن اليونان والفرس لا عن القرآن والنبي، غافلين ما كان عليه ذلك عهد الرسول ﷺ مع أنه عليه السلام كان يشغل بمجرد هجرته من مكة إلى المدينة منصب النبوة الديني على قاعدة جمع دينه القويم بين سياسة الدين والدنيا جمعا مزج بين السلطتين الروحية والزمنية حتى أن أحد المستشرقين [2] قال «أن تقدم المسلمين في الحضارة بدأ في نظم الدولة كما بدأ في إدارة الحروب» وعزز هذا القول

(١) جاب المقدس تلك المملكةالإسلامية في القرن الرابع الهجري وقدر طولها من أقصى المشرق بكاشغر إلى أقصى المغرب عند البحر المحيط بنحو من عشرة أِشهر وقدر فراسخها نحو الألفين_ أحسن التقاسيم ص ٦٣.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية للأستاذ بارتولد ص ٥١ ٢

ما وجدته لدى بعض المدققين [١] في بحوثهم من قائمة بجمبع المراتب الإدارية في حكومة النبي عليه الصلاة والسلام من وزارة بأنواعها، وكتابة بأنواعها، والرسائل، والإقطاعيات، وكتابة العهود والصلح والرسل والترجمان، وصاحب العسس في المدينة، والسجان، والعيون والجواسيس، وكتاب الجيش، والقضاة وصاحب المظالم، وفارض النفقات وفارض المواريث، والمارستان والمدارس والزوايا، ونصب الأوصياء والممرضات والجراحين، والصيارفة وصاحب بيت المال ومتولى خراج الأرض وقاسم الأرض، وصانع المنجنيقات والرامي بها وصاحب الدبابات وحافر الخنادق والصواغين وأنواع المتاجر والصناعات والحرف فكأن مدته عليه السلام مع قصرها لم تخل من ترتيب البري ترتيباً يعطي رسله رسائله مقاما ساميا بين بقية العمال والعمالات، فسعاته وكتبه قامت بدور خطير في سبيل دعوته لأداخل محيط شبه الجزيرة فحسب بل وخارج سياجها إلى العالم أجمع. ويمكن ملاحظة تباشير هذا النظام بإقامة الحراس لنقل أخبار كفار مكة إليه منذ أن بدأت سراياه وغزواته. وستلزم الأمر مراقبة حدود المدينة وطرق القوافل المارة بها حتى لا تباغته قريس فيلتبس عليه أمر صدهم... وأظن هذا الأفتراض الخيالي لا يدخل الشك والريبة في نفس القاريء إذ يؤيده منطق الحوادث التاريخية وتتبعها الزمني، فمنذ اللحظة الأولى التي غادر فيها الرسول مكة بصحبة الصديق فراراً من قريش اتخذ عبد الله بن أبي بكر [٢] وهو غلام شاب فطن رسولا يأتيهما بأخبار قريش يوما بيوم فكان عبد الله يبيت عندهما في بيت العنكبوت ويخرج من السحر فيبيت مع قريش ويجمع أخبارها وما أتخذته من وسائل للبحث عن مُحَمَّد والتنكيل به. وهكذا كان عبد الله أول ساع للبريد في تاريخ الإسلام.

وكانت وظيفة البريد أولى الوظائف الإدارية التي لاقت اهتماماً كبيراً من جانب رسول الله فخطت لها وجودا حكوميا منذ الساعات الأولى من ساعات الهجرة، فلما رتيب الرسول حكومته بالمدينة كانت وظيفة البريد قد نضجت ثمراتها وأتت أكلها

---

(١) التراتيب الأدارية جـ ١ ص ٣.

(٢) التراتيب الأدارية ج ١ ص ٣٦١_ الطبري جـ ٣ ص ١٢٢٦.

واتسعت في معناها، فشملت الجاسوسية حتى أن الجماعة الإسلامية الأولى عندما كانت متحفزة ومتوثبة لمنازلة في بدر خرج الرسول بنفسه ومعه أبو يكر حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريس وعن مُحَّد وأصحابه وما بلغه عنهم فأخبره الشيخ بما عنده وهو لا يعلم أنه رسول الله، ثم رجع الرسول إلى صحبه وأكثر من الرسل ياتمسون له الخبر عن أبي سفيان [١]. والأغرب من هذا أنه اتخذ في مكة نفسها عينا يكتب بأخبار قريش إليه، وهذا الغين هو العباس بن عبد المطلب عمه عليه الصلاة والسلام أسلم العباس قبل فتح خيبر وكان يكتم إسلامه ويكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله فكتب إليه مرة «إن مقامك بمكة خير»[٢].

أعتقد إذن أنك تصدقني في صحة هذه الرواية التاريخية وتوافقني في القطع بوجود اختصاصات ديوان البريد في الدولة الإسلامية قبل نشأ الديوان نفسه، لأننا لم نر بعد وجوداً ولا أثر لوجود كلمة «ديوان» في عصر الرسول. وإن كان ثمة شك في نفسك يخالفني في رأيي فسرعان ما تبدده حوادث السنة السادسة للهجرة، وما صلح الحديبية الذي وقع فيها بين الرسول وقريش إلا ثمرة من ثمرات البريد النبوي بمعناه الإصطلاحي أي نقل الرسائل الشفوية والكتابية بين فريقين متخاصمين، فالرسول وصحبه رغبوا في العمرة، وقريش وعلى رأها أبو سفيان أبت وأقسمت لن يدخل مُحَّد مكة هذا العام عنوة. فما الحل إذن وقد خرج مُحَّد من المدينة وأذن في المسلمين بالزيارة والحج فلبوا نداءه ونزلوا في الحديبية ضاحية من ضواحي مكة. أرسلت قريش

---

(١) ويجب ألا ننسى أن بين الذين كانوا ينتقلون بالتجارة أعظم قريش ثروة وعقلا وكان من بين رجال قافلة قريش التي اعترضها الرسول في غزوة بدر أبو سفيان وعمرو بم العاص ومخرمة بن نوفل وهم سادة قريش، ومنهم من كان له يد في إدارة شئون الأمة في الإسلام بعد، وهم أكثر استعداداً لنقل مدنية بما يرون من نظام في المعيشة، وبما يرون من حكومة تشرف على الأسواق وتجبي الضرائب ونحو ذلك وهذه النتف التاريخية وإن كانت مشوهة لا تخلو من أثر في عقلية العرب، ودليلنا الآن على هذه الاستفادة ما أخذه العرب في جاهليتهم من كلمات كثيرة فارسية ورومانية ومصرية وحبشية نقلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها في لغتهم وأخضعوها لقوانينها، فجر الإسلام جـ ١ ص ١٧.

(٢) التراتيب الإسلامية جـ ١ ص ٣٣٦.

رسولها ليتعرف قوة محمد ويأمره بالعودة، وبعث محمد رسوله يبلغها أنه ما جاء يريد حربا، وإنما جاء زائراً للبيت معظما لحرمته. تبادل الفريقان البعوث فكانت بعثة عثمان بن عفان إحدى السفارات النبوية، انطلقت إلى قريش وطال مكثها هناك حتى ظن المسلمون هلاكها، واشتد بهم القلق وعولوا على الحرب، فبايعوا الرسول ببيعة الرضوان المشهورة وقد من الله بشأن هذه البيعة في قوله تعالى «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرة يأخذونها، وكان الله عزيزاً حكيما»[١].

وبينما هم كذلك وصلت السفارة وقد نجحت نجاحاً باهراً في مهمتها، وسجل المفوض الإسلامي لأول مرة في تاريخ دولته انتصارا عظيماً على خصمه ودون هذا النجاح في عهد الحديبية. وهي دبلوماسيا تعتبر أولى الوثائق التاريخية الخالدة في تاريخ الدولة الإسلامية، فبالرغم من أنه اشترط على الرسول العودة إلى المدينة من غير عمرة على أن يأتي في العام التالي، وبالرغم من تذمر المسلمين من شروط الحديبية، فإن سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة الدبلوماسية كما تسمى في اصطلاح الساسة المحدثين، وكان الفتح إحدى ثمرات يوم الحديبية كما مانت برده إلى العالم الخارجي إحدى نتائجها الباهرة، وعيله نسترسل الحديث عن المهام الجسام التي أداها البريد النبوي لدعوى عموم الرسالة خارج نطاق شبه الجزيرة، في أواخر العام السادس، نظم النبي بعوثه أو سفاراته لأكابر الملوك والأمراء المعاصرين فكانت تلك السفارات بين حوادث هذا العهد حادثاً فريداً، وكانت دليلاً جديداً على ما تجيش به نفس الرسول العربي من سمو في الشجاعة وقوة الإيمان برسالته، وبلغ هؤلاء الملوك والأمراء الذين راسلهم ثمانية [٢]. كان أهمهم وأعظمهم بلا ريب قيصر الروم، وملك فارس، إذ كان الأول زعيم الأمم النصرانية والثاني زعيم الأمم الوثنية، نظمت هذه البرد وأرسلت إلى مختلف الأنحاء لكل ملك

---

(١)سورة الفتح.

(٢) الأستاذ محمد عبد الله عنان «الرسالة» العدد ٤٢ من السنة الثانية.

وفد أو رسول ولكل كتاب نبوي؛ وكانت مهمتها جميعا واحدة هي الدعوة إلى الإسلام والإيمان برسالة محمد ﷺ. أما ما أسفرت عنه تلك البعوث من نتائج فكانت سلبية بالنسبة إلى قيصر وعامليه على مصر والشام، ولم تكن حاسمةفي شيء بيد أنها كانت ذات أثر معنوي عميق في البلاط الروماني وفي الكنيسة، يتضح ذلك في زواج النبي بمارية القبطية وفي بعض المجاملات والأقوال الودية والمخاطبات المتبادلة بين العالمين الإسلامي والنصراني.. أما كسرى فارس فقد مزق كتاب النبي وأهان السفير وطرده. وعلى العكس فكانت النتيجة عملية بالنسبة لأمراء العرب، فإن أمير البحرين وأميرى عمان آمنوا برسالة النبي واعتنقوا الإسلام وأدوا الجزية عن رعاياهم غير المسلمين، وأما صاحب اليمامة وكان نصرانيا فرد الرسول بكتاب خشن يطلب فيه مشاركة النبي في أمره وسلطانه شرطا لدخوله في دعوته. بقى أخيراً سفارة النبي إلى الحبشة وهي السفارة الوحيدة التي أرسلت إلى ما وراء البحر وتقول عنها الرواية الإسلامية أن النجاشي لبى دعوة النبي وأسلم وبعث إليه بكتاب يؤكد فيه إسلامه. بيد أنه يلوح لنا أن القول بإسلام النجاشي مبالغة يمكن أن تحمل على ما أبداه النجاشي من أدب ومجاملة في استقبال السفارة النبوية، والمرجح أن النجاشي لم يسلم، ولو أسلم النجاشي يومئذ لكان الإسلام قد غمر الحبشة كلها ولكانت النصرانية قد غاضت منها، بي أن الإسلام لم ينتشر في الحبشة إلا بعد ذلك بعصر وكان انتشاره في الجهات الشرقية والجنوبية فقط [1].

كانت هذه السفارات والكتب النبوية عملا بديعا من أعمال الدبلوماسية، بل كانت أول عمل قام به ديوان البريد في هذا الميدان بعد سفارة عثمان السابقة. على أن هذه الدبلوماسية الفطنة التي لجأ إليها النبي في مخاطبة ملوك عصره لم تذهب كلها عبثا كما رأينا، بل كانت في الواقع عملا متمما للرسالة النبوية فلم تمض أعوام قلائل على إيفاد هذه البعوث حتى كان الإسلام قد غمر قلب الجزيرة العربية وانساب تيار

(١) المرجع السابق.

الفتح الإسلامي إلى قلب الدولتين الرومانية والفارسية، وأخذ العرب أبناء الدين الجديد وحملة الرسالة المحمدية يعملون بسرعة خارقة على إنشاء الدولة الإسلامية الكبرى.

وبلغ من اهتمام الرسول بالبريد أنه أمر عماله أن يبردوا له البريد مع أناس يتوافر فيهم حسن الوجه وجمال الخلقة حتى أنه قال «إذ أبردتم إلى بريدا فأبردوه حسن الوجه حسن الاسم» وإذا بعث عاملا سأل عن اسمه فإذا أعجبه اسمه فرح به ويرى بشر ذلك في وجهه، وإن كره رؤى كراهية ذلك في وجهه [(1)], واشترط فيهم أيضا قوة الذكاء وطلاقة اللسان، وكان عليه السلام حريصا في توافر تلك الصفات في من بعثهم إلى الملوك المعاصرين له، لعلمه بأن النبعوث إنما هو لسان مترجم لرغباته وآرائه، ومجيب عن كل ما يسأل عنه. وكاف باعثة مئونة غيبته، وإذا لم يكن كذلك خسر مهمته ورجع على مرسله بالخسران المبين... وحسبنا دليلا على عنايته عليه السلام يرسله أن دحية الكلبي مبعوثة لدى قيصر الروم عندما قدم على الأخير قال له «يا قيصر، أرسلني من هو خير منك، والذي أرسله هو خير منه ومنك فأسمع ثم أجب... ثم قال هل تعلم أكان المسيح يصلي، قال نعم. قال فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له، وأدعوك إلى من دبر خلق السموات والأرض والمسيح في بطن أمه، وأدعوك إلى هذا النبي الأمي الذي بشر به موسى وبشر به عيسى بن مريم بعده... فأخذ قيصر الكتاب... وقال له: «أمهلني حتى أنظر من كان المسيح يصلي له»[(2)].

وواضح من تلك العبارة أن دحية قد أفحم قيصر بالحجة والدليل العقلي فأكسب وده وتملك عواطفه، وإن لم تكن النتيجة عملية إلا أن أثرها المعنوي كان أبلغ وأظهر وضوحا كما سبق القول. وهذا بفضل ما أمتاز به دحية من قوة الذكاء

---

(١) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٢٤٦_ لسان العرب جـ ٤ ص ٥٣.

(٢) القلقشندي جـ ٦ ص ٣٦٠_ التراتيب الإدارية جـ ١ ص ١٩٠.

ووفرة الجمال، فالرواية العربية تصوره في صورة الصحابي المبالغ في جماله، المفرط إلى حد أن المرأة إذا رأته وهي حامل ألقت ما في بطنها، الأمر الذي حمله على التلثم خشبة أن يفتتن به النساء، وبلغ من أثر جماله أن جبريل عليه السلام كان يأتي رسول الله في صورة دحية [1]. ويخيل إلي أن الرواية ركبت متن الشطط في وصف جمال دحية إلى حد أنها كادت تضعه أو وضعته فعلا في مصاف الأنبياء والرسل، فمثل هذا الوصف يذكرنا بما ورد عن قصة سيدنا يوسف في القرآن وأمر النسوة اللاتي قطعن أيديهن بسبب جماله، وعلى كل حال فإن ما نهجه رسول الله من شروط في اختيار سفرائه ورسله لدى معاصريه أمر لا يخرج عن المألوف والعرف الجاري اليوم لدي الدبلوماسية الحديثة من تبادل السفراء والقناصل ومراعاة الأناقة وجمال الخلقة والكفاءات الممتازة عند اختيارها لهم بصفتهم ممثلين لأمم ورمز المدى ما خطته من سطور في الحضارة والمدنية.

اتخاذ الخاتم لتوقيع رسائل البريد:

هناك ناحية أخيرة من نواحي اهتمام رسول الله ﷺ بموضوع البريد هي أنه لما أراد أن يكتب إلى قيصر وكسري يدعوهما إلى الإسلام، قيل له أن العجم لا يقبلون كتابا إلا أن يكون مختوما، لأنهم يرون في ختم الكتاب تعظيما للمكتوب إليه فأتخذ خاتما من فضة ونقش عليه «مُحَمَّد رسول الله» وقد تختم به أبو بكر وعمر وعثمان من بعده، ثم سقط من يد عثمان في بئر أريس من آبار المدينة وذلك في النصف من خلافته، فأصطنع عثمان خاتما مثله، وكان كل من ولى الخلافة بعده يصطنع له خاتما يختمون به الكتب في أسفل الكتابة وفي أعلاها بالطين أو المداد ثم صاروا يختمون به الرسائل بالشمع بعد طيها [2].

---

(١) التراتيب الإدارية ج ١ ص ١٩٠.

(٢) فتوح البلدان ص ٢٦٢ تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٠٦.

وتاريخ ختم الرسائل قديم قدم التاريخ يرجعه البعض [1] إلى عهد سيدنا سليمان عليه السلام بتفسيرهم قوله تعالى حكاية عن بلقيس «إني ألقي إلى كتاب كريم» بأنه مختوم، ومما يذكر عن الأسكندر أنه عندما أرف على الموت مسموما في بابل وشعر بذلك استدعى فليمون وزيره، وأمره أن يكتب إلى أمه يعزيها في نفسه وينهاها بالتسلى والصبر، ثم أمره بأن يختم الكتاب وينفذه في السر لأمه [2]. وبناء عليه يمكن القول بأن اختصاصات ديوان الختم عرفت في الدولة الإيلامية قبل نشأة الديوان نفسه الذي يرجع فضل نشأته إلى معاوية كما سيجيء، ويظهر أن اختصاصات ديزان البريد والختم كانت تديرها إدارة واحدة في الصنف الأول من القرن الأول الهجري لما هناك من صلة وتشابه بين طبيعة عمل الديوانين.

(٤) بريد الخلفاء الراشدين: ورث أبو بكر عن صاحبه صلوات الله عليه وسلم تركة مثقلة بالذيون استنزفت دم شييخوخته وعصارة ذهنه، وكانت حركة الردة وحدها تنؤ من ثقلها الجبال ولكن أبا بكر خير من توكل إليه مهام الأعمال فأثبت أنه خير خللف لخير سلف فعقد اللواء للجيوش وأعطاهم الكتب إلى المرتدين بأمرهم بالعودة إلى حظيرة اليدن ويخوفهم عاقبة الخروج على جماعة المسلمين؛ وما هي إلا سنة واحدة والبريد يحمل إليه خبر عودتهم ونحاج قواده في مهمتهم فكان هذا فضلاً من فضائل البريد الإسلامي في يقظته وسرعة نقله أخبار ميادين القتال إلى الخليفة.

ثم جاء عمر وشاهدت الجماعة الإسلامية لونا جديدا من ألوان الحكم وطراوا جديدا من طراز الرجال، شاهدت رجلا يجمع بين السياستين المدنية والعسكرية بمعناهما الحديث، يدير حكومته في الداخل ويرسم لقواده في ميادين القتال خططا حربية لا تصدر إلا من رجل حذق فن الحروب ومارس العسكرية علما وعملا... وجد الفاروق أن العرب يندفعون في فتوحاتهم غير حاسبين للهزيمة أدنى حساب، فأقر

(١) القلقشندي جـ ٦ ص ٣٥٣.

(٢) تاريخ اليهود ص ٨٩.

لهم سياسة عدم الأنسياح في أرض الدولتين الرومانية والفارسية متعلقا بتلابيب جنده حرصا منه في المحافظة على تلك السياسة التي يمكن فهمها من الكتب المتبادلة بينه وبين قواده بعد موقعتي أجنادين والقادسية [1]. وهي سياسة سليمة من غير شك وإن كانت لا ترضى قواد العصر الحديث النهمين الذين يدفعهم غرورهم واستهتارهم بالشعوب إلى القذف بشبانهن في مجازر بشرية لا تجر عليهم إلا الدمار والخراب، وهذا ما تحاشاه أكبر قواد المسلمين في القرن السابع م. ذلك لأنه كان يعلم أن أقدام العرب لم تثبت بعد في فتوحاتهم الجديدة، وأن عددهم لا يكفي لمواجهة الجبهتين الداخلية والخارجية، كما أنه كان يرى في ابتعاد المحاربين عن حكومتهم المركزية ما يزيد من صعوباتهم وهو يريد ألا يفصل بحر بينه وبينهم، هذه السياسة حملتني على الأعتقاد بأن فتح فارس ومصر كان نتيجة لتهور القائدين العظيمين عمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص واعتمادهما على شدة حزمهما وقوة إيمانهما.

وواضح من تلك السياسة أن الأمر يستلزم الأبقاء على ما عرف من نظام البريد أيام الرسول بل والتوسع في معناه، والرواية العربية [2] تشير بصريح العبارة إلى اهتمامه بتلقف أخبار قواده، من ذلك قولها أنه كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله، فلما لقي البشير سأله «من أين» فأخبره، قال له «حدثني يا عبد الله» فقال «هزم الله المشركين» وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه المؤمنين فقال له الرجل «فهلا أخبرتني رحمك الله إنك أمير المؤمنين فقال عمر «لا بأس عليك يا أخي» وإني أخشى من عبارة «يستخبرك الركبان» أن يلتبس الأمر على حضرات القراء فيظنون خطأ أن عمر قد أهمل شأن البريد أو على الأقل لم يرتبه كما كان منتظرا بدليل أنه كان ينتظر الواردين من القادسية وقد تكون أخبارهم موضع شك لأنهم غير رسميين ولا تقع عليهم تبعة ما

---

(١) الطبري مجموعة ١ ج ٥ ص ٢٣٦٠.

(٢) نفس المصدر والمجموعة ج ٥ ص ٢٣٦٧_ ابن الأثير ج ٨ ص ٤٢٥.

يقولون، وإني أرى أن غيرته على تطورات الحال بالنسبة للمسلمين في القادسية واستقائه الأخبار من القادمين كان الحافز له عليها رغبة الأطمئنان على المقاتيلن حتى تعسفه الأخبار الرسمية، وهل نجيز لرجل كعمر أنشأ الدواوين بأنواعها ورتبها كما كانت عند الفرس أن يعتمد في أخباره على أناس غير حكوميين ويغفل تنظيم البريد وهو يعلم ما كان له من أهمية خطيرة أيام الأكاسرة والقياصرة، هل ننفي وجود بريد منظم في الدولة الإسلامية قبل عصر معاوية بن أبي سفيان كما ذهب البعض [١] وأمامنا الدليل واضحا من الرواية الإسلامية العربية التي تذكر أن عمرا كان يحدد ساعات معينة في أيام معينة لخروج البريد من المدينة إلى ميادين القتال، فإذا قدم الرسول عليه من بعض الثغور تبعه بنفسه إلى منازل المقاتلين فيعطي نساءهم كتبهم ويقول لهن، أزواجكن في سبيل الله وأنتن في بلاد رسول الله، إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فأقربن من الأبواب حتى اقرأ لكن، ثم يقول الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن، ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواء[٢].

وقد حرص عمر على تنفيذ تلك السياسة في الولايات فكتب إلى عماله يأمرهم بإعلان الناس في عمالاتهم عن مواعيد خروج البريد إلى المدينة، من ذلك أنه كتب إلى عامله بالبصرة كتابا لمكتب الرسول عنده يقول فيه « أيا فاتحا نادى مناديه، ألا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج، فمن كانت له حاجة فليكتب» فكتب نصر بن حجاج وكان أمير المؤمنين قد أبعده عن المدينة إلى البصرة كتابا دسه المكتب إلى أمير المؤمنين [٣] وهذا الخبر فيه الدليل القاطع على إنشاء مكاتب للبريد الإسلامي في عواصم الأقاليم، وهذه خطوة لا تقدم عليها الحكومات المحلية عادة إذا كانت إداراتها كاملة في الحكومة المركزية. ويؤيد لك تعميم مثل تلك الدور والمكاتب بالحواضر الأخرى، فالكوفة مثلا كان بها دار مخصصة للبريد ينزل فيها الرسل إذا حضرت من الأمراء إلى

---

(١) Amir S .Ali. p. 62 دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢ ص ١١٠_ النظم الإسلامية ص ٢٥٤.

(٢)الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ٣٠.

(٣) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ١٩٢.

الخلفاء: وقد صلى أبو موسى الأشعري في هذه الدار يوم أن كان أميرا على الكوفة من زمن عمر وعثمان وكانت تقع تلك الدار في طرف البلد [1]، وأقبل البريد يوما على عمر وبه عقد من الجوهر أهدته ملكه الروم إلى زوج عمر أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ردا على ما أهدته أم كلثوم من طرائف بلاد العرب إليها. ولم يشأ عمر أن يؤدي العقد إلى امرأته حتى أمر فنودى في الناس الصلاة جامعة، فلما اجتمع إليه المسلمون استشارهم في هذا العقد فأشار عليه كلهم بأن يؤديه إلى أم كلثوم لأنه ملكها، ولكنه يخرج من ذلك لأنه حمل إليها في بريد المسلمين فأمر برده إلى بيت المال وأدى إلى امرأته ما أنفقت في هديتها لملكة الروم [2].

وإذا عرفنا أن البريد أيام عمر خرج عن معناه البدائي وهو نقل الأخبار إلى عمل الرقابة بمعناها الحديث أدركنا الصورة التي كان عليها البريد في عهد الجمهورية الإسلامية الأولى. فيفضل رقابة عمال البريد في الولايات كان علم عمر بمن نأى عنه من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد، فلم يكن له في قطر من الأقطار ولا ناحية من النواحي عامل ولا أمير جيش إلا وعليه عين لا يفارقه ما وجده، فكانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده في كل ممسى ومصبح، وأنت ترى ذلك في كتبه إلى عماله وعمالهم، حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصبهم به [3]، وقد علق بعضهم على ذلك بقوله «كان لعمر عيون على الناس عجيبة»[4] .

وقد حافظ الخليفة الثالث على نظام البريد بالصورة التي ورثها عن حكومة عمر والتي يمكن فهمها من الطريقة التي سلكها عثمان في جمع الأخبار حتى في أوقات مكثه في المسجد لتأدية فريضة الصلاة. فالرواية التاريخية تذكر أنه كان يحدث الناس

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) عثمان بن عفان للدكتور طه حسين ص ١٢٩.

(٣) الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ٢٨.

(٤) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٣٦٣.

والمؤذن يؤذن يسألهم ويستخبرهم عن الأسعار والأخبار وكان يفعل هذا يوم الجمعة على وجه الخصوص [1] غير أني لا أستطيع أن أبرح عصر عثمان قبل أن أهد القاريء على ما يلقيه التاريخ من تبعة على إدارة البريد في هذا العصر. لأن القائمين بأمره قد فرطوا في واجبهم واستهانوا إلى أبعد حدود التفريط والاستهانة. الأمر الذي تسبب عنه مقتل عثمان. وتفصيل ذلك أن التاريخ يصور عثمان في صورة الرجل المتدين اللين الجانب الذي أسلم مقود خلافته إلى مروان بن الحكم يؤازره بعض الأقارب في الولايات فثارت تلك وأوفدت وفودها إلى المدينة لمناقشة عثمان في الأمر، وكادت ثورة القوم تهدأ بعد اتفاقهم على إمهال عثمان ثلاثة أيام لولا أن حدث ما لم يكن في الحسبان، حدث حادث هو في نظرنا أول الشرر الذي تطايرت منه نيران الفتنة، وهو في نظرنا تسأل عنه إدارة بريد عثمان.. ذلك أنه بينما كان الوفد المصري قافلا في طريقه إلى مصر إذا بساعي البريد واسمه أبو الأعور ابن سفيان السلمي على جمل لعثمان يدركهم في الطريق، فلم رأوه على جمل عثمان استرابوا في أمره وقالوا له « هل معك كتاب قال «لا». قالوا: فيم أرسلت. قال: لا علم لي ففتشوه فوجدوا معه كتابا برسم عبد الله ابن سعد بن أبي السرح عامل عثمان على مصر يأمره فيه بتعذيب الوفد وإليك نصه بعد الديباجة «أما بعد فإذا قدم عليك عبد الرحمن ابن عديس فأجلده مائة جلدة، وأحلق رأسه ولحيته وأطل حبسه حتى يأتيك أمري، وعمر بن الحمق فأفعل به مثل ذلك. وسودان بن حمران مثل ذلك. وعؤوة ابن النباع مثل ذلك...» فعاد أعضاء الوفد إلى المدينة لمناقشة عثمان الحساب منكرين هذه الخيانة؛ فتبرأ سيدنا عثمان من أن يكون أطلع على هذا الخطاب، فضلاً عن يكون أمر به قائلا: «ما فعلت ولا علم لي بما تقولون» قالوا: «بريدك على جملك وكتابك عليه خاتمك». قال: أما الجمل فمسروق وقد يشبه الخط الخط، وأما الخاتم فانتقش عليه. قالوا لا نعجل وإن كنا قد اتهمناك، فأعزل عنا

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦٥.

عمالك الفساق [١]. وحاصروه أربعين يوما انتهت باغتياله.

الظاهر أن مروان وكان يملك خاتم عثمان هو الذي كتب هذا الخطاب... والظاهر أن اختصاصات إدارتي البريد والختم كان مرجعهما إلى مروان... والظاهر أيضاً أن مروان لم تتوافر فيه الشرط التي يجب توافرها في صاحب البريد والتي سنعددها في الفصل القادم. فمروان أساء إلى عثمان وإلى الجماعة الإسلامية إساءة كبرى لا تغتفر. أساء إلى عثمان من ناحية قبضه على ناصية الحال من وراء ستار. وأساء أيضاً من ناحية أنه كثيراً ما كان يحمل عثمان على أن يعلن في لاناس عكس ما كان أعلن فيهم من قبل؛ وأساء إلى الجماعة الإسلامية لأنه تسبب في فتنة مقتل عثمان التي أصابت وحدتها لأول مرة في تاريخها فكانت كالجرح الذي لا يندمل أبدا، وتسبب عنها ارتباك حكومة الخليفة الرابع وانشغاله بقمع ثورات الخارجين عن طاعته والمعارضين لخلافته، فاندرست معالم البريد على ما أعتقد في هذه الفترة استناداً على صمت الرواية التاريخية عنها، ولم تقم له قائمة إلا بعد أن استقر الأمر لمعاوية بن أبي سفيان.

مما سبق نقرر وجود أصول وينابيع الحضارة الإسلامية في وقت ظهور الإسلام فأعمال الرسول وأقواله وما جرى عليه لخلفاء الراشدون من نظم الحكم ما عي إلا بذزر تلك الحضارة التي سنرى أوج عظمتها أيام الأمويين والعباسيين ممثلة في موضوع نظام البريد ولا ننكر إذن أنه جرى مجرى النشوء الطبيعي في كل شيء وسار سيرا تدريجياً إلى أن وصل إلى أوجه في السمو والازدهار.

(٥) بريد الأمويين: قامت دولة بني أمية واتخذت دمشق عاصمة لها، ونسبت بعض [٢] الروايات التاريخية التي تعرضت للموضوع الذي نحن بصدده إلى معاوية بن أبي سفيان فضل إنشاء ديوان خاص لتنظيم البريد، وفي هذا المعنى قال الأستاذ مُحَمَّد

---

(١) الطبري جـ ٥ من الطبعة المصرية ص ١١٥ إلى ١١٧.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢ ص ١١٠_ النظم الإسلامية ص ٢٥٤. Ameer S. Ali. p. 62

كرد علي [1]«ابتكر معاوية في الدولة أشياء لم يسبق أحد إليها، منها أنه أول من وضع الحشم للموك ورفع الجراب بين أيديهم، ووضع المقصورة التي يصلي الملك أو الخليفة بها في الجامع منفرداً عن الناس، وهو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة واخترع من أمور الدولة ديوان الخاتم» فكأن الأستاذ يذهب إلى القول بأن تاريخ وضع البريد لنقل الأخبار في الدولة الإسلامية إنما يرجع إلى قيام الدولة الأموية ولم يكن معروفا لدى من سبقه من الخلفاء الراشدين. قد يتعارض هذا الحكم التاريخي مع العرض السابق عن البريد النبوي وبريد الخلفاء،.... كما ينكره مؤرخ آخر [2] يقول أن البريد كان معروفاً عند من سبق معاوية من الخلفاء الراشدين، واشتهر أمره في مدة سيدنا عمر بن الخطاب والغريب أن الأستاذ كرد علي ينقض نفسه بنفسه في رواية أخرى [3] ينسب فيها النظم الإدارية في عهد معاوية إلى أُولها الأولى أيام الرسول والخلفاء الراشدين، وأن كل ما عمله معاوية هو المحافظة على تلك الأصول وعدم الحساد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ودعى إليه المحيط الجديد، كاخرتاج الإدارة من سذاجه البداوة إلى بحبوحة الحضارة وهذا ما كان يجل أن يذكره الأستاذ بشأن البريد ويقره بصراحة.

ونأخذ على الأستاذ أيضاً أنه لم يعطينا رأيا قاطعا عما إذا كان معاوية قد نقل هذا النظام عن الفرس أم عن الرومان بل يقر بنقله عن الدولتين معا، وقد أيده في ذلك غير واحد من المؤرخين حيث يقولون [4]«فهو أول من وضع البريد لتسرع إليه أخبار بلاده عن جميع أطرافها، وأحضر رجالا من دهاقين الفرس وأهل عمال الروم فعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد واتخذوا له بغالا بأكف كان علسها سفر البريد، وكان لا سجهز عليه إلا الخليفة وصاحب الخبر، وهو الذي اخترع ديوان الخاتم وحزم

(١) خطط الشام جـ ١ ص ١٤٣.

(٢) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ١٩٢.

(٣) الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ٣٠.

(٤) التعريف جـ ١ ص ١٨٤_ القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٦٧_ الإسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ١٥٨.

الكتب ولم تكن تحزم» أما السبب في اختراع معاوية لديوان الخاتم فهو أنه كتب مرة [1] إلى زياد بن أبيه عامله بالكوفة أن يدفع لعمر بن الزبير مائة ألف درهم وسلم الكتاب إلى عمر ليحمله إلى زياد فجعل عمر المائة مائتين فدفعهما زياد له. فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وأخذ عمر بردها وحبسه فأداها عنه أخوه عبد الله، ومن ذلك الحين تجنبا للتزوير أمر معاوية باحدث ديوان الختم، وحزم الكتب وختمها على طرفيها بعد طيها ولم تكن تحزم؛ وعين عبد الله بم محض الحميري على ديوان خاتمه على أنه يستدل من رواية القلقشندي [2] أن عمر الخطاب هو منشيء ديوان الختم وقد يكون هذا صحيحاً لأن عمر أول من أنشأ الدواوين تشبها بالفرس، وعلى كل حال فقد سبقت الإشارة إلى ختم الكتب في عهد الرسول لما أراد مراسلة الملوك المعاصرين له سبقت الإشارة إلى ختم الكتب في عهد الرسول لما أراد مراسلة الملوك المعاصرين له ودعوتهم إلى الإسلام.

وأخيراً نختم القول عن معاوية بأنه قد ورث نظام التراسل وطريقة ختم الكتب عن حكومات الجمهورية الإسلامية الأولى. وأن المراد من الروايات السابقة بصدد معاوية والبريد هو تنظيمه وترتيبه لهذا النظام على صورة أوسع نطاقا وأكثر وضوحاً لكونه أول خليفة أقام الخيول على الطرق لنقل البريد [3] وأول من رتب له الميل والمحطات [4] معتمدًا في ذلك على ما اقتبسه من قوانين الفرس والرومان معاً، ولكني أميل إلى القول بأنه كان أكثر تأثراً بالرومان عن الفرس بحكم احتكاكه بنظم الحكم الروماني بالشام ودمشق، وقدم صلته بعمال الروم منذ أن كان والده تاجرا في الجاهلية، ومنذ كان هو واليا على الشام أيام خلافتي عمر وعثمان؛ فلا بد وأن يكون قد شاهد بعيني رأسه نظم الحكم الروماني ولمس محاسن البريد عندهم أيام غزواته

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ١٩_ تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٠٦.

(٢) القلقشندي جـ ٦ ص ٣٥٧.

(٣) History of the Saracens by Simon Ockley p. 383

(٤) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ١٩٢.

بأرمنيه وآسيا الصغرى وجزر اليونان، والعقلية العربية بطبيعتها تمتاز بظاهرتي الاحتفاظ والإبداع فمعاوية بلا ريب نقل النظام وأدخل عليه تحسينات جمة صبت في قالب عربي إسلامي.

(٦) بريد المروانيين: تولى عبد الملك بن مروان الخلافى في وقت كانت جرثومة الأحزاب السياسية في الدولة الإسلامية قد أفرخت في شرايين العرب والأعاجم على حد سواء. فالخوارج في العراق وفارس يتزعمهم المختار بن أبي عبيد يعملون على تل عرش الأمويين.. والزبيريون بالحجاز يعملون على تنصيب عبد الله بن الزبير وقيام خلافة مناوئة للأمويين... والرومان على حدود الشام يعملون على خدش حرمة الجولة بإسقاط حصونها الشمالية، ولمن عبد الملك تمكن بحزمه ويقظته من تصيد أعدائه الثلاثة كل على انفراد وتفرغ لإصلاحاته الداخلية، وخص البريد منها قسطا كبيرا كي يضمن له سلامة الأمن والإدارة في الداخل، ويوقفه على حركات العدو في الخارج؛ فأدخل على نظامه عدة تحسينات حتى أصبح آداة هامة في إدارة شئون الدولة. وقد أثر عنه أنه قال لأحد رجاله [١] واسمه ابن الدغيدغة. «وليتك ما حضر ببابي إلا أربعة_ المؤذن فإنه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه، وطارق الليل فشر ما أتى به ولو وجد خيرا لنام. والبريج فمتي جاء في ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم ينة حبسهم البريد ساعة. والطعام إذا أدرك فافتح الباب وأرفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول» فهذا القول لا يصدر إلا عن رجل أدرك ماهية البريد فأولاه عنايته وتقديره وإلا ما ذكره دون سواه من النظم الإدارية الأخرى في الدولة، وخص لديوانه رجلا من ثقاته الأوفياء هو قبيصة بن ذؤيب الذي كان يقرأ الكتب الواردة من الأقاليم ويخبر عبد الملك بما جاء فيها [٢].

ثم يأتي من بعده ابنه الوليد فلا يكتفي بما كان عليه البريد أيام والده من نقل

---

(١) القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٦٧_ النظم الإسلامية ص ٢٥٤.

(٢) الإسلام والحضارة العربية جـ٢ ص ١٦٩.

الأخبار بل يتخذه وسيلة لتحقيق رغباته الاقتصادية والعمرانية، فيستخدم خيله وابله في حمل الفسيفساء وهو الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق ليفصح به حيطان المسجد الجامع بها ومساجد مكة والمدينة والقدس الشريف، ولا يزال بعض هذا الفيسفساء بجامع دمشق في الصحن وجامع مكة في توسعة المهدي يشهد بفضل دواب البريد في حمله إلى تلك البقاع المقدسة [١]. ولأول مرة في تاريخ الدولة الإسلامية نرى مثل هذا التطور الجديد في مهمة ديوان البريد والذي نراه اليوم في مصلحة البريد من نقل الطرود المختلفة من جهة إلى أخرى ومن قطر إلى آخر.

والأغرب من هذا أن يضيف عمر بن عبد العزيز إلى نظام البريد نفحة جديدة من نفحاته وهي الإكثار من بناء خانات للبريد على جوانب الطرق الرئيسية خصوصاً بطريق خراسان ليبيت فيها الناس، وأمكنة يقيم فيها الدواب من خيل وجمال، وميله في الأحواض للشرب [٢]. وهذا ليس بالأمر المستغرب على رجل كعمر بن عبد العزيز عرف بالتقوى والورع وعده أهل السنة خامس الخلفاء الراشدين. وهذه حقيقة أيدتها حوادث سيرته التي قضاها قي تدعيم أركان الدولة ومحاسبة عمالها حسابا عسيرا ميقنا إن هذا لا يتم إلا بالعناية بنظام البريد [٣].

وكثيرا ما كان خلفاء بني أمية يستخدمون خيل البريد لحمل بعض الناس إلى الخليفة أو الأمير التماسا لسرعة قدومهم خصوصاً هؤلاء الذين تحدثهم نفوسهم بالخروج على طاعة السلطان. ويحدثنا المسعودي [٤] في هذا المعنى عن خروج شبيب الخارجي على الحجاج بالكوفة في خلافة الملك بن مروان وكادت فتنته تفسد عليه الأمور هناك لولا أن استعان ببريد الشام في وصول النجدة إليه وتضييق الحصار على شبيب حتى نفر به فرسه وألقاه في النهر ثم حملت جثته على البريد إلى الحجاج.

---

(١) التعريف جـ ١ ص ١٥٨_ القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٦٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٦٠٩_ مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادي.

(٣) الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ١٠٥.

(٤) مروج الذهب جـ ٣ ص ٨٩.

كذلك إذا أراد الخليفة إحضار شخص مآمن الأقاليم إلى عاصمة ملكه أمر بحملخ على دابة البريد، كما فعل يزيد بن عبد الملك بن مروان عندما وجه إلى صاحب مكة كتابا يطلب منه إرسال أحد الشعراء وقد سمع الخليفة عن شهرته في قول الشعر. «إذا أتاك كتابي هذا فأدفع إلي... ابن أبي لهب ألف دينار لنفقة طريقه، وأحمله على ما شاء من دواب البريد» ففعل [١]. وهذه العبارة تدل على أن دواب البريد كانت من النوع الممتاز السريع العدو، وعلى أهبة الاستعداد للسفر، وأن أماكن راحتها مزودة بالبدل والعلف والماء.

وكان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى يبلغ في بعض الأحايين أربعيم أو خمسين دابة، سيما إذا استخدمت في نقل الجنود لإخماد الفتن والثورات في جهة ما بالولايات كما حصل في ولاية هشام بن عبد الملك. وقد روى عنه العلامة ابن خلدون أن قبائل التركمان ببلاد الخزر خرجت عن طاعته وثارت ضد واليه وإسمه الجراح الحكمي الذي عجزعن كبح جماحهم فقتلوه وعاثوا في الأرض فساداً يهلكون الحرث والنسل في طريقهم إلى الموصل. وهال هشاما الموقف فتقدم إليه إحد قواده الأفذاذ الذين يشار إليهم بالبنان وخاطبه بقوله «فأبعثني على أربعين دواب البريد، وأبعث إلي كل يوم أربعين رجلا مددا، وأكتب إلى أمراء الأجناد يواسوني»[٢]. تعجب هشام من جرأة ذلك القائد وشجاعته التي أعادت إليه الثقة بالنفس والإيمان بالنصر، فأجابه إلى طلبه ونجح سعيد في مهمته خير نجاح، وكتب له السعد والفلاح. والفضل في ذلك من غير شك يرجع إلى ديوان البريد وعماله ودوابه الذين أسعفوه في مقل الجنود والمدد على جناح السرعة فتمكن من إحاطة الثائر ومباغتته.

هذا ما مان في وسعنا جمعه وتحصيله من مادة تاريخية عن البريد الأموي، وهي تقطع بعناية خلفاء بني أمية بنظام البريد وحسبهم الأموال للأنفاق منها على دوابه

---

(١) المرجع السابق جـ ٣ ص ١٣٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٨٩.

وطرقه وعماله كي يتخذوه أداة صالحة في سبيل تأييد سلطانهم وكسر شوكة أعدائهم. ومما يؤثر عن الخليفة الأموي هشام أن مصاريف البريد في خلافته بأقليم العراق وحده بلغت أربعة ملايين درهم [١] ويكفي الأمويين فخراً أنهم أصحاب السبق في ترتيب وتوسيع نظام البريد في الدولة الإسلامية بشكله وصورته المعروفة لدى الفرس والرومان مع تنسيقه ومسايرته لنظرية النشوء والأرتقاء تمشيا مع العصر والزمان.

(٧) بريد العباسيين: إن الثورة التي استخلصت السلطان من الأمويين ونقلته إلى منافسهم العباسين قد أحدثت انقلاباً خطيراً في العالم الإسلامي على وجه العموم وفي الإدارة الحكومية ونظمها على وجه الخصوص. ذلك أنها قضت على انفراج العنصر العربي بالحكم واستئثاره بمناصب الدولة الكبرى وحل محله العنصر العجمي. فلا عجب إذا قلنا أن العنصر الفارسي باعتبارهم رعايا امبراطورية متمدنة عظيمة الشأن احتلوا أثر قيام الدولة العباسية المناصب اللائقة بهم كمواطنين في العالم الإسلامي، كما فتحت أمامهم المناصب العليا على مصراعيها, وغدت الفرص مواتية أمامهم لتطعيم الأداة الحكومية الإسلامية بما كان جاريا عند أجدادهم الأكاسرة. وإذ

ا عرفنا أن العرب يمثلون نظما معينة سياسية واجتماعية، فمعنى هذا أن هذه النظم قد ذهبت أدراج الرياح بذهاب سلطانهم، وأن النظم الفارسية القديمة ذابت في المملكة الإسلامية، وأصبحت حياة الفرس السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت أعين الخلفاؤ يعرفون عنها الكثير، فأستطاعوا أن يتذوقوا شيئاً منها. فالشعب الفارسي له مدنية قديمة، وماض عظيم وتأبى قوميته إلا أن يبعث التالد في ثوب خالد يناسب الظروف الجديدة والتعاليم الإسلامية. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا البعث تحسين وإخراج النظم الإدارية على أسس منظمة تضارع أنطمة المماليك الحديثة. وليس أدل على مقدرة الدولتين الأموية والعباسية من كثرة التشكيلات الحكومية في الدولة العباسية. تلك التشكيلات التي أخذت بها الدول

---

(١)**Ameer S. Ali. p.111**_ تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٨٢.

الإسلامية المتعاقبة، وسارت على نمطها كوظيفة الوزير وأستاذ الدار، والسلطان، ومجلس العزيز، وتعدد الدواوين، ومن بينها ديوان البريد وكلها نظم كسروية قديمة صاغها العقل العجمي في ثوب إسلامي جديد.

(أ) عصر المنصور والمهدي: على الرغم من هذه الحقيقة وإن كانت مرة على بعض المؤرخين الذين يذهبون إلى القول بأن نظام البريد ظل قائما والعمل عليه دائماً في الدولة الإسلامية حتى تقوض بناء الدولة المروانية، وانتكث حبلها فانقطع البريد ما بين خراسات والعراق لانصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. قد اتفق معهم في هذا القول لأن من عادة الدولة أن تجند قواها العقلية والمادية وتصرف النظر عن مشاريع الإصلاح والتعمير لتسج النقص في الناحية الدفاعية المتولد عن الفتن والثورات، سواء أكان الدفاع لها والباعث على تحريكها في الداخل أو الخارج. إلا أني لا أتفق معهم عندما يسترسلون في حديثهم ويبالغون في عباراتهم فيعتبرون البريد في خبر كان بعد أنقراض أيام مروان آخر خلفاء الأمويين، وكذلك أيام السفاح والمنصور ثم المهدي «والبريد لا يشد له سرج ويلجم له دابة»([1]). أن صح هذا القول عن عصر السفاح لا يصح أن يقال عن المنصور، فالتاريخ والواقع والمؤرخون قديمهم وحديثهم ينسبون إليه الإدارة الحازمة والعناية الفائقة بأحكام نظام المركزية في بغداد، وأظن هذا لا يتم له إلا عن طريق أحكام نظام البريد. ويفهم من رواية المسعودي إنه على الرغم من الارتباك الذي عم نظام الحكم على أثر معركة الزاب الكبرى فإن البريد قد قام بدور كبير في قيام دولة العباسيين، وأن زعماء الدعوة بالكوفة لما مثل إليهم أبو العباس السفاح وأهل بيته في صفر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة هـ. «وفيها جرى البريد بالكتب لولد العباس...»[2] أخفوا أمره حتى لا يكون في إعلانه وسيلة ينتهجها الأمويون في إفساد خططه قبل أن يقوم عمال البريد بحبك الأمور مع بقية أعضاء البيت العباسي المبعثرين في الأصقاء.

---

(١) التعريف ص ١٥٨.

(٢) مروج اذهب جـ ٣ ص ١٨٣.

ومما يؤثر عن الخليفة المنصور أنه قال [1]«ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم. قيل له من هم يا أمير المؤمنين قال: هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم. أن نقصت قائمة وهي. أما أحدهم فقاص لا تأخذخ في الله لومة لائم. والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي. والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلن الرعية فإني عن ظلمها غني، والرابع.. ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث كرات يقول في كل مرة آه. آه. آه. قيل له وما هو يا أمير المؤمنين. قال: صاحب بريد يكتب بخبلا هؤلاء على الصحة».

وصدور مثل هذا القول من رجل مسئول كأبي جعفر المنصور يعطيه قيمة علمية خاصة جديرة بالاهتمام؛ فالمنصور يعترف في صراحة في أن ملكه لا يصلح ولا يستقيم ولا تقم له قائمة إلا بنظام البريد الذي اعتبره أحد القوائم الأربعة التي شيد عليها دولته، فكانت خير ما أنتجت العقلية البشرية من ضروب الإصلاح ووسائل الحكم والتعمير، وهو لا يكتفي بالأشادة بقيمة البريد وشأنه، بل ويضعه على قائمة هذه الأركان الأربعة، ويرجع صلاحية الأركان الثلاثة إلى صلاحية البريد فإن أحسن أحسنت بدورها وأن أساء أساءت هي الأخرى. ذلك لأن البريد حلقة الأتصال وهمزة الوصل بينه وبينها. ثم أعطى صاحبه ثقته الغالية تلك الثقة التي رفعت قدره لدى بلاطه وحكومته فأصبح كلامه حجه قوية في غنى عن الدليل والإثبات، ولا أدل على ذلك من أن عامل البريد كتب مرة إلى المنصور [2] يخبره بأن والي حضر موت يكثر الخروج في طلب اصليد. الأمر الذي صرفه عن شئون ولايته، وصرف أموالها في أعداد كلاب الصيد ولوازمه. فلما وصل الكتاب إلى المنصور لم يتطرق إليه الشك في مدى صحة هذا الخبر، ولم يتوان في أن يكتب إلى الوالي كتابا يؤنبه فيه تأنيباً شديداً

(١) الطبري مجلد ٣ جـ ١ ص ٣٠٤. الإسلام والحضارة جـ ٢ ص ١٩٩.

(٢) الطبري مجلد ٣ جـ ١ ص ٣٣٨_ النظم الإسلامية ص ٢٥٦_ محاضرات تاريخ الدولة العباسية ص ١٠٩.

على التفريط في حقوق المسلمين وأمورهم، ويخطره بعزله وتولية من يحل محله. وهذا يعطينا فكرة واضحة عن سهره على عماله ومحاسبتهم على أعمالهم إن خيرا وإن شرا، ولنا عودة في الفصل القادم إلى الحديث عن المنصور وعماله.

وعلى الرغم من عناية الخليفة المنصور بنظام البريد فإن بعض المؤرخين [1] قد يظن خطأ أن ابنه المهدي هو أول من رتب البريد في الإسلام ضاربين صفحاً على مجهودات أبيه ومن سبقه من خلفاء بني أمية وغيرهم. ولعل سبب وقوعهم في هذا الخطأ أن المهدي أمر في سنة ١٦٦ هـ. بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن ولم يقم هنالك بريد قبل ذلك التاريخ. ولم يكتف المهدي بهذا بل نسق نظامه واهتم بطرقه ومنازله وأقام فيها البغال والأبل [2]. ويقال إن المهدي أغزى ابنه هارون الرشيد الروم وأحب أن يكون على علم قريب من خبره، فرتب ما بينه وبين معسكر ابنه بردا كانت تأتيه بأخباره وتريه متجددات أيامه، ولما عادت الحملة قطع المهدي تلك البرد فظلت كذلك حتى نهاية خلافة الهادي [3]. إلا أني لا آخذ بقطع تلك البرد في زقت كانت الدولة أحوج إليها للوقوف على خركات الروم العسكرية على الحدود الشامية. إذ أن الحالة هناك كانت تستلزم الإكثار من العيون لكتابة التقارير إلى الخلفاء وسرعة إيصالها إليهم فالعداء كان مستحكما بين الدولتين العباسية والرومانية مما جعل الرشيد يحتاط لخطرهم فيما بعد بإنشاء إقليم العواصم ومراقبة حركات الروم شماله مراقبة شديدة ورتب لذلك الشواتي والصوائف.

وكما أن البريد قد استخدمه الخلفاء كوسيلة من وسائل استتباب الأمن وقمع الثورات والفتن، وحمل الخارجين والثائرين على دوابه إلى عاصمة الملك، فإنه كذلك استخدم لمصلحة الثوار في الانتقال من مكان إلى مكان والخروج على طاعة الحكام.

---

(١) دائرة معارف البستاني ص ١٨١_ الطائر الغريد ذيل ص ٢١.

(٢) الطبري مجلد ٣ جـ ١ ص ٥١٧_ أبو الفداء جـ ٢ ص ٤٨ طبعة أوروبا_ محاضرات الدولة العباسية ص ١٠٩.

(٣) التعريف ص ١٨٥.

فالرواية في حديثها [١] عن ثورة الحسين المثلث العلوي الثائر على طاعة الخليفة الهادي. تشير إلى أفلات بن عمه أدريس من وقعه الفخ وفراره إلى مصر في طريقه إلى بلاد المغرب. وكان من الميسور القبض عليه وإرساله إلى بغداد لو كان عامل البريد من الطراز الذي رأيناه في عهد المنصور مخلصا لواجبه وفيا لحكومته ولكن عامل مصر وقتذاك كان يدين بمذهب الرافضية، فضحى بمصلحة الدولة في سبيل مبدئه وعقيدته؛ ذلك أنه مهد الطريق لأدريس وأمده بمن يرشده إلى أرض المغرب، وقدم له دواب البريد فحملته إلى طنجة حيث نشر مذهبخ وزع الدولة الأدريسية، فكانت شوكة في ظهر العباسيين وكان من الممكن تجنب قيامها لولا صاحب بريد مصر [٢].

(ب) عصر الرشيد والمأمون: ولما آلت الأمور إلى هارون الرشيد اختار يحيى بن خالد البرمكي مشيراً ووزيراً له، فأشار عليه بأجراء البريد على ما كان عليه أيام أبيه والأمويين. وبين له الفوائد والمزايا التي تجنيها الدولة من العناية بترتيبه، فأمره الرشيج بإقراره. وكان يحيى خير من يضع الأمور في نصابها فصب نظام البريد في قالب جديد وجعل له البغال في المراكز، وكان لا يجهز عليه إلا الرشيد أو صاحب الخبز [٣]. ومما يدل على ما وصل إليه البريج من قوة أيام الرشيد أن رقابته على الولاه في الأقاليم لم يستثن منها أصحاب الجاه والسلطان. فالبرامكة أنفسهم كانت أخبارهم تصل إلى مسامع الشريد عن طريق عمال البريد. من ذلك أن صاحب البريد [٤] بخراسان أنفذ كتابا إلى الرشيد يذكر فيه انشغال الفضل بن يحيى بالصيد واللذات عن النظر في أمور الرعية. فلما قرأه الرشيد غضب ورمى به ليحيى وكلفه بإخطار ابنه بالعدول عن تلك الصغائر والإلتفات إلى أحوال المشرق، فكتب يحيى إلى ابنه على خطاب الرشيد

---

(١) الطبري مجلد ٣ جـ ١ ص ٥٦٠_ أبو الفداء جـ ٢ ص ٥٦_ تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٨٢.

(٢) عامل بريمصر إذ ذاك هو واضح الذي عاقبه الهادي بضرب عنقه_ يقال أيضاً أن الرشيد هو الذي ضربه وولى بريد مصر وأخبارها الشماخ_ المقدسي ص ٢٤٤.

(٣) التعريف ص ١٨٦.

(٤) مروج الذهب جـ ٣ ص ٢٨٤.

يوبخه ويردعه عن هذا. ومثل هذا القول يؤكد ما اتصف به الرشيد من اليقظة والانتباه لكل ما دق وجل من شئون الملك، وأنه من أشد الملوك بحثا عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمرا. ولقد جاء خطاب عمال بريد خراسان مصداقا للحوادث فانصراف الفضل عن شئون المشرق أدى إلى قيام الفتن به واستفحال خطرها، واضطر الرشيد إلى مغادرة بغداد لقمعها وكان بصحبته ولده المأمون. وهناك وافت الرشيد المنية بطوس، وحمل البريد خبر وفاته إلى بغداد حيث بويع ولده الأمين توا بالخلافة بينما قام الأمون بمهام المشرق تنفيذا لوصية أبيه.

وفي هذا العصر ظهرت أهمية البريد في الخلاف الذي استعر أواره بين الأمين والمأمون، وكان لعمال البريد شأن مبي في تطير الأخبار وحبكها ما بين بغداد ومرو وتفنن كل من الأخوين في تلقف وتصيد أخبار الأخر وأسراره متحيرا أنجب الثقاة واذكاهم، وقد سعر هذا الخلاف اعتماد الأمين على الفضل بن الربيع زعيم الحزب العربي واعتماد المأمون على الفضل بن سهل زعيم الحزب العجمي، وكان ماهراً في دبلوماسيته فلما هم الأمين بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد تحت الحاج ومشورة الفضل بن الربيع وزن الفضل بن سهل الموقف بميزان الحكمة ومعايير الرجال، ودس قوماً اختارهم ممن يثق فيهم من القواد والوجوه ببغداد لكاتبوه بالأخبار يوما يوما، وكان الفضل ابن الربيع قد أخذ بالمراصد لئلا تجاوز الكتب الحد. وبالرغم من هذا لك يعجز رسول المأمون عن تخطي تلك الأشواك، فأحتال مرة عليها بإرسال أخباره مع امرأة جاعلا الكتاب وديعة في عود منقور من أعواد الغاب (البوص)، وكتب إلى صاحب البريد بتعجيل الخبر، ومن الغريب إن المرأة مضت على الطرق كالمجتازة من قرية إلى أخرى دون أن تكون موطن الشبهة والظنة من حراس الطرق التابعين للأمين. فلم تفتش ولم يعترض سبيلها أحد حتى خرجت من الحدود. وجاء الخبر إلى المأمون موافقا لسائر ما ورد عليه من الكتب، قد شهد بعضها ببعض، فقال لذي الرياستين «هذه أمور قد كان الذي أخبر عن عينها، ثم هذه طوالع مخبر عن أواخرها، وكفانا أن

نكون مع الحق، ولعل كرها يسوق خيرا [١]».

وقبل أن يكشف الأمين المأمون بالخلاف عليه أرسل في طلب بعض كور خراسان وإن يكون له بها صاحب بريد يكاتبه بأخباره، فأمتنع طبعا المأمون لأن هذا معناه الرقابة الفعلية من صاحب البريد على تصرفات المأمون وأفعاله بالمشرق. ثم كشف الأمين أخاه بالحقيقة المرة عندما عاد البريد من بغداد بخلعه من ولاية العهد، وأجابه المأمون لبإسقاط اسم الأمين من الخطبة وقطع البريد عنه [٢]. واحتاط المأمون للأمر بضرب حصار شديد على الحدود الغربية، فلم يسمح لأي إنسان كائنا من كان بالدخول إلى ولايته دون فحصه واستجوابه خوفاً من أن تتسرب إليها الكتب والدعايات المضرة التي قد تحرض الجمهور على العصيان والتمرد [٣]. وعبارة الطبري [٤] توضح لنا أقصى ما اتخذه المأمون من ضروب الدقة والحذر في مراقبة الحدود بين بغداد والمشرق حيث يقول: «ثم وضع على مراصد الطرق ثقاب من الحراس لا يجوز عليهم إلا من لا يدخل الظنة في أمره ممن أتى بجواز في مخرجه إلى دار مآبه أو تاجر معروف مأمون في نفسه ودينه، ومنع الاشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول في البلدانفي هيئة الطارئة والسابلة وفتشت الكتب».

كان من الجائز أن تسفر تلك الأحتياطات عن نتائج مرضية بين الأخوين، ولكن على النقيض نرى الحوادث تزداد سراعا لسوء تدبير الأمين ونصحائه وصعف القضية العربية، فتتسع دائرة الخلاف وينشب القتال بينهما في وقعة الري الدامية، وكل من الأخوين يترقب عن كثب ورود بريده حاملا خبر انتصاره على أخيه، وكان لبريد المأمون الأسبقية في الفوز والنصر، ذلك أن قائده طاهر بن الحسين كتب إليه

---

(١) الطبري مجلد ٣ جـ ٢ ص ٧٦٤، ٧٩٣.

(٢) تاريخ بن خلدون جـ ٣ ص ٢٣٣.

(٣) السيد أمير علي ص ٢٢١ من الترجمة العربية.

(٤) الطبري مجلد ٣ جـ ٢ ص٧٨٣.

[1] عبارة موجزة تشبه عبارة (يوليوس قيصر) التي بعث بها عقب انتصاره إلى مجلس الشيوخ الروماني قائلا «كتبت إليك ورأس علي بن عيسى قائد الأمين في حجري وخاتمه في يدي وجنوده تحت إمرتي» ويقال أن الرسول قطع تلك المسافة البالغة ٧٥٠ ميلا من الري إلى مرو في ثلاثة أيام، ويفهم من تلك الرواية أن البريد كان همزة الوصل بين الخليفة وكبار قواده في ميادين القتال مهما بعدت المسافة بين الطرفين. كما توضح لنا دقة المأمون وعنايته بتمهيد طرق البريد وتعبيدها وتزويدها بالخيول والرجال لضمان سرعة وصول الأخبار في التو والحال، وأظن أن هذه المسافة التي قطعها الرجل في ثلاثة أيام أمر يستوجب الدهشة والأعجاب لحدوثها في ةقت يجهل القطار ةالسيارة والطائرة ومما يروي عن المأمون أنه قاد حملة إلى بلاد الروم في فصل الصيف وكان الجو حارا فنزل على نهر البردان وشرب مائة، فاستعذبه واستبرده وبلغ من أعجابه واستمتاعه بمائة أن قال [2] لمن معه من كبار حاشيته «ما أطيب ما شرب عليه هذا الماء رطب ازاز» وكان عليهم أن يحققوا رغبة الخليفة ولكن ما السبيل في تحقيقها ورطب ازاز لايوجد إلا بالعراق وهم على أطراف الشام فماذا هم فاعلون... استعانوا بصاحب دبوان البريد في بغداد فدبر لهم الحل، وأسرع في إعداد بغال البريد وحملها رطب ازاز، واجتازت الطريق إلى النهر المذكور حيث ضرب المأمون خيامه، وكانت مفاجأة سارة عندما رأى على مائدته رطب ازاز بجانب البردان، فأكل وشرب حتى شبع وتعجب لبلوغ أمنيته وكان يظنها من المتعذرات المستحيلات لبعد المسافة بين النهر وبغداد؛ وعد هذا العمل تطورا ملموسا لنظام البريج في عهده. وفي خلافة المعتصم قام الزط[3] بثورة عنيفة في إقليم البصره واستفحل خطرهم لدرجة أنهم قطعوا الطرق ونهبوا المارة وأوجست الحكومة خيفة منهم، ولم يتمكن المعتصم من محاصرتهم وإخضاعهم إلا بعد أن رتب البريد بينه وبين عجيف بن عبيسة قائد جيوشه وأستعان

---

(١) الطبري مجلد ٣ جـ ٢ ص ٧٩٣_ السيد أمير علي ص ٢٢١، ٢٢٣ من الترجمة العربية.

(٢) التعريف ص ١٨٦.

(٣) الزط جيل أسود من السند تنسب إليهم الثياب الزطية وقيل هم جنس من السودان والهنود.

بخيول البريد وسككه في إرسال الفرق والمؤن، فرتب الخيل في سكة البرد تركض بالأخبار، فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصل إلى المعتصم من يومه [(١)] فيمده بالرجال والمؤن حتى قويت خطوط دفاعه فطبقت بالزط من كل حد وصوب ونجت البلاد من بلائهم وشرهم.

(ج) عصر الخلفاء المتأخرين: تولى الخلافة بعد المعتصم الخليفة الوائق، وكان شاباً صغيراً مستنيراً أعتبر عصره نهاية البداية للعصر الذهبي في تاريخ الدولة العباسية، وبوفاته تنطوي صفحة العصر العباسي الأول، عصر القوة والعظمة بأجلى معانيها وفي أهم صورها ويبدأ عصر الخلفاء الضعاف أو العصر التركي الأول (٢٣٢_ ٣٣٤ هـ) وكانت السيطرة للجند التركي، وفيه كان يعني بالبريد أحيانا ويهمل شأنه أحياناً أخر حسب شخصية الخليفة وحرصه على الاحتفاظ بسلطته كاملة غير منقوصة.. ومن هؤلاء الذين توفر فيهم هذا الحرص وأشارت إليهم بعض كتب التريخ عن أهمية البريد في عهدهم الخليفة المتوكل على الله أو نيرون العرب كما أسماه البعض [(٢)]. بلغ المتوكل يوما أن رجلا من أهل البصرة وقع عنده سيف من الهند ليس له نظير فتاقت نفسه إلى شراء هذا السيف، فأحضر ميمون بن إبراهيم صاحب ديوان البريد، وأمره بإنفاذ كتب البريد إلى عامل البصرة يكلفه بشراء السيف مهما كان ثمنه، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن؛ فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن في طلب السيف وابتياعه. وسافر البريد بالكتب إلى اليمن وجيء بالسيف إلى بغداد [(٣)]. وهذا دليل على احتفاظ نظام البريد بطابعه وقوته رغم الأحن والمحن التي لحقت بالدولة في ذلك العصر.

---

(١) النظم الإسلامية ص ١٥٦.

(٢) أطلق عليه هذه التسمية الأستاذ السيد أمير على لاستسلامه لشهواته وإغراقه في اللهو ومعاقرة الخمر، ولاتصافه بالقسوة وأسرافه في سفك الدماء.

(٣) مروج الذهب جـ ٤ ص ٧٨ ومن الغريب أن هذا السيف أعطاه المتوكل لباغر التركي ليكون واقفا به على رأسه فاستخدمه باغر في قتل المتوكل نفسه.

ثم تفشت النعرة القومية في الأمبراطورية الإسلامية من أقاصي المغرب إلى أقاصي المشرق أي من الأندلس إلى خراسان... وانتشرت الحركات الاستقلالية المحلية في كل مكان وكانت الغلبة في ذلك العصر العباسي الثالث أو العصر الفارسي الثاني (٣٣٤_ ٤٤٧ هـ) لأسرة فارسية الأصل هي أسرة بني بويه التي استطاعت أن تجعل لنفسها وجوداً سياسياً على حساب الخلافة العباسية. وقد أسبقوا هذا الوجود بموجة قوية من حوادث الإرهاب والاضطراب في بلاد المشرق. نجم عنها اضطراب حبل الأمن وتقطع شرايين البريد وتمزيق طرقه ونسف سككه، وعمل البويهيون أنفسهم على عرقلة نظمه رغبة منهم في إخفاء الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم أحيان قصدهم بغداد، وكان الخليفة لا يزال يأخذ بهم على بغتة [١]. ولما استقرت الأمور للبويهيين بلغ البريد في عهدهم مبلغاً عظيماً من الدقة والسرعة حتى كانت بواكير الفواكه تصل من نواحي فارس وخوزستان إلى قصور السلاطين ببغداد طرية سليمة، وتوقع أشد العقوبات بكل من تواني في أداء واجبه من موظفي البريد. وذكر أن أحد المرتبين قالت له امرأته «قد طبخنا أرزا فتوقف لتأكل منه وتمضي؛ فتوقف بقدر ما أكل، وتأخرت النوبة ذلك المدى، فضرب الطراد (المفتش على عمال البريد) والمرتبون ما بين شيراز إلى بغداد أكثر من ثلاثة آلاف عصا»[٢].

وأخيراً جاء العصر العباسي الرابع أو العصر التركي الثاني (٤٤٧– ٦٥٦ هـ) وهو عصر السلاحقة وأتباعهم المعروفين بالأتابكة. ويغلب على الظن أنهم جميعاً كانوا جادين في إعادة الوحدة الإسلامية إلى العالم العربي وتجديد ما كان للإسلام من عظمة وسطوة أيام الأمويين والعباسيين الأوائل، فحاولوا من ناحيتهم إعادة تنظيم البريد ليربط أجزاء دولتهم مستخدمين في ذلك الخيل والإبل [٣] وحوصوا على أن ترد إليهم أخبار دولتهم بانتظام وكان أشدهم حرصاً في هذه الناحية الخليفة الناصر لدين الله

---

(١) التعريف ص ١٨٧.

(٢) راجع تاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ ص ٢٨٠.

(٣) التعريف ص ١٨٦.

العباسي (٥٥٣_ ٦٣٣) الذي عين أصحاب أخبار له بالعراق وفي الأطراف يطالعونه بجزيئات الأمور وكلياتهم فأصبح لا يخفي عليه أكثر أحوال رعيته، حتى أن أهل الهراق يخاف الرجل منهم أن يتحدث مع امرأته، لما يظن أن ذلك يطلع عليه الخليفة فيعاقب عليه. وعمل شخص دعوه ببغداد. وغسل يده قبل أضيافه فعلم الخليفة بذلك من أصحاب أخباره فكتب في الجواب «سوء أدب من صاحب البلد، وفضول من كاتب المطالعة [(١)]. ولكن سرعان ما بوغتوا بالإغارة الصليبية، فأوقفت تيار الإصلاح وعرقلت عجلة السير، وشغل السلاجقة بصد الصليبيين حتى نكبوا بغارة جديدة أنكى خطراً وأشد مراسا من الصليبيين هي غارة المغول الذين اجتاحوا الدولة العباسية اجتياحاً وانساحوا في قلبها انسياحاً بدخول هولاكو في سنة ٦٥٦ هـ بغداد، وقضائه على الخلافة بقتل الخليفة المستعصم آخر العباسيين. ولسنا في حاجة إلى تسفيه ما قام به التتار من أعمال التخريب والتدمير في العالم الإسلامي، فهذا أمر مفروغ منه ومقطوع بصحته أقره التاريخ في أكثر من موضع، إن كان ابن خلدون [(٢)] يخالفنا في هذا عندما ينظر إلى هجمات الترك والمغول على الممالك الإسلامية نظرة بسيطة وهي «خراب بعض المدن وانتقال الحضارة من كان إلى مكان آخر» على حين أن الأوروبيين يجعلون استيلاء المغول والترك سبباً من أسباب سقوط الحضارة الإسلامية»[(٣)].

فنظام البريد وطرقه وهو أحد عناصر هذه الحضارة لا بد وأن يكون قد ارتبك ارتباكا مرا [(٤)]، وكان ذلك عن قصد من التتار حتى لا تسبقهم أخبارهم إلى الدولة التي لم تسمع بمجيئهم، ولم يكن ذلك ناتجاً عن جهلهم بقيمة نظام البريد وعظمة

---

(١) السلوك جـ ١ قسم ١ ص ٢١٧.

(٢) مقدمة بن خلدون ص ١٢٢.

(٣) تاريخ الحضارة الإسلامية تأليف بارتولد ص ٦١.

(٤) ويشير القلقشندي (جـ ١٤ ص ٣٧٠) بنوع خاص إلى بطلان البريد في سائر الممالك الشامية على أثر وصول نيورليك إلى دمشق في سنة ٨٠٤.

فائدته للحكومات فكتب التاريخ كثيراً ما تشير إلى عناية المغول بهذا النظام منذ ١٢٣٤ م عندما أنشأ له أو جادى إدارة على نمط البريد الصيني [١] كما أنشأ جنكز خان مصلحة نظامية للبريد والسعاة وزاد من استتباب الأمن بالطرق. وحافظ كوبلخان على الخانات الموجودة بالطرق، كما اعتنى بالخيول والسعاة ووزع العربات في أنحاء الأمبراطورية [٢].

أما تيمور لنك الأعرج فاستعان على تعرف أخبار مملكته الواسعة الأطراف برسل البريد التي ترد عليه بكثرة من مختلف المدن ومن القواد والأمراء. فمما يروى عنه أثناء غزواته للهند أنه كان دائم الاتاصل بعاصمته سمر قند ورجاله بواسطة البرد التي تسير ذهاباً واياباً بينه وبين العاصمة، والتي كانت تقطع المفاوز والسبل القائمة بين الهند وسمر قند في شيء من اليسر بسرعة لتبشر الناس بانتصارات تيمور على أعدائه الهنود، وأنه غلب ملك دلهي وقتل من رجاله مائة ألف نسمة [٣].

ونشير في هذا الفصل الخاص بطرق البريد إلى اهتمام تيمور لنك بها.

لعلك أدركت في هذا الفصل أثر كل من التراثين الروماني والفارسي في الدولة الإسلامية، وأن الأول كان أكثر وضوحاً في العصر الأموي بينما كان الثاني أكثر غلبهة في العصر العباسي. ولعلك أدركت أيضاً التطورات الجديدة التي أضافتها العقلية العربية على نظام البريد؛ حتى يصح لنا أن نقول أن هذا الفصل أشبه ببوتقة صهرت فيها خلاصة عناصر نظام البريد لدى العقليات الثلاث الرومية والفارسية والعربية، والآن ينتقل بنا الحديث إلى ديوان البريد وعماله ودوابه.

(١) Cambridge med. Hist. V. IV P. 629.

(٢) تيمورلنك من ١٠٥_ ١٠٩ الترجمة العربية.

الفصل الثالث

ديوان البريد وعماله

كان للبريد في الدولة الإسلامية إدارة مستقلة ب كما هو الحال عندنا اليوم تعرف بـ «ديوان البريد»[1] أخذ العرب نظامها عن الرومان الذين خصصوا لها إدارة تحت اسم **CursusPublicus** على أن هذه الإدارة قد أدخل عليها عدة تحسينات فارسية في عهد هارون الرشيد، يرجع الفضل في إدخالها إلى وزيره يحيى البرمكي [2]. ويظهر أن هذه الإدارة البريديةالمستقلة لم تأخذ مكانتها وأهميتها بين الدواوين الحكومية الأخرى ولم تصل إلى حد الكمال والاتقان في الدولة الإسلامية إلا أيام العباسيين لأن سلطتهم كانت من النوع الأتوقراطي المركز في بغداد، والذي يتطلب مباشرة الخليفة لكل كبيرة وصغيرة في أمبراطوريته.

(١) صاحب البريد: هو ذلك الرجل الذي يشرف على إدارة ديوان البريد والذي أختصه المؤرخون بهذا اللقب وهو من حيث الشخصية والاختصاصات لا يقل عن زميله «مدير مصلحة البريد» في عصرنا الحاضر بل هو يزيد قطعا من حيث النفوذ والسلطان يتولى تنفيذ ما يصدر من الخليفة إلى عماله بالأقاليم، ويتلقى ما يرد منهم إلى دار الخلافة ويعرض خلاصته على الخليفة ثم يراقب العمال والموظفين التابعيم لديوان البريد، سواء منهم من في بغداد أو في الولايات، وقد أورد هذه الاختصاصات قدامه بن جعفر في قوله «يحتاج البريد إلى ديوان يكون مفرداً به ويكون الكتب المنفذه من جميع النواحي مقصوداً بها صاحبه، ليكون هو المنفذ لكل شيء منها إلى الموضع المرسوم

---

(١) يقول الأستذ بارتولد إن كلمة ديوان تدل على معنى **Chancellerie** وقد أخذت من اللغة الفارسية_ تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٥.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣٥_ **Cambridge med.Hst. Vol. 4 P 283.**

بالنفوذ إليه ويتولى عرض كتب أصحاب البريد والأخبار في جميع النواحي على الخليفة أو عمل جوامع لها، ويكون إليه النظر في أمر الفروانفيين، والموقعين، والمرتبين في السكك وتنجز أرزاقهم وتقلد أصحاب الخرائط في سائر الأمصار»[1].

وبالرغم من أن الهير شبرنجر **Sprenger** قد أورد هذا النص في كتابه «البريد وطرق السياحة في الشرق» إلا أنه قد أنكر إنكاراً تاماً وجود نظام للبريد الإسلامي بالمعنى الذي نفهمه، واكتفى بالقول إن هذا البريد لا يخرج في صورته عما هو جار في عصره الذي كتب فيه كتابه، أي حوالي منتصف القرن التاسع عشر في بلاد الهند وفي الأمبراطورية العثمانية. والصورة التي نقلها عما يجري في هذه البقاع صورة قائمة وأخرى بها ألا تسمى بريدا، بل هي مجرد الطريقة الساذجة البسيطة التي اتبعت في كل عصر ومكان لنقل خطاب من مكان إلى مكان في غير نظام ثابت، وبدون الأستعانة بأشخاص مخصوصين أو التقيد بمواعيد معينه.

وما علينا إلا أن نقدم الدليل من النصوص والوثائق على أن البريد لم يكن لهذه الصورة المزرية. التي صورها شبرنجر، وإنما كان على درجة رفيعة من النظام يبلغها في أي عهد من العهود الرومانية أو الفارسية. وحسبنا أن نشير إلى ما أورده شبرنجر نفسه نقلا عن قدامه كما ورد في النص السابق، وكما ورد في المرسوم الصادر بتعيين صاحب البريد «وأمره أن يعرض المرتبين لحمل الخرائط في عمله، ويكتب بعدتهم وأسمائهم ومبالغ أرزاقهم وعدد السكك في جميع عمله وأميالها ومواضعها ويوعز إلى هؤلاء بتعجيل الخرائط المنفذه على أيديهم، والموقعين في إثبات المواقيت وضبطها حتى لا يتأخر أحد منهم عن الأوقات التي سبيله أن يرد السكة فيها [2]» فالمرسوم نص على وجود أشخاص مسئولين أمام صاحب البريد، عليهم أن يؤدوا أعمالهم في المواقيت المقررة وفي السكك الموضحة بسجلاتهم، وعليهم أن يدونوا مواعيد قيامهم،

---

(١)ابن خرداذبة ص ١٨٤_ **Sprenger P. 5** تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٧٩.

(٢) **Sprenger P. 5**.

ومواعيد وصولهم شأنهم في ذلك شأن سعاة البريد اليوم، والمرسوم يرفع من قدر نظام البريد في العصور الإسلامية ويبين الدقة التي وصل إليها في ظل الخلافة العباسية، كما يوضح خطورة منصب صاحب البريد وعماله في نقل الأخبار وهي من جملة الأمانات الداخلة في عموم قوله تعالى «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها [1]».

ولم يكن منصب صاحب البريد من المناصب الميسورة المنال لأي إنسان في الدولة إذ كان لا بد من توافر صفات معينة لمن يتولى هذا المنصب، تخلق في مجموعها رجلاً فريداً في أمانته وإخلاصه وتحري الصدق في أخباره، لأن مهمته ليست قاصرة على تصدير الرسائل إلى الجهات المطلوب إرسالها إليها وتسليم الوارد منها..ز وإنما تتناول أيضاً الإشراف على جميع السلطات المختلفة في أنحاء الدولة، لذلك يتعين أن يكون لصاحب البريد في كل مدينة نائب أو وكيل أو مندوب يبعث إليه بالتقارير عما يجرى حوله، وعليه هو أن يعرضها بالتالي على الخليفة إما موجزة وملخصة أو يعرضها بنصها على حسب الأحوال. ولم يكن هناك وسيط بين صاحب البريد الذي يختار للقيام بهذه الوظيفة وبين الخليفة الذي كان يضع فيه ثقة كبيرة حتى كان يتمتع أحياناً بلقب الوزير [2].

وابن خرداذبه جمع جوهر هذه الصفات في العبارة التالية نقلا عن قدامه في وصفه لصاحب ديوان البريد «أن يكون ثقة إما في نفسه، أو عند الخليفة القائم بالأمر في وقته، لأن هذا الدسوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافي المتصفح، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ»[3].

على أن المراد بالبريد وصاحبه في الدولة الإسلامية غير ما يراد به الأن، إذ كان الغرض منه في أول وضعه سرعان إيصال الأخبار بين الخليفة وعمله، ثم توسعوا فيه

---

(١) سورة النساء.

(٢) مقدمة **Sprenger**.

(٣) ابن خرداذبة ص ١٨٤_ تاريخ الإسلام السياسي ص ٢٧٨ جـ ٣.

حتى جعلوه عينا للخليفة على عماله وسائر رجال بطانته، فقد كان صاحب البريد أشبه برئيس البوليس السري أو أشبه برئيس القلم المخصوص بوزارة الداخلية في وقتنا الحاضر أو هو عبارة عن جاسوس الخليفة أو عينه الباصرة وأنه السامعة ينقل إليه أخبار عماله أو مساعي أعدائه، وقد شبهه البعض برئيس قلم المخابرات في وزارة الدفاع (١). ويمكن أن يحمل صاحب هذا المنصب في عهد الخلفاء المستبدين على انتهاج الجاسوسية الخبيثة ولربما كان في بعض الأحيان مصدر خطر على الأمراء أنفسهم (٢)، وكان ينو العباس أكثر خلفاء المسلمين عناية في هذا الشأن حتى نسب إلى بعضهم مباشرة ذلك بنفسه للاطلاع على أحوال ولاته ونوابه ورعيته، وربما تطلعوا به على أحوال العوام وآحاد الناس حتى يقال أن بعضهم رتب ذلك جهازا، فعين مع وزيره صاحب خبر من الثقات ينهي إليه ما يجري في مجلسه فلا يحسن الوزير لأحد، ولا يجتمع به أحد من الناس إلا بحضور ذلك الشخص، وكذلك مع القاضي والنائب وجميع ولاة الأعمال (٣).

وكثيراً ما كان الخلفاء يجعلون بينهم وبين صاحب بريدهم علامة يتفقون عليها سرا، فلا يعتمد أحدهم كتاب صاحب بريده إلا إذا كانت فيه تلك العلامة ولو كان الكتاب بخط صاحب البريد نفسه وخاتمة،إذ قد يفعل ذلك بالرغم عنه كما حدث لأبي مسلم الخراساني يوم أن دعاه المنصور إليه من خراسان إلى بغداد، وخاف أبو مسلم عاقبة تلك الدعوة فاستخلف أبا نصر مالك بن الهيثم على عسكره وقال له «أقم حتى يأتيك كتابي فإن أتاك مختوماً بنصف خاتم فأنا ختمته، وإن أتاك بالخاتم كله فلم أختمه» فلما جاء أبو مسلم إلى المنصور في المدائن وحدث ما كان من قتله كتب المنصور إلى أبي نصر على لسنا أبي مسلم يأمره بحمل ما خلف عنده وأن يقدم، وختم

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٨٠.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٦١٠.

(٣) تاريخ التمدن جـ ١ ص ١٨٠.

الكتاب بخاتم أبي مسلم فلما رأى أبو نصر الخاتم تاماً علم أن أبا مسلم لم يكتب [١].

وذهبت عناية الخلفاء بالبريد إلى حد إنشاء قوة كبيرة من البوليس السري [٢] ونظام كامل للجاسوسية سارت فيما بعد من الزم الصفات للأداة الحكومية. وتحقيقاً لهذا الغرض يقول الأستاذ توماس [٣] أرنولد أن المصلحة استخدمت إلى جانب عمالها الرسميين أشخاصاً من كل طبقة من طبقات المجتمع من تجار وباعة خردة (باعة متجولين) وحكماء ورقيقات مهمتهم، التجسس على أحوال العمال والرعية في أنحاء المملكة، ويكتبون تقاريرهم عن ذلك ويقدمونها للبلاط الخليفي، ويؤكد هذا القول الهير شبرنجر في مقدمته [٤] في حديثه عن الخليفة المأمون الذي كثيراً ما لاقة الصعوبات في سماع الأخبار والإشاعات التي تروج في بغداد. فاستمع إلى تقارير ترفع إليه يتضمن بعضها أقوال بعض نساء بغداد العجائز اللاتي ينتقلن من بيت إلى آخر فينقلن إليه ما يدور في المدينة من أقوال وإشاعات وما يتداول بين السكان من حكايات وأقاصيص.. وهذا يذكرنا بالخليفة الحاكم الفاطمي الذي استخدم النساء كجواسيس ليتسللن في المنازل ويراقبن تنفيذ أوامر الحاكم الخارقة للعادة، كتحريم بعض المأكولات وليباشرن التعاليم التي وضعها المذهب الفاطمي ودى احترام الناس لها.

(٢) موظفوا البريد: ينقسم هؤلاء إلى ثلاثة عينات ورد ذكرهم في الفرارين السابقين بتعيين صاحب البريد واختصاصاته، وثلاثتهم يلون صاحب البريد من حيث المرتبة والأهمية، وقد اختصهم مشاهير المؤرخين بالذكر والإيضاح.

أولهم المرتبون وهم خاصون بحمل الرسائل في حقائب خاصة من مركز إلى آخر،

---

(١) الطبري مجموعة ٢ جـ ١ ص ١١٧_ تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٨٢.

(٢) وقد عهد إلى صاحب البريد بإدارة مدارس البوليس وديوان التفتيش في الدولة علاوة على رئاسته للبوليس السري **Lammens P. 408**.

(٣)**Cambridge med.Hst. Vol. 4 P 283**

(٤) مقدمة **Sprenger**.

وصفهم شبرنجر بقوله [١]«وهناك أشخاص يسكنون في عشش ويعتنون بالحيوانات، وهؤلاء الأشخاص كانوا يسمون (مرتبون) ولكن أطلق عليهم كلمة (المقيمون) **Angestellt**، على أن هذه الكلمة لا تعبر تعبيراً دقيقاً عن الكلمة الأصلية، ولذلك فقد يكون من الأفضل ترجمتها بكلمة (القائمون) **Aufgestellt** ويكون معناها الأشخاص الحاضرون لتلقي الرسائل وإرسالها».

أما القائمون فإن طبيعة عملهم تظهر لنا مقدار ما كان عليه نظام البريد من دقة تشبه أن تكون دقة العصر الحديث، ففي الأماكن التي يوجد بها مقر لواحد من رجال الإدارة يوجد كذلك موقع معمته الأشراف على محطات البريد في منطقته، وكان عليه أن يحدد بالضبط ويسجل الوقت الذي وصل إلى يده الخطاب المنفذ والوقت الذي ينبغي فيه أن يصل إلى يد زميله في المحطة التالية ([٢]). والمعروف عندنا اليوم أن السكك الحديدية والطيران وكل وسائل المواصلات يعطي فيها للسائق كتبا أو مذكرة يطلق عليها اسم «المانفستو» تعينفيه ساعة القيام ويكتب به ساعة الوصول لتبين مدى تأخر السائق عن الوصول إلى غايته، هذا النظام الدقيق المحكم هو الذي نراه مسجلا في هذا المرسوم الذي يطلب من الموقعين أن يثبتوا المواقيت ويضبطونها حتى لا يتأخر السعاة،وإثبات هذا لا يكون إلا بالكتابة.. ومراقبة العملية لا يكون إلا بالكتابة كذلك... وإذن فقد كانت هناك دفاتر خاصة.. ومراقبة دقيقة بسرعة البريد، وأوقات محدودة للوصول من محطة إلى محطة.. وعقوبات على التباطؤ وكان هناك إشراف على ذلك كله من إدارة البريد العليا، وغنى عن البيان أن ذلك لا يتم إلا بعدد من المفتشين وهم جماعة.

الفروانقيون [٣] وكان لكل خط من خطوط البريد فروانق لملاحظة سير السعاة والخيالة وحالة المحطات وهم أشبه بالمفتشين، وعلى جميع هؤلاء الفروانقيين أن يقدموا

---

(١) مقدمة **Sprenger .P. 2**.

(٢)مقدمة **Sprenger .P. 3**.

(٣) فرونق كلمة محرفة عن برونك الفارسية ومعناها منذر أو دليل_ الطائر الغريد ذيل ص ٢١.

تقاريرهم عن كل ما يحدث في الخطوط إلى عموم الإدارة في بغداد التي يظن أنها كانت محل إقامتهم، كما كان عليهم أن يصدروا الرسائل إلى الولايات ويجمعوا تقارير النواب (الوكلاء) الموزعين على أنحاء الدولة لمراقبتها، وتنظيمها وإرسالها إلى ديوان البريد، وعمدما يريد أحد الموقعين أن يقدم تقريراً يجب عليه أولاً أن يعرضه على أحد الفروانقيين [١]. ويعتقد شبرنجر أن للموقعين السلطة المطلقة في إرسال رسائلهم بطريقة مباشرة إذا ما حدثت قلاقل في منطقتهم وبصفة خاصة إذا كانوا على الحدود، الأمر الذي يستدعى التعجيل بإرسال رسائلهم، ففي هذه الحال كانت ترسل بغير واسط [٢] وصاحب ديوان البريد يعرض ملخص ما يهم من ذلك على الخليفة نفسه الذي يهتم بالبحث عن أحوال البريد وعماله، ويصدر أوامره بتعيين الرؤساء ورواتبهم. وصار للبريد لائحة عمومية تحتوي على قوانين البريد وسيره وجغرافيه الطرق وبيان أسفاره.

(٣) عمال البريد في الولايات: تقضي لائحة البريد ببغداد أن يكون لصاحبه حق تعيين عامل بريد في كل ولاية من ولايات الأمبراطورية، ولهذا العامل عمال آخرون. مرءوسون له ويقومون بتنفيذ سياسته وتصريف شئون البريد في ولايته، ومهمة عامل بريد الولاية علاوة على هذا الأشراف موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة في ولايته، وما يدور فيها من خير أو شر. وله حق التجسس على جميع الموظفين فيها.. وجاء في عهد بولاية بريد ما يحدد واجبات صاحب البريد بها إذ عليه «أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجري عليه أمرهم، ويتتبع ذلك تتبعاً شافيا، ويستشفيه إستشفافاً بليغاً. وينهيه على حقه وصدقه، وأن يعرف حال عمارة البلاد وما هي عليه من الكمال والاختلال، وما يجري في أمور الرعية فيما يعاملون به من الإنصاف والجوز والرق والعسف فيكتبه مشروحا. إلخ [٣]» وهذا العهد شبيه بقرار تعيين

---

(١) مقدمة Sprenger .P. 4. التراتيب الإدارية جـ ١ ص ١٩٣_ الطائر الغريد ديل ص ٢١.

(٢) مقدمة Sprenger .P. 4.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ١ ص ١٢٩.

صاحب البريد في الديوان العام في بغداد بل يكاد يكون صورة منه لاعتبار صاحب بريد الولاية ممثلا لرئيسه العام في بغداد. لذلك جاءت حقوقه وواجباته مصوغة في قالب واسع السلطات، تشبه في بعض وجوهها سلطة مدير المديرية في وقتنا الحالي ويظهر أن الحكومة العليا اتخذته وكيلا لها في كتابة التقارير السرية عن أحوال الولاية وإدارتها وحالة الفلاحين ومواردهم وتصرف السلطات المحلية معهم، ودار ضرب النقود، ومبلغ ما يسك فيها من الذهب والفضة. ومما لا شك فيه أنه ليس من حق عامل بريد الولاية الزام أحد موظفيها على تنفيذ عمل من الأعمال فهذا من حق المشرف.

وقد حدد الماوردي [1] الفرق بين اختصاصات كل من المشرف وصاحب البريد في الولاية بقوله: «وحكم المشرف يخالف حكم صاحب البريد من ثلاثة أوجه_ أحدها أنه ليس للعامل أن ينفرد بالعمل دون المشرف وله أن ينفرد به دون صاحب البريد، والثاني أن للمشرف منع العامل مما أفسد فيه وليس ذلك لصاحب البريد؛ والثالث أن المشرف لا يلزمه الأخبار بما فعله العامل من صحيح وفاسد لأن خبر المشرف إستعداء وخبر صاحب البريد إنهاء، والفرق بين خبر الإنهاء وخبر الإستعداء من وجهين_ أحدهما أن خبر الإنهاء يشتمل على الفاسد والصحيح، وخبر الإستعداء مختص بما لم يرجع عنه دون ما رجع عنه، وإذا انكر العامل إستعداء المشرف أو إنهاء صاحب البريد لم يكن قول واحد منهما مقبولا عليه حتى يبرهن عنه، فإن اجتمعا على الإنهاء والإستعداء صارا شاهدين عليه فيقبل قولهما عليه إذا كانا مأمونين». فكان الماوردي جعل منزلة صاحب البريد منزله السمع والبصر، فهو منوط بحمل صورة واقعية وطبق الأصل لما عليه حال الولاية من صلاح وفساد وعمار وخراب، وهي أمور ينبني على الأخلال بروايتها اختلال التوازن بين الحكومة العليا وفروعها.

وقد ساعد عمال البريد الخليفة المنصور في إحكام الرابطة بينه وبين رعيته، فبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاة وعلى ما يصدره القضاء من الأحكام، وما

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٢٠٢.

يرد بين المال من الأموال، كما كانوا بوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وآدم ومأكولات وغيرها، وبلغ من انتظام البريد في عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين في كل يوم، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار، وإذا صلوا الصبح كتبوا إليه بما جرى في الليل من أمور، وبهذا وقف المنصور على كل ما يحدث في الولاية الإسلامية. ولهذا كان شديد الإتصال بولاته فيوقف القاضي عند حده إذا ظلم، ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، وإن رأى تقصيراً من أحدهم وبخه ولامه أو عزله من عمله مهانا [1]. وعلى عامل البريد أن ينفذ أوامر الخليفة ليلاً أو نهاراً مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة فمما يروي... عن مُحَمَّد الأمين أنه أراد إستدعاء أحمد بن مزيد إلى حضرته، فيكلف عامل البريد بذلك فقام ليلا وأخذ يبحث عنه في القرى والمزارع حتى ألقاه وأحضره لساعته، وكان أحمد بن مزيد يرغب في المبيت حتى الصباح ولكن عامل البريد أصر على الرحيل ليلاً قائلا: «إن أمير المؤمنين أمرني أن أشخصك أي ساعة صادفتك فيها من ليل أو نهار[2]».

ولم يكن صاحب البريد يعني فقط بالأخبار التي تتعلق بمهام سياسة الدولة بل كان عليه أن يبلغ كل ما عدا ذلك من النوادر الطريفة والأخبار الممتعة، فقد حدث في سنة ٢٠٠ هـ، ٩١٢ م أن ورد كتاب صاحب البريد من بلدة الدينور يذكر فيه أن الموكل بخبر التطواف رفع إليه أن بغلة الرجل وضعت فلوة ويصف اجتماع الناس لذلك وتعجبهم لما علينوا منه ويقول «فوجهت من احضر لي البغلة والفلوة فوجدت البغلة كمتاء حلوقيه، والفلوة سوية الخلق، تامة الأعضاء، مسدلة الذنب، سبحان الملك القدوس لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب [3]»، والخبر يدل على دقة عمال البريد في تطير الأخبار ووفائهم للخلفاء في تلمس الحقائق، لكونهم عقد

---

(١) الطبري مجلد ٣ جـ ١ ص ٤٣٤_ محاضرات في الدولة العباسية ص ١١٠_ النظم الإسلامية ص ٢٥٦.

(٢) الطبري مجلد ٣ جـ ١ ص ٤٣٤_ النظم الإسلامية ص ٢٥٦.

(٣) صلة تاريخ الطبري ص ٢١_ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ١٩٢.

الأتصال بين الخلفاء وعمالهم، فإذا تكدرت العلائق بين الوالي والخليفة وأراد الأول التمرد والعصيان يقطع حلقة الأتصال وهو البريد عن الخليفة، وجب على عامل البريد وفاء لواجبه أن يحتاط الأمر قبل حدوثه، وهذا ما جعل الخلفاء يتحرون الدقة في اختيار عمال البريد، وفي الرسالة التي [1] كتبها أبو يوسف القاضي للرشيد في الخراج نموذج من هذه العناية ومما جاء فيها «بلغني عن ولاتك على البريد والأخبار في النواحي تخليط كبير ومحاباه فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاة والرعية، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية، وستروا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس وربما كتبوا في الولاة والعمال مما لم يفعلوا إذا يرضوهم وهذا مما ينبغي أن تتفقده، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار» فبمثل هذا اللسان يتلطف أبو يوسف وينصح لخليفته في اختيار عمال البريد والأمناء على الأخبار، إذ من المنطق السليم إلا يقبل خبر إلا من ثقة عدل.

وبالرغم من السلطة التي أعطاها الخلفاء لعمال البريد إلا أنهم لم يعطوهم الفرصة لاستغلال نفوذهم في الإثراء على حساب الغير بل كانوا يحاسبونهم حسابا عسيرا، ويتلمسون الدقةفي أخبارهم. حتى كان الخلفاء أحياناً يشكون في صحة أخبار عامل البريد ولا يعملون بقوله. وتذكر الرواية العربية أن صاحب بريد همدان بخراسان كتب مرة إلى المأمون يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطئا على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما فرد عليه المأمون بقوله «إنا نرى قبول السعاية شرا من السعاية، فإن السعاية دلالة والقبول إجازة وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه، فأنف الساعي عنك فلئن كان في سعايته صادقا، لقد كان في صدقه لئيما، إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه ...» [2] وإني أخذ على المأمون هذا القول إذا المفروض أن عامل البريد يكتب بما عنده إن خيراً وإن شراً وعلى الخليفة أن يقرأ أحدهما بما يقتضيه قرائن الأحوال

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ص ٢١٥_ الإدارة الإسلامية في عز العرب ص ١٤٠.

(٢) الإسلام والحضارة العربية ص ٢٣٢.

وشواهد الأمور؛ ولكن المأمون نظرا لإغراقه في كتب الفلسفة والنظريات يرد رداً لا يتفق ومنطق السياسة والحكم. فمثل هذا الرد من جانب الخليفة قد يحمل عامل البريد على إخفاء حقيقة الحال في الولاية ويتستر على عمال الخليفة بها مكتفيا بإرسال ما لا يستطيع إخفائه وفي هذا ضرر كبير بالصالح العام [1] وآية ذلك ما حدث للمأمون نفسه لما عزم على نقل الخلافة إلى الطالبيين وبايع وهو بمرو علي بن موسى الرضا فشق ذلك على بني العباس واضطربوا ونصبوا أبراهيم المهدي وبايعوه، وحاربوا الحسن بن سهل والي المأمون وكسروه، والأخبار منطوية عن المأمون بسب تمكن وزيره الفضل بن سهل من الأمور. فتحيلت زوجة المأمون في أن بعثت له خلعا من خزووش وكتبت ما أرادت على بطائنها، وجعلت فوق البطائن بطائن بالية قذرة، فلما عرضت على الفضل بن سهل أمر بحملها إلى المأمون دون النظر فيها، فلما أراد المأمون لبسها نظر في رداءة بطائنها فنزعها ورأى الكتابة على البطائن الأصلية فعظم ذلك عليه وعلم انطواء الأخبار عنه فأخرج البريد عن تعلق الوزير وتنكر ذلك من الفضل بن سهل فاعتذر بقوله «أردت أن أكفيك هذا الأمر ثم أعلمك به [2]» فلم يقبل المأمون عذره ورحل إلى العراق من وقته، ومهما كان الأمر فإن يقظة الخليفة المأمون على عمال البريد جعلتهم يخشون بأسه إن هم حاولوا قطع الأخبار عنه، لذلك نراهم يحرصون على إحاطته علما بالخارجين على طاعته. فطاهر ابن الحسين ولي أمر المشرق في عهد المأمون ولكن حدثته نفسه بالخروج على طاعة الخليفة

---

(١) وقد ظهر في العصر العباسي عائلة يقال لها عائلة البريدي ينطبق عليها قولنا إذا كان لها من النفوذ ما مكناها من أن تلعب بعض الأدوار السياسية الهامة، وكان كبيرها مديرا للبريد في البصرة _ تاريخ البريد في مصر ص ٣٨_ ويقول عنه الأستاذ السيد أمير علي (الترجمة العربية ص ٢٥٩) في حوادث عام ٣٢٩ هـ أن زعيما تركيا اسمه البريدي استولى على بغداد ففر بن رائق بصحبة الخليفة المتقى بالله إلى الموصل حيث كان حيفدا الأمير حمدان أميرا الموصل وتكريت يصدان غارات الروم بقدر ما تسمح به مواردها الخاصة فاغتالا ابن رائق لكي يخلو لهما الجو، وما هي إلا برهة حتى لقبخا الخليفة بناصر الدولة وسيف الدولة وعاد معهما إلى بغداد حيث اجلساه على عرشه ثانية.

(٢) آثار الأول في ترتيب الدول ص٦٦.

وظهرت بوادر هذا الخروج في السنة السابعة من ولايته لما خطب يوما على منبر خراسان وأمسك عن الدعاء للمأمون فعاتبه صاحب البريد هناك. واعتذر له طاهر بأنه سهو وقع منه ورجاه ألا يكتب إلى المأمون بذلك ثم تكرر ذلك ثلاث مرات وطاهر يتقدم إليه ألا يكتب فقال له صاحب البريد «إن كتب التجار لا تنقطع من بغداد وإن اتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين من غيرنا لم آمن أن يكون سبب زوال نعمتي [١]» ثم طتب صاحب البريد إلى المأمون بخلع طاهر بن الحسين وكان يخشى أن يسبقه خبر التجار خصوصاً وأن الخلفاء كما هو الشأن في الحكومات العصرية كانوا يتذرعون بأشخاص لا ضبغة رسمية لهم لاستخدامهم في تلك المهام على نحو ما قدمنا شرحه، وكانوا ينتخبون عادة من طبقة التجار والباعة المتجولين فيوافونهم بالتقارير الوافية عما يقع من الحوادث وقد يخفيها عمال البريد عن الخلفاء. فلما وصل الخبر إلى المأمون أمر باستحضار طاهر ابن الحسين الذي وافته المنية قبل أن يصله رسول المأمون.

(٤) علامة عمال البريد: جرت التقاليد والعرف من أقدم العصور أن يكون لعمال البريد زي خاص بهم، أو علامة خاصة يحملونها معهم ليشير إلى طبيعة عملهم، ولتميزهم عن سائر موظفي الحكومة ولا تزال مصلحة البريد المصرية إلى اليوم تراعي هذه التقاليد وتحترمها بل وتقدسها، فتخص سعاتها بزي أصفر اللون، وفي العصور القديمة كانت الأمة الرومانية من أحرص الأمم على احترام هذا العرف كما سبق الإشارة إليه في الفصل الأول، كذلك كان الحال أيام خلفاء المسلمين إذ كانت علامة رسل البريد [٢] في عهد العباسيين قطعة من الفضة بقدر الكف يعلقها العامل على كتفه، وقد كتب على إحدى صفحتها البسملة واسم الخليفة وعلى الصفحة الأخرى «إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا» وفي مصر بنوع خاص كان لعمال بريد المماليك علامة خاصة سنشير إليها في الفصل الخامس.

---

(١) تاريخ بن خلدون جـ ٣ ص ٢٥١ تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٨٠.

(٢) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ٦٣_ الطائر الغريد ص ٩٤.

أما رسول تيمورلنك فكان يعرفه السكان من شكله وهيأته عند دخوله من أحد أبواب مدينة سمر قند، إذ يجري خلفه الأطفال فرحين بقدومه ولا يزال كذلك ينتقل من شارعٍ إلى آخر حتى يصل إلى نائب تيمور حيث ينتظره الذين يقع عليهم أمر نشر أخبار تيمور وفتوحاته بين الشعب [١]. ويتميز الرسول في الهملايا بعصاة طولها قدمين تقريباً يحملها في يده مشبوكا بها الخطاب ومعلقا بها راية صغيرة [٢] واكتفت مصلحة البريد الإسلامية بالأعلان على أبواب المساجد أو المحلات العمومية مناداة بواسطة أحد الرجال عن مواعيد سفر عمال البريد إلى الولايات، ويظهر أنهم كانوا يخرجون على هيئة صفوف منسقة تنسيقاً يشبه أصطفاف الجنود في ميادين القتال، فيعطون منظرا جميلا يأخذ بالألباب وكذلك كان الحال عند عودته إلى العاصمة، ولا أدل على ذلك من أن أحد الخلفاء كان يلذ له أن يرى هذا العرض بنفسه فيأمر بأن يكون مرور البريد عن طريق قصره الخاص، ثم يهرع إلى شرفته عند مرور كل بريد ليتفرج عليه، وإذا خفض حاملوا البريد صوتهم المعتاد إبداؤه إعلانا بوصول البريد أو مروره تلطفا أو احتراما للخليفة ينذرهم بالعقاب حتى قال لهم ذات مره «إن خفضتم صوتكم مرة أخرى خفضت راتبكم» ويقول متفاخرا «أن صوت بشرى البريد لاذني ألذ من الكرى لعيني [٣]».

(٥) بريد الرحالة: وقد أطلق هذه التسميةابن بطوطه في حديث عن البريد ببلاد الهند، وقصد بها جماعة السعاة وهم رجال خفاف الحركة عرفوا عند العرب بقوم يأجوج ومأجوج، يفتكون بالعدو ولا يخشون بأسا ولادركا حتى في الأراضي الوعرة, وقد وصفهم بعض الرحالين بكونهم ذو خفة عجيبة ومناظر غريبة ولا سيما عند خروجهم من المدينة وتفرقهم خارج بابها إلى الجهات التي يقصدون إيصال المراسلات

---

(١) تيمورلنك_ الترجمة العربية ص ١٠٦.

(٢)مقدمة **Sprenger .P. 3**.

(٣) الطائر الغريد ص ٢٣.

إليها فأنهم يظهرون للناظر عن بعد كأنهم قطيع من الجداء ذهبت للرعي [١] ويرجع تاريخ استخدام السعاة في نقل الرسائل بالدولة الإسلامية إلى أيام بني بويه، وكانت أول نشأتهم في بغداد على يد معز الدولة الذي أراد أن يخطر أخاه ركن الدولة سريعا فأعطاهم الجرايات الكثيرة، واتخذهم من الذين ينبغون في الجري نبوغا استثنائيا، وقد تهافت شبان بغداد على هذه الحرفة الجديدة وأقبل فقراء الناس على تسليم أبنائهم للسلطان معز الدولة لتدريبهم على ذلك [٢] وقد أمتاز من هؤلاء السعاة اثنان قطع كل منهما ما يزيد على الأربعين فرسخا (حوالي ١٨٠ كيلو مترا) من مشرق الشمس إلى مغربها وكانا أثيرين عند عامة الناس وقد أورد المؤرخون ذكرهما، وهما فضل ساعي السنة ومرعوش ساعي الشيعة [٣]. ونال هذه الشهرة في مصر أحد سعاه الملك الناصر مُحَّد وأسمه الأقوش الذي لا يبعث إلا في مهم، أمره ذات مرة بحمل خبر من مصر إلى جانب حلب فجد في السير وأسرع حتى أقطع السماغة بينهما في خمس وهي مسيرة شهر [٤].

وتحدث ابن بطوطه عن ترتيب هذا النوع من البريد بأن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة، ويكون بخارجها ثلاث قباب، يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة، قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم قرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل نحاس، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى، فخرج يشتد بمنتهى جهده، فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له، فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده، ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى وصل إلى المحطة التالية. ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث

(١) المرجع السابق ص ٤٩.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٨١.

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٢٥_ دائة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ١١٠_ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ج ١ ص ٢٥٦_ تاريخ التمدن الإسلامي ج ١ ص ١٨٣.

(٤) ابن بطوطه ج ٢ ص ٦٠.

يراد منه.. وهذا البريد أسرع من بريد الخيل، وربما حملوا عليه الفواكه المستطرفة بالهند وخراسان، يجعلونها في الأطباق ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان أو الحاكم أو من يقوم مقامه [1].

ومن أشهر السعاة عدوا الصينيين فإن الواحد منهم قادر على الإستمرار في السير جملة ساعات وهو حامل قدرا عظيماً من المراسلات بلا كلل ولا ملل، ويحكى أنه بينما كان أحدهم حاملا رسائل مهمة صدر الأمر إليه أن يتخذ حصاناً ليسير بسرعة عظيمة ويصل إلى المحل المقصود، ثم مر بقوم فدهشوا إذ رأوه يسوق الحصان أمامهوهو يعدوا وراءه فسألوه لما لا تركب الحصان فقال «تبصرت قليلاً فرأيت أنه إذا سرنا على ست أقدام وصلنا إلى المحل المقصود بأسرع ما يمكن من الوقت [2]» ويلي الصينيين في الشهرة المصريون، ومن الغريب أن الكهل منهم يجاري الفتى في العدو المستمر لما إمتاز به المصري من القوة الجسدية المتولدة فيه نتيجة الرياضة الطبيعية في أشغاله المتعبة واشتهر المصريون كسعاة منذ القرن الخامس الميلادي إذ استخدموا في جماعات منظمة أطلق عليهم أسم «سيما كوى» في مصر السفلى، وكانوا لا يزالون موجودين حتى القرن الثامن الميلادي بدليل ما نجده في إحدى ورقات دينر البردية.

وتتفق الروايتان الشرقية والغربية في القول بأن من أراد أن يكون ساعيا في الإسكندرية لا بد أن يحمل شعلة في سلة على هيئة مدفأة مثبتة في عمود طوله رجل، وله حلقات من حديد، وأن يقطع المسافة التي بين رشيد والإسكندرية وطولها سبعة وعشرون ميلا ويعود في يومه قبل مغيب الشمس [3]، فكأن وظيفة الساعي في ذلك الوقت أعتبرت من الوظائف الحكومية الهامة لا يلتحق بها الشخص إلا بعد أن يثبت لباقته بامتحان يجرى له، ولا بد من إثبات أهليته واستعداده الطبيعي لتلك الوظيفة لما يكتنفها من أهوال وأخطار.

---

(١) ابن بطوط جـ ٢ ص ٢.

(٢) الطائر الغريد ص ٨٩، ٢٠٤.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٥٧_ مسكويه جـ ٥ ص ١٩٨.

ولا يزال يزيد الرجالة يستعمل في مصر إلى الآن وتنعتهم مصلحة البريد بكلمة «طوافه» وهم مكلفون بتوصيل البوسته إلى القرى الغير موجود بها_ مكاتب بوسته واستلام المراسلات من الصناديق في القرى المعين مرور الطواف عليها، ومحظور عليهم أن يخالفوا الطريق المقرر مرورهم عليها وأنهم يتأخرون عن الميعاد المحدد لهم بالجدول الذي يحمله كل منهم. وكثيراً ما تمد مصلحة البريد هؤلاء الرجالة بحيوانات ينتقلون عليها من قرية إلى أخرى تخفيفاً لآلامهم ورأفة بأبدانهم ويستعينون على ضبط مواعيدهم بساعة تعيرها مصلحة البريد لهم مدة خدمتهم.

ويخيل إلي أن مملكة الهند قد فاقت الممالك الإسلامية الأخرى في تنظيم جماعات السعاة، ويروي القلقشندي [١] أنها رتبت لهم أماكن شبيهة بمراكز البريد في مصر والشام، إلا أنها تمتاز بقربها من بعضها، وفي كل مكان من هذه الأمكنة مسجد وسوق وبركة ماء وعشرة سعاة ممن أتصف بالخفة والقوة. وجرت العادة كما هو متبع اليوم أن يحمل السعاه المراسلات داخل كيس أو جراب من الجلد معلق بإحدى كتفي الساعي أو مسترسل بعلاقة إلى جانبه الآخر على شكل حقيبة العساكر ويحمل بعضهم أجراسا [٢]. ومما هو جدير بالملاحظة أن حياة هؤلاء السعاة محفوفة بالمخاطر، فكثيراً ما يتيهون الطريق أو تصادفهم وحوشاً كاسرة تضطرهم إلى المرور في أرض غير مطروقة وغير سابلة الأمن ومتوفرة الماء.

(٦) بريد الخيالة: أطلق عليه بن بطوطة كلمة «الولاق» وهي خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال [٣].

والحصان هو الحيوان الشائع الاستخدام من أقدم العصور في نقل البريد قالت عنه الرواية الغربية [٤] أنه اتخذ كوسيلة لتبادل المكاتبات السياسية بين أمم الشرق

---

(١) القلقشندي جـ ٥ ص ٩٨.

(٢) الطائر الغريد ص ٥.

(٣) ابن بطوطة جـ ٢ ص ١.

(٤) **Cambridge Ance. Hist. V. 2 P. 228**.

الأدنى منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد. ويظهر أن العرب لم يستخدموا الخيل إلا بعد اتساع فتوحاتهم واجتياحهم شرقاً وغرباً أملاك الأكاسرة والقياصرة. إذ أن شبرنجر [١] يشير إلى استخدامهم الجمال في شبه الجزيرة العربية وسوريا لنقل بريدهم، على حين كان الفرس يستخدمون الخيل والبغال لهذا الغرض. ولعل شبرنجر إستند في استنتاجه على حقيقة بلاد العرب الجغرافية فالجمل هو الحيوان الوحيد الذي استطاع من غابر العصور بصبره وجلدهأن يكيف حياته بهذه البيئة الصحراوية القاسية. ولكن يجب ألا نأخذ بقول شبرنجر حتى لا نزعم أن العرب حديثوا العهد بالخيل وأنهم لم يعرفوها إلا في عصر الفتوحات. فالقرآن وهو مرجع تاريخي لا يحتمل الشك، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يؤكد معرفتهم للخيل بل ولجميع دواب البريد والنقل بدليل قوله تعالى «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون»[٢] أما الجمل فورد في آية أخرى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت [٣]» صحيح قد يكون الجمل أول حيوان استخدمه العرب في نقل بريدهم، ولكن ليس صحيحاً أن الجمل ظل محتكرا لنقل رسائل البريد، فحركات التقدم والتطور التاريخي استبدلته بالخيل والبغال، وشاع استخدام البغال بنوع خاص في نقل البريد بمملكة تونس [٤]، حيث كان من حق عامل البريد أن يركب بغل إما كلك له أو مستعار ويسافر إلى جهة قصده، وكان على الولاة الذين يمر بأرضهم أن يقدموا له البدل إما من جهتهم أو عن طريق السخرة من الرعايا ويتبع العامل نفس الطريقة عند عودته إلى المكان الذي بدأ منه.

وفي الغالب كان قطار البريد يتألف من دابة فأكثر حتى تبلغ أربعين أو خمسين دابة، ويعلقون في أعناقهم جلاجل أو سلاسل إذا تحركت سمعت لك قرقعة تعرف عندهم

---

(١) Sprenger .P. 3.

(٢) سورة النحل.

(٣) سورة الغاشية.

(٤) القلقشندي جـ ٥ ص ١٤٨.

بقرقعة البريد [1]. أما المراسلات فكانت تجعل ضمن أكياس من الجلد وتوضع على ظهور الدواب، ثم تقطر الدواب بعضها ببعض ويركب على كل دابة رجل. ويتصدر القافلة قائد خبير بمعالم الطرق يتوافر فيه من الصفات ما يتصف به دليل الهجانة اليوم، من حيث بعد النظر، وترجمة الأثر، وقوة الملاحظة والجرأة والشهامة. وتختلف سرعة البريدباختلاف الطرق ونوع الدواب ويقال أن معدل سير البريد بواسطة الخيالة والسعاه الذين يتغيرون في مراكز قريبة بلغ ١٢٠ ميلا أنكليزيا في كل ٢٤ ساعة [2].

وكان المتبع في إختيار خيالة البريد أن يكونوا من الرجال الأشداء ذووا الجلد، المتمرنون على الركوب والعدو، وأشهر خيالة البريد التتر الذين كثر استخدامهم في الدولة العثمانية، حتى صار يطلق بها أسم تتري على كل خيال حامل رسائل. ويليهم في الشهرة خيالة الفرس فإنهم يقاربونهم في النشاط والتجلد على السفر الطويل حتى في المسالك الوعرة [3].

والراجح أن حكام المسلمين من أوائل القرن الرابع الهجري عدلوا عن استعمال الخيل في البريد إلى اتخاذ الجمازات، فمن ذلك أنه لما قامت دولة الفواطم ببلاد المغرب وطمعت في الإستيلاء على مصر واقتطاعها من الدولة العباسية، وكثرت غزواتهك على السواحل الشمالية، وكل الخليفة المقتدر أمر صدهم إلى مؤنس الخادم وندب معه العسكر لمحاربتهم، ولكي تصله أخبار مؤنس كل يوم رتب الجمازات من مصر إلى بغداد [4]. وذلك لما امتازات به الجمازات من سرعة نقل الأخبار.

(٧) ميزانية البريد: الحديث عن هذا الموضوع أمره شائك وغامض لقلة ما عثرنا

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٨٢.

(٢) الطائر الغريد ص ٢٥.

(٣) المرجع السابق ص ٨٩.

(٤) صلة تاريخ الطبري ص ٥٣: ابن الأثير جـ ٨ ص ٤٨٠_ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٥٦ والجمازة شبه_ محفة على عجلة تجرها الخيول السريعة. يركبها عمال البريد ورجال الحرب وغيرهم ممن يتطلب عملهم السرعة_ تاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ ص ٢٨١.

عليه من مادة تاريخية تتعلق به، وحتى الرواية العربية نفسها لم تبين لنا على وجه التحقيق تفاصيل هذه التكاليف، وينبغي الإشارة إلى ما قاله ابن خرداذبه [١]«أن سكك البريد في المملكة تسع مائة وثلاثون سكة، ونفقات الدواب وأثمانها وأرزاق البنادرة (البريد) والفروانقيين لسنة مائة ألف دينار وأربعة وخمسون ألف ومائة دينار».

لم يوضح ابن خرداذبه عما إذا كان هذا الرقم خاصاً بعمال ودواب البريد في جميع المملكة، أو في إقليم خراسان الذي كان يعمل به كصاحب بريد، أو إقليم العراق باعتباره إقليم العاصمة، الأمر الذي جر علينا مشاكل كثيرة إزاء صمته وعدم تفسيره وحمل المستشرقين على القيل والقال في كرامة وأخلاق الشرقيين شبرنجر [٢] مثلا نقل هذا النص عن النسخة الخطية بلندن وعلق عليه بقوله، وعلى هذا الأساس تكون مصاريف السكة الواحدة مبلغ يناهز ١٦٦ دينار، وإذا عرفنا أن مرتب الجندي الواحد كان يبلغ مائة دينار وأحياناً يزيد على ذلك استطعنا أن ندرك أن هذا المبلغ من التفاهة بحيث لا يمكن من الأحتفاظ بعدد كبير من الخيول، أو من إعطاء مرتبات محترمة لموظفي البريد الذين كانوا ولا بد يعيشون على الرشوة والهدايا التي تقدم لهم من رجال المنطقة التي يعملون فيها ليستعيضوا بها عن قلة مرتباتهم، ويخلص من هذا الأستنتاج الغريب إلى القول بأن الشرقيين عامة مرضى بداء الرشوة ويستدل على هذا من تجاربه الشخصية في هذا الموضوع ببلاد الهند، ونحن نرى أن هذا الموضوع الذي أثاره حضرة المستشرق هو خارج عن الموضوع الذي يعالجه، ولا يتفق بحال مع هذا الإيجاز الشديد الذي عالج به نظام البريد في الشرق.

وهذا أمر يدعو إلى الغرابة والدهشة من غير شك، ويدل على رغبة شديدة في انتهاز الفرصة لتجريح الشرقيين ونقدهم في أثناء بحث علمي.. هذا فضلا عن الخطأ العلمي الكثير فهو أولا قد أخذ رقما غامضا وربما كان خاطئا بدليل أنه ذكر الرقم

---

(١) ابن خرداذبة ص ١٥٣.

(٢)Sprenger .P. 4.

١٥٤١٠١، على حين ورد في النسخة المطبوعة والتي تحت يدنا ١٥٤١٠٠، كما أن حضرته عندما ذكر الرقم لم يتمالك نفسه من أن يتساءل عن حقيقة هذا الرقم وهل هو لكل عام أم لفترة من الزمن. ووضع بين قوسين كلمة سنويا مشفوعة بعلامة استفهام. مع أن النسخة المطبوعة ذكرت كلمة سنويا صريحة كما سبق في النص... وعلى كل فهذه الكتب القديمة كثيرا ما يعتورها النقصان والزيادة، وهو يعتمد في هذه الفقرة على كتاب خطى بنفسه من نسخة خطية أخرى لابن خرداذبه. ويقول في المقدمة أنه قد نقلها على وجه السرعة فلم يكن أمامه إلا أربعة أيام للقيام بهذه العملية. ومع هذه الظروف كلها فإن حضرته يتمسك بهذا الرقم كما لو كان يتمسك بنص من نصوص القرآن، ويتخذه سنداً للوصول إلى حكم تاريخي يخالف العقل والمنطق، ثم يبنى عليه نتائج غريبة، ومنها أن موظفي البريد كانوا يتقاضون الرشوة كالشرقيين جميعا وكما شاهد هو بنفسه في الهند.

ولقد قرر السيد أمير علي بحق أن هذا الرقم إنما كان خاصا بنفقات البريد في وحده. وهذا استنتاج أصبح من غير شك وإليك نص عبارته [(١)]«ومصاريف إطعام هذه «ومصاريف إطعام هذه الدواب وشراء الجديد منها ومرتبات رجال البريد وموظفيه للعراق وحده بلغت ١٥٤ ألف دينار أو ما يقرب من مائة ألف جنية. وفي حكم الخليفة الأموي هشام بلغت مصاريف البريد في إقليم العراق فقط أربعة ملايين درهم». وقد ذكر البعض [(٢)] خطأ أن الرقم الأخير هو قيمة نفقات البريد لفرع اليمن، وواضح طبعا أن هذا القول لا يتفق مع الحقيقة التاريخية إذ لا يعقل أن تكون تكاليف فرع اليمن ٣٢٠٠٠٠ دينار على حين أن تكاليف فرع العراق ١٥٠٤ ألف، وفرع اليمن من غير شك يعتبر في المرتبة الثانية بعد فرع العراق، والميزانية إذا وضعت لا يمكن أن توضع إلا لإقليم العراق فقط وهو كرسي الدولة، وبهذا ترتقف نفقات المحطة الواحدة إلى ألف دينار بل ألفين إذا لم يكن في العراق ما يقرب من مائة

---

(١) AshartHist, of the saracens P. 117.

(٢) التراتيب الإدارية جـ ١ ص ١٣_ الطائر الغريد ص ٢.

محطة. وبذلك يكون هناك مجال كبير لدفع مرتبات عالية تغني الموظفين عن أخذ الرشوة. ويكفي لحفظ عدد كبير من الخيل.

على أننا من ناحيتنا لا نزال نتمسك بأن هذا الرقم الذي أورده حضرة المستشرق لا يدل بذاته على كل التكاليف التي يتكلفها البريد، لأن النقود كانت تؤلف جزءاً صغيراً من الإيرادات والمصروفات التي احتسب الجزء الأكبر منهل عينا، فقد يأتي لمقر الخلافة عدد من الخيول أو البغال أو الجمال كضريبة من الضرائب فتخصصه الدولة لأشغال البريد وهكذا. والمفهوم أن العرب لم يعرفوا الميزانية بمعناها الدقيق كما نعرفها نحن اليوم، والمفهوم أيضاً أن كل إقليم يقوم بنفقات ما فيه من جند وما فيه من مؤسسات ومنشئات، فمحطات البريد الموجودة في مصر يصرف عليها من غلة مصر ثم يصدر الزائد إلى العاصمة وما يصرف على بريد خراسان هو من متحصلات خراسان ثم يوجه الزائد إلى العاصمة. هذا هو المقعول وهذا هو المعروف، بل وهذا الثابت لكل من ألقى نظرة ولو عابرة على ما كان عليه النظام في ظل الخلافة العربية، فلم يكن النظام المركزي منسقا. ولا يمكن أن يكون منسقا نظراً لأتساع أنحاء الإمبراطورية، وإلا فهل يريد أن يتصور حضرة المؤلف الألماني أن رجلا بأقصى خراسان على حدود الصين كان ينتظر أن يصل إليه مرتبه الشهري من بغداد وأن بغداد هي التي كانت تدفعه.

أما كون موظفي البريد كانوا يعيشون من الهدايا والرشا التي كانت تقدم لهم، فهو قول أدحضع بتقديم الدليل من النصوص التاريخية التي تثبت على أن الخلفاء أنفسهم كانوا أكثر يقظة، وأكثر حرصاً على إعطاء مرتبات جديرة بالاحترام لموظفي البريد، كي يجمعون أخبارهم على الصحة، وتفاديا لوقوعهم فيما أشار إليه الأستاذ شبرنجر من مرض الرشوة والهدايا.

إذ ورد في الرسالة التي كتبها القاضي ابو سيف إلى هارون الرشيد في هذا المعنى ما

نصه (١)«وينبغي أن لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل، ويجري لهم من الرزق من بيت المال، وليدر عليهم، وتقدم إليهم في أن لا يستروا عنك خبرا عن رعيتك ولا عن ولاتك، ولا يزيدوا فيما يكتبون به عليه خيرا» فكأن القاضي أبو يوسف قرر رفع مرتبات موظفي وزيادة أرزاقهم كشرط أولى لتلقف الأخبار الصحيحة منهم عما يدور في الولايات.

وتحدث الأستاذ بارتولد [٢] بصفة عامة عن رواتب العمال في الدولة العباسية أيام بعض الخلفاء وأورد لنا قيمة ما يتقاضاه بعضهم. وإن كان للأسف لم يرد مرتب صاحب البريد، إلا أنه يفهم من الإحصائية أن مرتبات الموظفين كانت باهظة وسخية، وربما أن صاحب البريد لا يقل مكانة عن الوزير والقاضي مثلا فلا بد وأن يوازي مرتبه مرتبها.

وقد أشار أستاذي العبادي إلى ميزانية البريد في العراق بأنها بلغت ١٦٠ ألف دينار. ولا شك أن مبلغا كهذا كبير إذ لاحظنا القيمة الشرائية له في الوقت الحاضر [٣].

ولم يغفل السير توماس أرنولد تلك المسألة بل يشير إليها في إيجاز قائلا: «إن إنشاء تلك المؤسسات البريدية الكبرى بمحطاتها المزودة بالجمال والخيول قد كلفت ثمنا باهظا، إلا أنها قد كفلت الأمن والإشراف الدقيق على الأداة الحكومية في امبراطورية مترامية الأطراف كهذه [٤]».

---

(١) الإسلام والحضارة العربية ص ٢١٥.

(٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٤_ ومن قوله. وارتفعت الرواتب في زمن الخليفة المأمون فكان قاضي مصر في أيامه؛ يتقاضي راتباً قدره أربعة آلاف درهم (٨٠ جنية انجليزيا) وفي رواية أخرى أعلى من ذلك، أي يبلغ سبعة آلاف دينار شهريا. (٣٥٠٠ جنية أنجليزي) وقاضي القضاء خمسمائة دينار (٢٥٠ جنية أنجليزي) وفي الجملة فإن رواتب العمال في القرن الرابع وهو عهد تناقص الخلافة أعلى مما كانت في أيام هارون الرشيد.

(٣) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادي.

(٤) Cambridge med. Hist. V. 4 P 283

الفصل الرابع

طرق البريد وسككه

تاريخ إهتمام الإنسانية بإنشاء الطرق قديم بقدم الحضارة البشرية. غير أن مجهود الإنسان في هذا السبيل ضئيل لا يقاس بمجهوداته الأخرى في نواحي نشاطه العقلي، ذلك لأن انتقال الإنسان في حياته البدائية الأولى كان محدوداً. وكان القصد منه الحصول على القوت فقط لذا كانت الطرق التي اختارها في غدوه ورواحه أسهل الطرق وأكرمها ضيافة.. ولما شعرت الجماعات البشرية الأولى بحاجاتها إلى نشأة القرى والمدن، تحددت اتجاهات الطرق وألف الناس السير على هذه الطرق المعينة.. وعلى مضي الزمن عرفت أصول الحضارة ووضعت معالم المدنية، وحتمت الضرورة اعتماد طرق مختارة ومنفصلة عن غيرها، وهكذا ربطت الطرق البلدان وأصبح من الميسور على زعماء القبائل والعشائر أن يتصلوا بإخوانهم في الجهات الأخرى النائية، وهذا الاتصال لا يكون إلا عن طريق إرسال رسلهم متتبعين تلك الطرق المحدودة المعالم...

على أن الأمر لم يقف بالطرق عند هذا الحد بل سرعان ما اتخذت لها مكانة سامية بين جميع مظاهر الحضارة عند الأمم الراقية. وذلك بمجرد إنسياح أمه من الأمم في بقعة فسيحة من الأرض ومد نفوذها وسلطانها على الأمم الأخرى. وهنا بدأ تفكيرها في إنشاء طرق رئيسية من بين الطرق الفرعية المعتمدة من قبل، واعتبرت بعض تلك الطرق الرئيسية في نظر التطور التاريخي والإجتماعي طرقا عالمية يسلكها الزنجي والبربري والمغولي والأوروبي كالطريق البري بين أوروبا والصين مثلا والذي سيرد ذكره فيما بعد.. ويحفظ التاريخ للرومان فضل الأسبقية على غيرهم في الأعتناء بالطرق وتخصيص إدارة للإشراف عليها. لذلك كان من الضرورات العلمية أن أشير بكلمة عن الطرق غند الرومان قبل الكلام عن طرق البريد الإسلامية.

(١) الطرق عند الرومان: الرومان وإن كانت حضارتهم قد بدأت متأخرة عن حضارات أمم الشرق الأدنى كمصر وبابل وآشور واليونان، إلا أنها استطاعت بفضل من تعهدوها بالرعاية والعناية أن تتغذى بفيتاميتات قوية قصرت من أمد طفولتها، وغدت في مصاف زميلاتها الشرقية، بل وبزتها في نواحي كثيرة، فمثلا لم يحفظ لنا التاريخ عن البريد المصري قدر ما حفظ عن البريد الروماني. ولم يحفظ لنا عن الطرق المصرية القديمة قدر ما حفظ عن الطرق الرومانية. ومثل هذا يقال عن بابل وآشور فالقانون الروماني لا يزال أثره موجوداً إلى الآن. على حين أننا لم نقرأ الكثير عن قوانين بابل وآشور، وفن العمارة واضح عند الرومان في قصورهم ودواوين حكوماتهم. على العكس عند اليونان والمصريين لا نرى أثر إلا في المعابد والمقابر.

لذا سنرى العرب قد فطنوا إلى ما فطن إليه الرومان من أهمية الطرق والعناية بأمرها، ولعل هذا يكون مرجعه إلى أتساع رقعة كل من الأمبراطوريتين العربية والرومانية شرقا وغربا، أو إلى طبيعة الحكم الذي ارتضته كل منهما، فهو حكم أتقراطيا مركزا في بغداد وروما، على عكس الحكم في فارس كان إقطاعيا، أو يكون سببه أخيراً إلى طبيعة الموقع الجغرافي لكل من العاصمتين بغداد وروما. فكلتاهما على نهر وقريبة من البحر، وكلتاهما في حاجة إلى طرقات مستقيمة تشق ولاياتها من مشرقها لمغربها متجهة كلها صوب العاصمة... فكلما كانت روما قلب الإمبراطورية الرومانية القديمة الخفاق حتى قيل بحق عنها وقتذاك «كل الطرق تؤدي إلى روما» كذلك كانت بغداد في العصور الوسطى قلب الإمبراطورية الإسلامية الخفاق وقيل عنها ما قيل عن روما خصوصا في العصر العباسي الأول [١].

وتفسير ذلك أن الرومانيين قد أدركوا منذ عصور مبكرة ما للطرق العامة من خطورة في حياة الأمم، وشعروا بالحاجة المضاعفة إليها بمجرد أن أتسعت رقعة إمبراطوريتهم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، وكان مبعث هذه الحاجة في أول الأمر حربيا

(١) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ عبد الحميد العبادي.

[1] إذ كان من الضروري في أي وقت أن تتحرك الفرق الحربية بسرعة من ولاية إلى أخرى، وقد شعر الإمبراطور أوجسطس برداءة طرق المواصلات ما بين إيطاليا وكل من غاليا وأعلى الرين، كما أنه لم يكن هناك طريق سوى يتبعه صوب مقدونيا لعدم صلاحية ساحل دلماشيا لمرور الجند حتى في أوقات السلم، وإذا ما أراد الرومان الوصول إليه برا عن طريق الشمال نحو بسنيا **Bosnia** اعترضتهم جبال الألب الجوليانية **Julian IAps**[2] وثمة سبب آخر لاهتمام الرومان بالطرق العامة وهو ربط أطراف الأمبراطورية بالعاصمة حتى يسهل على الحاكمين صيانة ونقل الأخبار الرسمية ما بين روما والحكومات المحلية أو العكس، فكأن عنايتهم بإنشاء الطرق ساعدت على نشاط وإزدهار حركة البريد عندهم.

وأقدم طريق روماني يذكره التاريخ القديم هو الطريق الآبي **Via Abi** اشتق أسمه من أسم القنصل الروماني أبيوس كلوديوس الأعمى الذي بدأ تشييده منذ أثنين وعشرين قرنا ونصف أي عام ٣١١ ق.م. ويجري الطريق الآبي من روما إلى كابوا ثم إلى الميناء المعروف الآن بيرنجيزي، ووصف أحد المؤرخين هذا الطريق بالحملة اللاتينية_ «**LongarumRiginaViarum** أي سلطان المسالك والممالك»[3].

وإذا ما برحت روما شمالا لقيت طريقا رومانيا شهيرا اسمه **Via Flaminia** وهو بالنسبة لشمال إيطاليا كأنه الطريق الآبي بالنسبة لجنوبها، انشيء سنة ٢٢٠ ق. م. لكنه ما لبث أن تداعي، وبعد مضي نصف قرن بدأ الإمبراطور أوجسطس إصلاحا

---

(١) **The Roman System of Provincial Administration P. 18_ Cambridge Anc ..Hist. Vol. 10 P 217**

(٢) **Cambridge Anc .Hist. Vol. 10 P. 352**

(٣) مجلة الراديو المصري العدد ٤٦٤ ص ٦_ ويقال أن الأمبراطور كلورديوس قارن بين الأهرام التي كانت يومئذ عجيبة الدنيا بأسرها وبين الطريق الآبي قائلا_ إن الهرم الأكبر أثر يرضي غرور فرد واحد وحتى ذلك الفرد لا تدفن جثته فيه على الأغلب ولكن ما من عابر للطريق الآبي إلا وهو ذاكر بالفضل والحمد ذلك الرجل الذي شيده.

عاما لجميع الطرق الرومانية في إيطاليا **General Curaviarum** وكلف كل عضو من الأعضاء مجلس الشيوخ **Senatus** الإشراف على إصلاح طريق واحد من بين الطرق الرومانية وأبقى من نصيبه وعلى حسابه الخاص شرف إعادة طريق فلامينيا إلى ما كان عليه، فشيد من جديد جميع كباريه تقريبا، ولقد أقيمت نصب وأقواس مصر لتحية أوجسطس عندما مر فوق كبرى فالفيوس آرمنيوس [١]. وعن هذا الطريق خرج طريقان إحداهما إلى شمال أسبانيا فجنوبها إلى شمال إفريقية حتى قرطاجنة، والآخر إلى بلاد الغال. وفي غالة نفسها يرجع تحسين طرقها إلى الإمبراطور إجريبا **Agrippa** الذي أتخذ مدينة **lugdunum** (مكان لبون الحالية) مركزاً رئيسياً ترع منها أربعة طرق_ أولها إلى أكويتانيا، وثانيها إلى نهر الرين، وثالثها إلى بحر المانش، ورابعها مع نهر الرون جنوباً إلى مرسيليا [٢].

أما طريق الشرق الذي يتجه صوب البلقان فيعتبره المؤرخون بمثابة العمود الفقري لأوربا ويرجعون الفضل في إنشائه إلى أوجسطس أيضاً، ويبدأ من **Aquileia** (بين نريست وفيومي تقريبا) مارا بمدينة **Singidunum** (بلغراد الحالية) في طريقه إلى بيزنطة. وهو الطريق الذي يستطيع المسافر بواسطته في الوقت الحاضر أن يخترق مملكة يوجوسلافيا من غربها إلى شرقها في زمن قصيرة وراحة متوفرة وهو عصب المواصلات في الممالك البلقانية على وجه العموم الآن [٣].

وتمتاز كل الطرق الرومانية باستقامتها من المبدأ حتى النهاية بصرف النظر عما

---

(١) مجلة الراديو المصري العدد ٤٦٤ ص ٦ _Cambridge Anc .Hist. Vol. 10 P. 205 ويقال أن أوجسطس قد عهد إلى لجنة من أعضاء السناتو بمهمة الإشراف على الطرق العامة **CuraViarum** عرفت هذه اللجنة باسم **CuratoresViarum** اختيروا من بين طبقة البرايتور **Praetores** المتخصصين في فن الطرق **Cambridge Anc .Hist. V** والمتخصصين في فن الطرق برايتور ة من أعضاء السناتو بمهمة الإشراف على الطرق العامة ته فيه على الأغلب ولكن ما من عابر للطريق الآبي **X P. 205**.

(٢)**Cambridge Anc .Hist. Vol 10 P. 217**.

(٣) **The Roman System of Provincial Adm P. 18_ Cambridge Anc .Hist. Vol. 10 P 352**

يعترضها من عقبات طبيعية، وأيضاً تشتهر بقوة البناء، ولا يزال الكثير منها باقيا إلى الآن وهي على الأغلب تستخدم كعصب للطرق الحديثة [١]. وكانت طريقتهم في إنشائها أن تقام على ارتفاع نسبي فوق أرض منبسطة، ويلاحظ على جانبي الطريق الحفر التي منها أخذ التراب لإنشائه، وكانت هذه الحفر في نفس الوقت بمثابة خنادق محصنة تستطيع الفرق الحربية في أية نقطة على الطريق أن تتجمع بداخلها في أقرب وقت وفي أمان من العدو [٢]، وعلى طول الطريق أسست محطات البريد بحيث يقسم الطريق إلى أميال وعلى رأس كل ميل حجر **Milestone** ويطلق على الميل الأول في روما **The Golden Milestone** أي معلم الميل الساطع [٣]. ولما كانت روما تعتمد اعتماداً كبيراً على الجنود المحاربين في تمهيد وتعبيد تلك الطرق في الولايات الرومانية، فإن قانون أجراريا [٤]**LexAgraria** الصادر في سنة ١١١ ق. م قضى بأن تكون تلك الطرق ملكا للرومان أنفسهم. أما عن أثر هذه الطرق فإنه علاوة على سهولة نقل الفرق الحربية من مكان إلى آخر وعلاوة على طمأنه أل **Cursus Publicus** على مؤسساتها ورجالها ودوابها، فإن الطرق كانت وسيلة من وسائل التبادل الفكري والعقلي بين الشعوب الخاضعة للحكم الروماني، فتمكنت الحضارة الرومانية من أن تصبغهم بصبغتها الغربية وتقاليدها الوثنية أولا ثم المسيحية أخيراً، بل وأكثر من هذا ساعدت الطرق البحرية الأساطيل الرومانية على تتبع القرصنة في مياة البحر الأبيض المتوسط واستئصال شأفتها [٥].

(٢) الطرق عند العرب: تعزدنا أن نلقن التلاميذ في مدراسنا المصرية الشيء الكثير عن عظمة الأوروبيين وخصوصاً الرومان الأقدمين في فن إنشاء الطرق، وهذه

---

(١) الراديو المصري العدد ٤٦٤ ص ٦.

The Roman System of Provincial Administration P. 18(٢)

.Cambridge Ancient History. Vol. 10 P 216(٣)

The Roman System of Provincial Adm P. 116_ 117(٤)

Cambridge Anc .Hist. Vol. 10 P 217. 348 (٥)

من غير شك حقيقة تاريخية لا يختلف عليها أثنان، ولا مجال لنا في إنكارها على الرومان كما سجلناها لهم على النحو السابق ذكره.. وإنما الشيء الذي يحز في نفسي ويفعمني بالحسرة والألم هو الإشادة والتشهير بعظمة الغير والجهل والقصور بفضل العرب على الحضارة الحديثة، فالعرب الذين كونوا إمبراطورية عظيمة شملت أقطارا في العالمين الشرقي والغربي لم يفتهم العناية بطرق المواصلات البرية والبحرية [1]... غير أني لا أدري أكانوا في عنايتهم مقلدين وناقلين عن الفرس والرمان، أم أن الضرورة الملحة وأتساع رقعة إمبراطوريتهم ألزمتهم إنشاء الكرق لسهولة الاتصال بين الحكومة المركزية والحكومة المحلية... أم كان الحافز طبيعيا، إكمالا لنمو حضارتهم وتمشياً مع نظرية النشوء والأرتقاء، ويرى البعض [2] أن فرق المشاة الرومانةي قد مهدت بعض الطرف في جزء صغير من بلاد العرب، ولكن لم يبق من آثارها إلا ألفاظ قليلة مأخوذة من اللاتينية مثل كلمة **Via** ومعناها الصراط عند أهل الدين وكلمة **Iter** التس تستعمل نادراً بمعنى الطريق، هذا إلى جانب علامات الطرق المسماه بالأميال، أما الطريق السلطاني فقد أخذ العرب طريقة إنشائه عن الفرس، كما أخذوا عنهم هذه التسمية، ولعل طرق ذلك العهد شأن طرق اليوم لم تكن إلا شبكة من المسالك المطروقة لا يربطها نظام... ومعنى هذا أن الأستاذ متزينفي كزميله الأستاذ شبرنجر وجود طرق منسقة ومنظمة للمواصلات والبريد عند العرب، وهذا ليس بالشيء الغريب على الغربي فهو مشوق بطبعه إلى إيثار نفسه على الشرقي، فحملته تلك الأثرة على الإوزرار والجحود بما خطه العرب للعالم المتحضر من مدنيات جليلة القدر

---

(١) كان لعرب الجاهلية طريقان عظيمان للتجارة بين اشلام والمحيط الهندي. أحدهما يسير شمالا من حضر موت إلى البحرين على الخليج الفارسي ومن ثم إلى صورـ والثاني يبدأ من حضر موت أيضا ويسير محاذيا للبحر الأحمر متجنبا صحراء نجد وهجيرها، ومتجنبا هضاب الشاطيء ووعورتها. وعلى الأخير تقع مكة في المنتصف تقريبا بين اليمن وبطره. هذه الطرق التجارية أفادت العرب فائدة كبيرة وفتحت لهم بابا للرزق كبيرا، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه ومنهم من كان يستخدم في التجارة كأن يكون سائقاً أو حارساً أو دليلاـ فجر الإسلام جـ ١ ص ٤.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٤١.

عظيمة الأثر، وإذا لم يكن للعرب طرق منظمة منا يقول حضرته، أين إذن طريق وسط آسيا وطريق الخليج الفارسي، اللذان اشتهروا في العصور الوسطى، وعنهما نقلت إلى أسواق أوربا منتجات الشرق من توابل ومنسوجات، ومجوهرات ثمينة، وأحجار كريمة، وعقاقير طبية، فشوقت الأوربيين إلى ضرورة الإستمتاع بملاذ الحياة، وتسابقت الدول فيما بينها على امتلاك الشرق، ونتج عن هذا التنافس وذلك التسابق كشف طريق رأس الرجاء الصالح .. أم تكمن طرق القوافل المنظمة والطرق التي أنشأتها الخلافة العباسية هي الوسيلة الوحيدة لنقل مثل هذه المتاجر من أقاصي آسيا إلى أقاصي أوروبا.. ألم يدل ذلك كله على يقظة رجال ديوان البريد وأشرافهم على تلك الطرق وحراستها، «وحسبي دليلا على ذلك ما كتبه الكاتب الأنجليزي هارولد لامب في وصفه لإمبراطورية تيمورلنك بقوله: «وقد اهتم تيمور بطرق المواصلات فعمر الجسور وأنشأ الطرق وأقام فيها حراسا للمحافظة في أيام الشتاء حيث تكثر الثلوج والأمطار، وكان هؤلاء الحراس يسألون عن كل جمل أو فرس أو غيره يسرق من القوافل التي تمر في مناطقهم، كما أن القوافل كانت تدفع جزية معينة لقاء هذه المحافظة التي يقوم بها جنود تيمور، وأما الماء فكان يجلبونه بمجارير خاصة من منابع بعيدة [١]».

إذا قيل هذا عن أمبراطورية تيمور فما بالك بالإمبراطورية الإسلامية يوم أن كانت عاصمتها في بغداد ذات الموقع الجغرافي الممتاز من جميع النواحي السياسية والاقتصادية والعمرانية.. تحدث جغرافيوا العرب كثيرا عن طرق تلك الإمبراطورية وأبدى الأستاذ [٢] **Le Strange** رأيه في كتبهم وأثناهم على عنايتهم بعلم المسالك، ووضع في مقدمتهم ابن خرداذبة وقدامه، وكان الأول مديرا لمصلحة البريد في ولاية الجبال، بينما كان الثاني عاملا للخراج وكلاهما تخصص في المسافات، أما اليعقوبي فوصف باسهاب طوبوغرافية بغداد. وابنرسته وقد اعتنى على الخصوص بطريق

(١) **La Vie de Tamerlan P. 157**_ والترجمة العربية ص ٦٦.

(٢) **The Lands of Eastern Calophate P. P. 11_13**.

خراسان والطريق الذي يمتد من بغداد جنوبا إلى الكوفة والبصرة فشيراز. والأربعة من جغرافي القون الثالث الهجري.. ثم حدث تطور في علم الطرق وظهر في القرن الرابع الجغرافيون القياسيون الذين أعطونا الأبعاد بالميل لكل إقليم على حدة فعد هذا تقدما كبيرا ومن مشاهير هؤلاء الإصطخري وابن حوقل والمقدسي، والأول فارسي الموطن يعطينا وصفا حقيقيا مسهبا عن فارس، والثاني لا يزيد عنه في شيء من حيث المادة الجغرافية، أما المقدسي فكتابه عظيم لأنه دون ملاحظاته الشخصية لبعض الولايات كل منها على انفراد من حيث وصف أماكنها وعادات سكانها وحالهم وحرفهم الخ. والثلاثة معا أفادتنا مادتهم في تعيين بعض المدن التي خربت على مر الأيام كما ساعدتنا على مليء الخرائط الجغرافية لتلك الأصقاع.

وقد لخص الأستاذ أمد متز [(١)] أشهر الطرق المتفرعة من بغداد. وأمانة للبحث العلمي رأينا إرجاع هذه الطرق إلى مصادرها الأصلية كي يستطيع القاريء أن يكون صورة ذهنية حقيقية عن هذه الطرق وفي أوج عظمتها، وإليك هذه الطرق نقلا عن أقدم هؤلاء الجغرافيين وهما بن خرداذبة وقدامه [(٢)] ولنبتديء بذكر

أولاً: الطرق إلى سائر كور المشرق ونواحيه.

ابن خرداذبة وقدامه: من بغداد إلى النهروان أربعة فراسخ، ثم إلى دير بازما أربعة فراسخ، ثم إلى الدسكرة ثمانية فراسخ، ثم إلى جلولا سبعة فراسخ، ثم إلى خافقين سبعة فراسخ، ثم إلى قصر شيرين ستة فراسخ، ثم إلى حلوان خمسة فراسخ فذلك من بغداد إلى حلوان أحد وأربعون فرسخا. ومن حلوان إلى مادرواستان أربعة فراسخ، ثم إلى مرج القلعة ستة فراسخ، ثم إلى قصر يزيد أربعة فراسخ، ثم إلى الزبيدية ستة فراسخ. ثم إلى خشكاريش ثلاثة فراسخ ثم إلى قصر عمرو أربعة فراسخ ثم إلى قرمسين ثلاثة فراسخ. فذلك من قرمسين إلى حلوان ثلاثون فرسخا.

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ٢ ص ٣٤٩.

(٢) راجع كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة. ولا ضرورة لتكرار ذكره وصفحاته هنا.

ابن خرداذبة: من قرمسين إلى الدكان سبعة فراسخ ثم إلى خنداذ سبعة فراسخ ثم عقبة همذان إلى قرية العسل ثلاثة فراسخ ثم إلى همذان خمسة فراسخ.

قدامة: من قرمسين إلى قنطرة مريم خمسة فراسخ، ثم إلى الدكان أربعة فراسخ ثم إلى قصر اللصوص ستة فراسخ، ثم إلى أسداباز سبعة فراسخ، ثم إلى الزعفرانية ستة فراسخ، ثم إلى همذان ثلاثة فراسخ فذلك من قرمسين إلى همذان إحدة وثلاثون فرسخا... ومن أراد الطريق من قرمسين إلى نهاوند أخذ من قرمسين إلى الدكان سبعة فراسخ، ثم إلى قصر اللصوص تسعة فراسخ، ثم إلى كحراس خمسة فراسخ ثم إلى نهاوند أربعة فراسخ. فذلك من قرمسين إلى نهاوند خمسة وعشرون فرسخا... ومن أراد من نهاوند إلى همذان فمن نهاوند إلى راكا ستة فراسخ، إلى الديمر خمسة فراسخ، ثم إلى همذان سبعة فراسخ. فذلك من نهاوند إلى همذان ثمانية عشر فرسخا ومن أراد من نهاوند إلى الكرج وهي قصبة الأبغارين فمن نهاوند إلى راكا ستة فراسخ ثم إلى حوارب ثمانية فراسخ، ثم إلى الكرج خمسة فراسخ. فذلك من نهاوند إلى الكرج تسعة عشر فرسخا.. فمن احتاج إلى أن يعرف الطريق من همذان إلى الأبغارين وقصبتها الكرج فمن هذان إلى طاسبندا خمسة فراسخ، ثم إلى حوار سبعة فراسخ، ثم إلى الكرج خمسة فراسخ. فذلك من همذان إلى الكرج سبعة عشر فرسخا. ومن همذان إلى الكرج على رستاق سواء من همذان إلى جوران خمسة فراسخ، ثم إلى صنداد سبعة فراسخ، إلى سعبان سبعة فراسخ ثم إلى الكرار تسعة فراسخ. فذلك على هذا الطريق ثمانية وعشرون فرسخا... ومن أراد أصبهان من الكرج فمن الكرج إلى خرناباذ سبعة فراسخ، ثم إلى ابتعة سبعة فراسخ، ثم إلى جرباذقان ستة فراسخ، ثم إلى قنوران ثمانية فراسخ، ثم إلى مرج ورهن سبعة فراسخ، ثم إلى المازمين أربعة فراسخ، ثم إلى أزميران اثنى عشر فرسخا، ثم إلى أثبهام ثلاثة فراسخ فذلك من الكرج إلى أصبهان أربعة وخمسون فرسخا.

ابن خرداذبة وقدامة: من همذان إلى درانوا خمسة فراسخ، ثم إلى يزدجرد خمسة فراسخ، ثم إلى درة أربعة فراسخ، ثم إلى طردة أربعة فراسخ، ثم إلى الأساورة أربعة

فراسخ، ثم إلى دروة وبوستة ثلاثة فراسخ، ثم إلى داوداباذ أربعة فراسخ، ثم إلى سوسنقين ثلاثة فراسخ، ثم إلى دروذ أربعة فراسخ، ثم إلى ساوة خمسة فراسخ، ثم إلى مشكوبة ثمانية فراسخ، (ابن خرداذبة ٩)، ثم إلى قسطانة ثمانية فراسخ، ثم إلى الري سبعة فراسخ. فذاك من همذان إلى الري أربعة وستون فرسخا.

قدامة: ومن الرس إلى مفضلا باذ أربعة فراسخ، ثم إلى أفريدين ستة فراسخ، ثم إلى كاسب فراسخ، ثم إلى خوار ستة فراسخ، ثم إلى قصر الملح سبعة فراسخ، ثم إلى رأس الكلب سبعة فراسخ، ثم إلى سرخ أربعة فراسخ، ثم إلى قومس أربعة فراسخ، ثم إلى الحدادة سبعة فراسخ، ثم إلى كوزستان أربعة فراسخ، ثم إلى بذش ثلاثة فراسخ، ثم ميمد اثنا عشر فرسخا، ثم إلى هفتدر سبعة فراسخ، ثم إلى أسدا باذ سبعة فراسخ، ثم إلى بهمنا باذ ستة فراسخ، ثم إلى النوق ستة فراسخ، ثم إلى خسرو جرد ستة فراسخ، ثم إلى حسينا باذ أربعة فراسخ، ثم إلى ستكردر خمسة فراسخ، ثم إلى بيشكند خمسة فراسخ، ثم إلى نيسابور خمسة فراسخ، فذلك من الري إلى نيسابور مائة وأربعون فرسخا.

ابن خرداذبة: ومن الري إلى قزيون ذات اليسار سبعة وعشرون فرسخاً، ثم إلى أبهر أثنا عشر فراسخ، ثم إلى زنجان خمسة عشر فرسخا.. ومن الري إلى مفضلا باذ أربعة فراسخ. ثم إلى كاسب ستة فراسخ ثم إلى أفريذين ثمانية فرسخا، ثم الخوار ستة فراسخ، ثم إلى قصر الملح سبعة فراسخ، ثم إلى رأس الكلب [1] سبعة فراسخ، ثم إلى سمنان ثمانية فراسخ، ثم إلى آخرين تسعة فراسخ، ثم إلى قومس ثمانية فراسخ، فمن

---

(١) يلاحظ اختلاف هذه الأسماء عادة على الخرائط وفي الكتب، ويرجع (ص ١٩) **Le Strange** **Dilnamah** هذا الاختلاف إلى أن بعض القرى ومراكز البريد اشتق اسمها من المظاهر الطبيعية كقرية **Salt,** **Camel village, myrtle village** وهي بالفارسية على الترتيب **DihUshturan, Dihmurd** مما يدعو إلى الاعتقاد بأن الأسماء الفارسية كانت شائعة الاستعمال في فارس وترجمها جغرافيوا العرب إلى العربية. إلا أنه يلاحظ في بعض الأحيان في القائمة العربية اسم محطة بريد بالعربية على حين أنه لم يصل ما يقابلها بالفارسية كقرية **ReS_ eLkalb** مثلا.

الري إليها ثلاثة وستون فرسخا. ثم إلى الحدادة سبعة فراسخ، ثم إلى بذش سبعة فراسخ، ثم إلى ميمد اثنا عشر فرسخا، ثم إلى هفتكند سبعة فراسخ، ثم إلى أسداباذ سبعة فراسخ، ثم إلى بهمن أباذ ستة فراسخ، ثم إلى النوق ستة فراسخ، ثم إلى خسرو كرد ستة فراسخ، ثم إلى حسين أباذ ستة فراسخ، ثم سنكرور خمسة فراسخ، ثم إلى بيسكند خمسة فراسخ، ثم إلى نيسابور خمسة فراسخ فمن بغداد إلى نيسابور ثلثمائة وخمسة فراسخ(١).

ابن خرداذبة وقدامة: من نيسابور إلى بفيس أربعة فراسخ، ثم إلى الحمراء ستى فراسخ، ثم إلى المثقب من طوس خمسة فراسخ، ثم إلى النوقان خسمة فراسخ، ثم إلى مزدوران العقبة ستة فراسخ، ثم إلى أوكوينة ثمانية فراسخ، ثم إلى سرخس ستة فراسخ، ثم إلى قصر النجار ثلاثة فراسخ، ثم إلى أشنرمفاك خمسة فراسخ، تلستانة ستة فراسخ، ثم إلى الداند انقان ستة فراسخ، ثم إلى ينوجرد خمسة فراسخ، ثم إلى مرو خمسة فراسخ. فذلك من نيسابور إلى مرو سبعون فرسخا.

ابن حرداذبة: ومن مرو طريقان أحدهما إلى الشاش وبلاد الترك، والآخر إلى بلخ وطخارستان. فأما طريق الشاش والترك: فمن مرو إلى كشماهن خمسة فراسخ، ثم إلى الديواب ستة فراسخ، ثم إلى المنصف ستة فراسخ، ثم إلى الأحساء ثمانية فراسخ، ثم إلى بئر عثمان ثلاثة فراسخ، ثم إلى آمل ثمانية فراسخ. فمن مرو إلى آمل ستة وثلاثون فرسخا.. ومن آمل إلى شط نهر بلخ فرسخ ويعبر إلى فربر فرسخ ثم إلى حصن أم جعفر مغازه ستة فراسخ ومنها إلى بيكند ستة فراسخ، ثم إلى باب حائط بخارا فرسخان ثم إلى ما ستين فرسخ ونصف، ثم إلى بخارا فرسخ ونصف فمن آمل إلى بخارا تسعة عشر فرسخا... ومن بخارا إلى شرنح أربعة فراسخ، ثم إلى طواويس ثلاثة فراسخ، ثم إلى كوكشيبغن ستة فراسخ، ثم إلى كرمينيه أربعة فراسخ ثم إلى الدبوسيه

---

(١) في حين أنها بلغت عند قدامه ٣٠٦ فرسخا كالآتي_ من بغداد إلى حلوان ٤١ فرسخا ومن حلوان إلى قرميسين ٣٠ فرسخا ومن قرميسين إلى همذان ٣١ فرسخا، ومن همذان إلى الري ٦٤ فرسخا . ومن الري إلى نيسابور ١٤٠ فرسخا = ٣٠٦.

خمسة فراسخ، ثم إلى أربنجن خمسة فراسخ، ثم إلى زرمان خمسة فراسخ، ثم إلى قصر علقمه خمسة فراسخ، ثم إلى سمر قند فرسخان، فمن بخارا إليها تسعة وثلاثون فرسخا... ومن سمر قند إلى باركث أربعة فراسخ، ثم إلى خشوفنعن أربعة فراسخ، ثم إلى بور غذ خمسة فراسخ، ثم إلى زامين أربعة فراسخ، وزامين مفرق طريقين إلى الشاش والترك وإلى فرغانه.

قدامه: ومن مدينة مرو طريقان أحدهما: إلى ناحية الشاش وبلاد الترك, والآخر إلى ناحية طخارستان, فمن مرو إلى كشميهن خمسة فراسخ, ثم إلى الديوان وبها سكة ستة فراسخ,ثم إلى الطهملح موضع سكة فرسخان ثم إلى المنصف موضع سكة أربعة فراسخ، ثم إلى الأحساء موضع سكة ثمانية فراسخ، ثم إلى نهر عثمان موضع سكة ثلاثة فراسخ، ثم إلى العقير موضع سكة ثثلاثة فراسخ. ثم إلى آمل خمسة فراسخ فذلك من مرو إلى ستة وثلاثون فرسخا. ومن آمل إلى شط نهر بلخ فرسخ، ثم إلى قرية على فرسخ، ثم إلى حصن أم جعفر ستة فراسخ، ثم إلى بيكند ستة فراسخ، ثم إلى باب حائط بخارا فرسخان، ثم إلى ماستين فرسخ ونصف، ثم إلى بخارا خمسة فراسخ، فذلك من آمل إلى بخارا اثنا وعشرون فرسخا ونصف... ومن بخارا إلى شرنح أربعة فراسخ، ثم إلى الطواويس ثلاثة فراسخ، ثم إلى كوك ثلاثة فراسخ، ثم إلى كرمينيه أربعة فراسخ، ثم إلى الدبوسيه خمسة فراسخ، ثم إلى ربنجن خمسة فراسخ، ثم إلى ربنجن خمسة فراسخ، ثم إلى زرمان ستة فراسخ، ثم إلى قصر علقمة خمسة فراسخ، ثم إلى سمر قند فرسخان. فذلك من بخارا إلى سمر قند سبعة وثلاثون فرسخا... ومن سمر قند إلى باركت أربعة فراسخ، ثم إلى خشوفغن أربعة فراسخ، ثم إلى فورغذ خمسة فراسخ، ثم إلى زامين أربعة فراسخ، وزامين مفرق طريقين طريق إلى شاش وطريق إلى فرغانة.

ابن خرداذبة: فأما طريق شاش؛ فمن زامين إلى خاوص سبعة فراسخ، ثم إلى شط نهر الشاش جسر تسعة فراسخ. ثم إلى نهر ترك أربعة فراسخ، ثم إلى شطوركت وبنونكت ثلاثة فراسخ، ثم إلى الشاش فرسخان. فمن سمر قند إلى الشاش اثنان وأربعون فرسخا... ومن الشاش إلى معدن الفضة سبعة فراسخ، ثم إلى باب الحديد

ميلان، ثم إلى كبال فرسخان، ثم إلى غركرد ستة فراسخ، ثم إلى اسبيجاب أربعة فراسخ، فمن الشاش إليها ثلاثة عشر فرسخا... ثم إلى شاراب أربعة فراسخ, ثم إلى بدوخكت خمسة فراسخ, ثم إلى تمتاج أربعة فراسخ، ثم إلى أبا رجاج أربعة فراسخ، ثم إلى منزل على النهر ستة فراسخ، ثم إلى جويكت خمسة فراسخ، ثم إلى طراز ثلاثة فراسخ، فمن أسبيجاب إليها ستة وعشرون فرسخا. ثم إلى كويكت سبعة فراسخ. ومن طراز إلى نوشجان السفلى ثلاثة فراسخ، ثم إلى قصر باس فرسخان، ثم إلى كول شوب أربعة فراسخ، ثم إلى حل شوب أربعة فراسخ، ثم إلى حل شوب أربعة فراسخ، ثم إلى طولان أربعة فراسخ ثم إلى بركي أربعة فراسخ، ثم إلى أسبرة أربعة فراسخ، ثم إلى توزكت ثمانية فراسخ، ثم إلى خرنجوان أربعة فراسخ، ثم إلى جول أربعة فراسخ، ثم إلى سارغ سبعة فراسخ، ثم إلى مدينة خاقان التركشي أربعة فراسخ، ثم إلى نواكت أربعة فراسخ، ثم إلى كبال ثلاثة فراسخ، ثم إلى نوشجان الأعلى وهو حد الصين مسيرة خمسة عشر يوما للقوافل في المرعى، فأما البريد الترك فمسيرة ثلاثة أيام.

قدامه: فأما طريق شاش فمن زامن إلى خاوص ستة فراسخ ثم إلى نهر الشاش خمسة فراسخ، ثم إلى بناكت أربعة فراسخ، ثم إلى جينانجكت أربعة فراسخ، ثم إلى بنونكت ثلاثة فراسخ، ثم إلى مدينة شاش فرسخان، ثم إلى معكسرا فرسخان، ثم إلى غركرد خمسة فراسخ، ثم إلى اسبيشاب أربعة فراسخ، ثم إلى شاراب أربعة فراسخ، ثم إلى بدوخكت أربعة فراسخ، ثم إلى تمتاج خمسة فراسخ، ثم إلى بارجاج أربعة فراسخ، ثم إلى منزل ستة فراسخ، ثم إلى شاوغر ثلاثة فراسخ، ثم إلى جويكت فرسخان، ثم إلى طراز فرسخان، ثم إلى نوشنجان السفلى ثلاثة فراسخ، ثم إلى قصر باس فرسخان، ثم إلى كول شوب أربعة فراسخ، ثم إلى كولان أربعة فراسخ فذلك من مدينة طراز إلى كولان أربعة عشر فرسخا.... ومن كولان إلى قرية بركي غناء أربعة فراسخ، ثم إلى أسبرة أربعة فراسخ، ثم إلى نوزكت ثمانية فراسخ، ثم إلى خرنجوان أربعة فراسخ، ثم إلى جول أربعة فراسخ، ثم إلى سارغ سبعة فراسخ، ثم إلى قرية خاقان التركي أربعة فراسخ، ثم إلى كنر ميراو فرسخان، ثم إلى نواكت فرسخان، ثم إلى بنجيكت فرسخان، ثم إلى

سوياب فرسخان، ثم إلى نوشجان الأعلى وهو حد الصين [١] خمسة عشر يوما على سير القوافل في المرعى والمياه ولبريد الترك سيره ثلثة أيام.

أبن خرداذبة: أما طريق فرغانة، فمن زامن إلى ساباط فرسخان، ثم إلى أسر وشنة سبعة فراسخ، فمن سمر قند إلى أسر وشنه ستة وعشرون فرسخا... ومن ساباط إلى غلوك ستة فراسخ، ثم إلى خحندة أربعة فراسخ، ثم إلى صامغار خمسة فراسخ، ثم إلى خاجستان أربعة فراسخ، ثم إلى مدينة باب ثلاثة ثم إلى فرغانة أربعة فراسخ فمن سمر قند إلى فرغانة ثلاثة وخمسون فرسخا... ثم إلى مدينا قبا عشرة فراسخ ثم إلى أوش عشرة فراسخ، ثم إلى أوزكند سبعة فراسخ، ثم إلى العقبة مسيرة يوم، يوم إلى أطباش مسيرة يوم، ثم إلى نوشجان الأعلى مسيرة ستة أيام، ثم إلى خاقان التفزعر مسيرة ثلاثة أِهر.

قدامه: أما طريق فرغانة فمن زامن إلى ساباط فرسخان، ثم إلى كركت ثلاثة فراسخ، ثم إلى غلوك أنداز ثلاثة فراسخ، ثم إلى خجندة أربعة فراسخ، ثم إلى صامغر خمسة فراسخ ثم إلى خاجستان أربعة فراسخ، ثم إلى ترمقان ستة فراسخ، ثم إلى باب ثلاثة فراسخ، ثم إلى فرغانة أربعة فراسخ، فذلك من سمر قند إلى فرغانة خمسة وثلاثون فرسخا... ومن فرغانة إلى قبا عشرة فراسخ، ثم إلى أوش سبعة فراسخ، ثم إلى يوزكند سبعة فراسخ، ثم إلى العقبة مسيرة يوم، ثم إلى أطباش مسيرة يوم، ثم إلى نوشجان الأعلى ست مراحل، ثم إلى تفزغر ستة أيام.

ابن خرداذبة وقدامه. الطريق من مرور إلى طخارستان، من مرو إلى فاز سبعة فراسخ، ثم إلى مهدي أباذ ستتة فراسخ، ثم إلى يحيى أباذ سبعة فراسخ سبع فراسخ ثم إلى الفريتين خمسة فراسخ، ثم إلى أسدباز سبعة فرساخ، ثم إلى حوزان ستة فراسخ (٥

---

(١) ويظهر أن هذا الطريق هو طريق الصين إذ يقول المقدسي (ص ٢٧٨) أنه كان بسمر قند باب يسمى باب الصين. ويقول الأستاذ آدم متز (جـ ١ ص ٣٥٠) إن مجاوزة هذا الإقليم الواقع بين الترك والصين كانت تتوقف على ما يكون فيه الأمن لأنه كان دائما معدن الخوف، ففي =

عند قدامة) ثم إلى قصر الأحنف أربعة فراسخ، ثم إلى مرو الروذ خمسة فراسخ ثم إلى أرسكن خمسة فراسخ، ثم إلى الأسراب سبعة فراسخ، ثم إلى كنجا باذ ستة فراسخ، ثم إلى الطلقان ستة فراسخ، ثم إلى كنسحاب خمسة فراسخ، ثم إلى أرغين خمسة فراسخ، ثم إلى قصر خوط خمسة فراسخ ثم إلى الغاريات خمسة فراسخ ثم إلى القاع تسعة فراسخ، ثم إلى الشبورقان تسعة فراسخ، ثم إلى السدرة ستة فراسخ «ليس بها إلا سكة بريد وخانات»، ثم إلى دست كرد خمسة فراسخ، ثم إلى الغور أربعة فراسخ ثم إلى بلخ ثلثه فراسخ [1].

قدامة: من بلخ إلى سياجرد خمسة فراسخ ثم نهر بلخ جيجون سبعة فراسخ.

ابن خرداذبة وقدامه: طريق الصغانيان، من الترمز إلى صريخان ستة فراسخ، ثم إلى دارزنجي ستة فراسخ، ثم إلى برنجي سبعة فراسخ، ثم إلى الصغانيان خمسة فراسخ، ثم إلى بونذا ستة فراسخ، (ثلاثة عند قدامه) ثم إلى همواران سبعة فراسخ ثم إلى أبان كسوان ثمانية فراسخ، ثم إلى شومان خمسة فراسخ، ثم إلى واشجرد أربعة فراسخ. ثم إلى الراست مسيرة أربعة أيام وهي أقصى خراسان من تلك النواحي.

ابن خرداذبة: الطريق من بلخ إلى طخارستان العليا. من بلخ إلى ولاري خمسة فراسخ، ثم إلى خلم خمسة فراسخ، ثم إلى بهار ستة فراسخ، ثم إلى بكبانول خمسة فراسخ، ثم إلى قارض عام سبعة فراسخ.

قدامه: من بلخ إلى طخارستان العليا. من بلخ إلى ولاري خمسة فراسخ، ثم إلى سواحي ثلاثة فراسخ، ثم إلى خلم ثلاثة فراسخ، ثم إلى بهار سبعة فراسخ، ثم إلى

= طوال العصر الإسلامي بل في أثناء القرن الرابع من الهجرة كان الناس لا يميلون إلى اتخاذ أقصر الكرق التي تخترق هذا الإقليم وهو الطريق الذي يجتاز فرغانة وحوص التاريم، وكان أهل الصين يؤثرونه في القرن الثامن الميلادي، وسار معه فيما بعد الرحالة الكبير ماركوبولو فلا نجد له ذكرا عند المؤلفين.

(١) من مرو إلى بلخ ماية وستة وعشرون فرسخا_ ابن خرداذبة ص ٣٢.

بكبانول خمسة فراسخ، ثم إلى قارض عامر سبعة فراسخ.

ثانيا: الطرق من نوحي:

الأهواز، وفارس، وأصبهان، وكرمان، وسجستان

قدامه: فمن بغداد إلى كلواذي فرسخان، وإلى المدائن خمسة فراسخ، وإلى سيب بني كوما سبعة فراسخ وإلى نعمانية أربعة فراسخ، وإلى جيل خمسة فراسخ، وإلى نهر سابس سبعة فراسخ، وإلى فم الصلح خمسة فراسخ، وإلى اسط سبعة فراسخ فذلك من واسط إلى مدينة السام خمسون فرسخا، ومن واسط إلى الرصافة عشرة فراسخ، وإلى القطر اثنا عشر فرسخا، وإلى نهر معقل ستة فراسخ، وإلى مدينة البصرة أربعة فراسخ، فذلك من واسط إلى البصرة خمسون فرسخا، ومن البصرة إلى الأبلة أربعة فراسخ، ثم إلى بيان خمسة فراسخ، ثم إلى حصن مهدي على الظهر ستة فراسخ، وفي الماء على نهر الجديد ثمانية فراسخ، ومن حصن مهدي إلى سوق الأربعاء أربعة فراسخ، ثم إلى المحول ستة فراسخ، ثم إلى دولاب ثمانية فراسخ، ثم إلى سوق الأهواز فرسخان، فذلك من البصرة إلى سوق الأهواز ستة وثلاثون فرسخا.

الطريق من سوق الأهواز إلى فارس

ابن خرداذبة		قدامه	
من الأهواز إلى أزم	٦ فرسخ	من سوق الإهواز إلى	
ومنها إلى عبدين	٥ –	حويرول	٢ فرسخ
ثم إلى رام هرمز	٦_	ثم إلى أزم	٤ –
ثم إلى الزط	٦ –	ثم إلى سابك	٤ –
– هليزان	٨ –	– قرية الحباري	٣ –
– أرجان	٨ –	– العين	٣ _
– داسين	٥ –	– رام هرمز	٤ –
– بندك	٦ –	– وادي الملح	٤ –

– خان حماد	٦ –	– الزط	٢ –
– الدرخويد	٤ –	– خابران	٣ –
– النوبندجان	٨–٦ –	– المستراح	٢ –
– كرجان	٥ –	– دهليوان	٢ –
– الخرارة	٧ –	– كبارستان	٣ –
– جوين	٥ –	– بسابك	٣ –
– شيراز	٥ –	– أرجان	٥ –
ومن سوق الأهواز إلى سوق دورق في الماء		– داسين	٧ –
١٨ فرسخ وعلى الظهر ٢٤ فرسخ		– بندق	٦ –
ومن شيراز إلى فسا	٣٠ فرسخ	– خان حماد	٦ –
		– أمران	٩ –
– فسا – درابجرد	١٨ –	– النوبندجان	٦ –
– شيراز – جوز	٢٠ –	– الكركان	٥ –
ومنها – البيضاء	٧ –	– الخرارة	٥ –
ومن شيراز – النوبندجان	٢٣ –	– خلان	٥ –
– اصطخر	١٢ –	– جويم	٤–
		– شيراز	٥ –
		فمن الأهواز إلى شيراز مائة فرسخ وفرسخان	

الطريق من شيراز إلى كرمان إلى سجستان

ابن خرداذبة		قدامة	
من شيراز إلى الراديان	٧ فرسخ	من شيراز إلى اصطخر	١٢ فرسخ
ثم إلى خرمه	٧ –	ثم إلى زياد أباذ	٨ –

– البرانجان	٤ –	– جوبانان	٤ –
– كند	٦ –	– قريةعبدالرحمن	٦ –
– الحيرة	٦ –	– قرية آلاس	٧ –
– بئر عقبة	٥ –	– صاهك	٦ –
– الميسكانان	٨ –	– سرمقان	٩ –
– صاهك	٨ –	– بشتخم	١٠ –
– سروشك	٧ –	– بيمند	١٠ –
– شهر بابك	٧ –	– السيرجان	٤ –
– قصر النعمان	٨ –	فمن شيراز إلى السيرجان	٧٦ –
– قرية إبان	٤ –	من السيرجان إلى قهستان	٦ –
– المرجان	٤ –	ثم إلى رباط كومخ	٨ –
– السيرجان	٤ –	– ساهوى	٦ –
– قهستان	٦ –	– أمسير	٤ –
– رستاق	٦ –	– خناب	٦ –
– الفبيرا	٥ –	– غبيرا	٤ –
– خان حوزان	٥ –	– كورم	٨ –
– خان خوخ	٦ –	– كشك	٨ –
– سروستان	٧ –	– رائين	١٠ –
– ديروزين	٥ –	– دارجين	٨ –
– بم	٩ –	– بم	١٢ –
– نرماشير	٧ –	– نرماسير	٨ –
– النهرج	٧ –		
ابن خرداذبة		قدامة	
ثم إلى الاحساء	٨ فرسخ	ثم إلى سجستان	١٠٠ فرسخ
– جرج منارة	٩ –	فمن السيرخان قصبة	١٨٨ فرسخ

		كرمان إلى سجستان	
– رباط بعيدة	٧ –		
– اسبيذ	٩ –		
– كراغان	٨ –		
– بئر القاضي	٨ –		
– راشد	٦ –		
– اونيشك	٤ –		
– – بردين	٨ –		
– – جارون	٥ –		
– – سجستان	٦ –		
ومن سجستان إلى هراة	٨٠ فرسخ		

قدامة: الطريق من شيراز إلى أصبهان.

من شيراز إلى نيسابور ٧ فرسخ ومن نيسابور إلى مائين ٧ فرسخ ثم إلى عقبى كيسا ٣ فرسخ ثم إلى خوسكان ٧ فرسخ إلى قصراين ٥ فرسخ ثم إلى اصطخران ٧ فرسخ ثم إلى خوارش ٦ فرسخ ثم إلى سراى ماس ومروة ٤ فرسخ ثم إلى كرو ٧ فرسخ ثم إلى الخان ٩ فرسخ ثم إلى اصبهان ٧ فرسخ. فذلك من شيراز إلى أصبهان ٧٠ فرسخ.

ومن أراد أن يأخذ من الأهواز إلى أصبهان فمن سوق الأهواز إلى عسكر مكرم ٨ فرسخ ثم إلى الميانج ٧ فرسخ ثم إلى ايذج ٣ فرسخ ثم إلى برنا بل ٤ فرسخ ثم إلى رستا كرد ٧ فرسخ ثم إلى شليل ٥ فرسخ ثم إلى خوز ستان ٩ فرسخ ثم إلى أربهشت أباذ ٤ فرسخ ثم إلى كرير كان ٧ فرسخ ثم إلى بابكان ٧ فرسخ ثم إلى الخان ٧ فرسخ ثم إلى أصهبان ٧ فرسخ فذلك من الأهواز إلى أصبهان ٨٥ فرسخ على طريق ايذج.

ابن خرداذبة: الطريق من شيراز إلى نيسابور.

من شيراز إلى الزرقان ٦ فرسخ ثم إلى قنطرة الكوسجان ٢ فرسخ ثم إلى أصطخر ٤ فرسخ ثم إلى برد ٣ فرسخ ثم إلى منزل فيه بئر ٩ فرسخ ثم إلى جه ٥ فرسخ ثم إلى الكرجار ٤ فرسخ ثم إلى كركولان ٥ فرسخ ثم إلى هندسك ٧ فرسخ ثم إلى مهراباذ ٣ فرسخ ثم إلى أبركويه ٣ فرسخ ثم إلى مهاجر ١٠ فرسخ ثم إلى قصر الأسد ١٥ فرسخ ثم إلى قصر الجوز ٧ فرسخ ثم إلى القلعة ٥ فرسخ ثم إلى يزد ٦ فرسخ ثم إلى أنجيرة ٦ فرسخ ثم إلى خراته ١٣ فرسخ ثم إلى ساغند ١٢ فرسخ ثم إلى رباط مُحَّد بن يزداد ٨ فرسخ ثم إلى خان اشتران ٦ فرسخ ثم إلى الحبائك ٧ فرسخ ثم إلى جواران ٤ فرسخ ثم إلى طمحرهان ٤ فرسخ ثم إلى الطبسين ٨ فرسخ ثم إلى قرية مُحَّد بن خرزاذ ٤ فرسخ ثم إلى سرخذ ٤ فرسخ ثم إلى أفريذرن ١٢ فرسخ ثم إلى زنجي ١٢ فريخ ثم إلى الطريثيث ٤ فرسخ ثم إلى خاسكير ٨ فرسخ ثم إلى قرى قهستان ٤ فرسخ ثم إلى الهوار ٦ فرسخ ثم إلى قبرسه ٦ فرسخ ثم إلى نيسابور ٦ فرسخ ومن نيسابور إلى هراة ٨٠ فرسخ.

ابن خرداذبة: الطريق من الأهواز إلى أصبهان.

من إيذج إلى جواردان ٣ فرسخ ثم إلى رستاجرد ٤ فرسخ ثم إلى سليدست ٦ فرسخ ثم إلى برين ٥ فرسخ ثم إلى سوجر ٦ فرسخ ثم إلى الرباط ٧ فرسخ ثم إلى خان الأبرار ٧ فرسخ ثم إلى أصبهان ٧ فرسخ.

ابن خرداذبة: الطريق من فارس إلى أصبهان.

من فارس إلى كام فيروز ٥ فرسخ ثم إلى كورد ٥ فرسخ ثم إلى تجاب ٤ فرسخ ثم إلى سمارم ٥ فرسخ ثم إلى سياه ٥ فرسخ ثم إلى البورجان ٧ فرسخ ثم إلى كيبالي ٦ فرسخ ثم إلى خان الأبرار ثم إلى أصبهان.

ابن خرداذبة: الطريق من أصبهان إلى الري.

من اليهودية إلى برخوار ٣ فرسخ ثم إلى رباط رز ٧ فرسخ ثم إلى أنبارز ٥ فرسخ ثم إلى أصعافه ٦ فرسخ ثم إلى الدنار ٤ فرسخ ثم إلى باذ ٥ فرسخ ثم إلى أبروز ٥ فرسخ ثم إلى صواخر ٩ فرسخ ثم إلى المقطعة ٥ فرسخ ثم إلى قارص ٩ فرسخ ثم إلى قم ٦ فرسخ ومن قارص إلى الدير ٧ فرسخ ثم إلى دزه ٧ فرسخ ثم إلى الري ٧ فرسخ.

ابن خرداذبة: الطريق من شيراز إلى درابجرد.

من شيراز إلى قرية بكار ثلاثة فراسخ ثم إلى الرمان ٤ فراسخ ثم إلى خورستان ٩ فرسخ ثم إلى كرم ٥ فرسخ ثم إلى فسا ٤ فرسخ ثم إلى طمستان ٤ فرسخ ثم إلى النستكان ٦ فرسخ ثم إلى فساروذ ٤ فراسخ ثم إلى درابجرد ٨ فراسخ.

ابن خرداذبة: الطريق من اصطخر إلى السيرجان مدينة كرمان.

من اصطخر إلى حفر ٧ فراسخ ثم إلى البحيرة ٥ فراسخ ثم إلى أسبنجان ٧ فراسخ ثم إلى قرية الآس ٤ فراسخ ثم إلى الصاهك الكبرى ٦ فراسخ ثم إلى قرية الملح ٩ فراسخ ثم إلى موريانه ٨ فراسخ ثم إلى روان ٣ فراسخ ثم إلى المرجان ١٠ فراسخ ومن شيراز إليها أحد وسبعون فرسخا. ثم إلى الروث ٣ فرسخ ثم إلى فرمان ٢ فرسخ ثم إلى السيرجان ١١ فرسخ فمن السرجان إلى السيرجان ١٦ فرسخ، ثم إلى نارما شير ٧ فرسخ ثم إلى النهرج ٤ فرسخ... ومن الرجان إلى بيمند ٤ فرسخ، ثم إلى السيرجان ٤ فرسخ ثم إلى الأرحاء ٦ فرسخ، ثم إلى أستور ٤ فرسخ ثم إلى خان سالم ٨ فراسخ، ثم إلى بأخته ٨ فراسخ، ثم إلى وادي قهندز ١٢ فرسخ، ثم إلى أسبيذنه ٤ فرسخ، ثم إلى المعدن ٤ فراسخ، ثم إلى الرباط ٤ فراسخ، ثم إلى جيرفت ٤ فرسخ ثم إلى بم ٢٠ فرسخ، ثم إلى نهر سليمان ٢٠ فرسخ، ثم إلى الدهقان ٥٠ فرسخ فمن جيرفت إلى أول عمل مكران ٤١ فرسخ.

ابن خرداذبة: الطريق من الفهرج إلى السند.

من الفهرج إلى الطايران ١٠ فراسخ، ثم إلى باسورجان ١٤ فرسخ. ثم إلى قرية يحيى بن عمرو ١٠ فرسخ، ثم إلى هذار ١٠ فرسخ، ثم إلى مدر ١٠ فرسخ، ثم إلى موسارة ٩ فرسخ ثم إلى درم باموية ٩ فرسخ، ثم إلى تجين ١٠ فرسخ إلى مقاطعة البلوص ٢٠ فرسخ، ثم إلى الجبل المالح ٦ فرسخ، ثم إلى النخل ٩ فرسخ ثم إلى قلمان ٦ فرسخ، ثم إلى سراي خلف ٤ فرسخ، ثم إلى قنزبور ٣ فرسخ ثم إلى حيس ٢٠ فرسخ ثم إلى سراي داران ١٠ فرسخ، ثم إلى الحيثه ١٠ فرسخ، ثم إلى قصدار ١٠ فراسخ ثم إلى الجور ٤٠ فرسخ، ثم إلى أسروشان ٤٠ فرسخ، ثم إلى قرية سليمان بن سميع ٢٨ فرسخ ثم إلى المنصورة ٨٠ فرسخ فمن أول عمل مكران إلى المنصورة ٣٥٨ فرسخ.

ابن خرداذبة: الطريق من البصرة إلى المشرق مع ساحل فارس.

من البصرة إلى جزيرة خارك ٥٠ فرسخ ثم إلى جزيرة لاوان ٨٠ فرسخ، ثم إلى جزيرة ابرون ٧ فرسخ، ثم إلى جزيرة خين ٧ فراسخ، ثم إلى جزيرة كيس ٧ فراسخ ثم إلى جزيرة بن كاوان ١٨ فرسخ، ثم إلى أرموز ٧ فراسخ، ثم إلى ثارا مسيرة ٧ يوم، ثم إلى الأيبل مسيرة ٨ يوم، ثم إلى مصب مهران نهر السند في البحر ٢ فرسخ ومن مهران إلى أوتكين ٤ يوم، ثم إلى كولي ٢ فرسخ، ثم إلى سندان ١٨ فرسخ، ثم إلى ملي ٥ يوم، ثم إلى بلين ٢ يوم، ثم إلى اللجة العظمى ٢ يوم ... ومن بلين تفرق الطرق في البحر. فمن أخذ مع الساحل فمن بلين إلى بابتن ٢ يوم، ثم إلى السنجلي وكبشان يوم، ثم إلى مصب كودافريد ٣ فرسخ، ثم إلى كيلكان واللوا وكنجخ ٢ يوم، ثم إلى سندر ١٠ فراسخ، ثم إلى أونشين ١٢ فرسخ، ثم إلى أبينه ٤ يوم... ومن بلين إلى سرنديب يوم ومن أراد الصين من سرنديب إلى جزيرة النكبالوس ١٠ يوم ثم إلى جزيرة كله ٦ يوم، ثم إلى جزيرة بالوس ٢ يوم، ثم إلى جزيرة جابه ٢ فرسخ، ثم إلى بلاد منبت العطر ١٥ يوم ... والطريق إلى الصين من مايط إلى قمار ٥ يوم، ثم إلى

الصنف ٣ يوم، ثم إلى لوقين ١٠٠ فرسخ، ثم إلى خانفو ٤ يوم في البحر و ٢ يوم في البر ثم إلى خانجو ٨ يوم، ثم إلى قانطو ٢٠ يوم.

ثالثا: الطريق إلى نواحي الشمال

قدامة		خرداذبة	
من سن سميرة إلى الدينور	٥ فرسخ	من الدينور إلى الخبارجان	٧ فرسخ
ثم إلى الخورجان	٩ –	ثم إلى تل وان	٦ –
– – تل وان	٦ –	– – سيسر	٧ –
– – سيسر	٧ –	– – أندراب	٤ –
– – اندراب	٤ –	– – البيلقان	٥ –
– – البيلقان	٥ –	– – برزة	٦ –
– – برزة	٦ –	– – سابرخاست	٨ –
– – سابرخاست	٨ –	– – المراغه	٧ –
– – المراغه	٧ –	– – داخرقان	١١ –
– – ده الخرقان	١١ –	– – تبريز	٩ –
– – تبريز	٩ –	– – مرند	١٠ –
– – مرند	١٠ –	– – الخان	٤–
		– – خوى	٦ –
من المراغه إلى كولسره	١٠ –	ومن المراغة إلى كورسره	١٠ –
ثم إلى سراة	١٠ –	ثم إلى سراة	١٠ –
– – النير	٥ –	– – النير	٥ –
– – أردبيل	٥ –	– – أردبيل	٥ –
– – خان بابك	٨ –	– – موقان	١٠ –
– – برزند	٦ –	ومن أردبيل إلى خشى	٨ –
– – بهلاب	١٢ –	ثم إلى برزند	٦ –

من أردبيل إلى موقان	٤ –	– – ساد راسب	٢ –
ومن برزة إلى تفليس	٢ –	– – زهركش	٢ –
		– – دو الرود	٢ –
قدامة		ابن خرداذبة	
ومن تفليس إلى جابروان	٦ فرسخ	ثم إلى البذ	١ فرسخ
ثم إلى نريز	٤ –	والطريق من برزند إلى صحراء بلاسجان وإلى ورثان آخر عمل أذرربيجان	١٢ فرسخ
– – أرمية	١٤ –	ومن المراغه إلى جنزه	٦ فرسخ
– – سلماس	٦ –	ثم إلى موس أباذ	٥ –
ومن مرند إلى الجار	٤ –	– – برزه	٤ –
ثم إلى خوى	٦ –	– – جابروان	٨ –
ومن أراد أرمنية من هذا الطريق فمن مرند إلى السرى ١٠ فرسخ على الوادي ومن الوادي إلى نشوى ١٠ فرسخ ومن نشوى إلى دبيل ٢٠ فرسخ... ومن أراد ورثان إلى برذعه ففمن ورثان قومام ٣ فرسخ ثم إلى البيلقان ٧ فرسخ ثم إلى برذعه ٣ فرسخ.		– – نريز	٤ –
		– – أرميه	١٤ –
		– – سكماس	٦ –
		ومن مرند إلى الوادي ١٠ فرسخ ثم إلى نشوي ١٠ فرسخ ثم إلى دبيل ٢٠ فرسخ.	
		ومن ورثان إلى درمان	٣ فرسخ
		ثم إلى البليقان	٩ –

		–	– برذعه	– ١٤
		–	– البذ	– ٣٠

رابعاً: الطريق إلى مكة:

ابن خرداذبة وقدامه. من بغداد إلى جسركوش ٧ فرسخ ثم إلى قصر ابن هبين ٥ فرسخ ثم إلى سوق أسد ٧ فرسخ ثم إلى شاهي سبعة فرسخ (٥ قدامه) ثم إلى الكوفة ٥ فرسخ ثم إلى القادسية ١٥ ميلا ثم إلى النديب ٦ ميلا ثم إلى المغيثة ٢٤ ميل ثم إلى القرعاء ٣٢ ميل ثم إلى واقصه ٢٤ ميل ثم إلى العقبة ٢٩ ميل ثم إلى القاع ٢٤ ميل ثم إلى زبالة ٢٤ ميل ثم إلى الشقوق ٢١ ميل (١٨ قدامه ثم إلى قبر العبادي ٢٩ ميل ثم إلى الثعلبية ٢٩ ميل ثم إلى الخزيمية ٣٢ ميل (٣٣ قدامه) ثم إلى الأجفر ٢٤ ميل ثم إلى فيد ٣٦ ميل ثم إلى توز ٣١ ميل (٣٣ قدامه) ثم إلى سميراء ١٣ ميل (١٦ قدامه) ثم إلى الحاجر ٣٣ ميل (٢٣ ميل قدامه) ثم إلى معدن ٣٤ ميل (٢٧ ميل قدامه).

ابن خرداذبة: فمن أخذ على المدينة فمن المعدن إلى العسيله ٤٦ ميل ثم إلى بطن نخل ٣٦ ميل ثم إلى الطرف ٢٢ ميل ثم إلى المدينة ٣٥ ميل.

قدامه: من النقره إلى مغيثة الماوان ٢٧ ميل ثم إلى الربذة ٢٤ ميل ثم إلى معدن بني سليم ١٩ ميل ثم إلى العمق ٢٦ ميل ثم إلى أناعية ٣٢ ميل ثم إلى المسلح ٣٤ ميل ثم إلى الغمرة ١٨ ميل ثم إلى ذات عرق ٢٦ ميل_ فإذا رجعنا إلى النقرة فمنها إلى العسيلة ٤٦ ميل ثم إلى بطن النخل ٣٦ ميل ثم إلى الطرف ٢٢ ميل ثم إلى المدينة ٣٥ ميل.

ابن خرداذبة وقدامة. الطريق من المدينة إلى مكة.

من المدينة إلى الشجرة ٦ ميل ثم إلى مكل ١٢ ميل ثم إلى السياله ١٩ ميل ثم إلى الرويثه ٣٤ ميل ثم إلى السقيا ٣٦ ميل ثم إلى الأيواء ٢٩ ميل ثم إلى الجحفة ٢٧

ميل ثم إلى قديد ٢٧ ميل (٢٦ قدامة) ثم إلى عسفان ٢٤ ميل ثم إلى بطخامر ٣٣ ميل (١٦ ميل) ثم إلى مكة ١٦ ميل.

ابن خرداذبة: طريق الجاده من معدن النقره إلى مكة.

من المعدن إلى مغيثة الماوان ٣٣ ميل ثم إلى الربذة ٢٤ ميل ثم إلى معجن بني سليم ٢٤ ميل ثم إلى السليلة ٢٦ ميل ثم إلى العمق ٢١ ميل ثم إلى الأفيعة ٣٢ ميل ثم إلى السلح ٣٤ ميل ثم إلى الغمرة ١٨ ميل ثم ذات عرق ٢٦ ميل ثم إلى بستان بني عامر ٢٢ ميل ثم إلى مكة ٢٤ ميل فمن بغداد إلى مكة ٣٧٥ فرسخ: ٨٢٧ ميل.

الطريق من مكة إلى اليمن

ابن خرداذبه	قدامة
من مكة إلى بئر ابن المرتفع ثم إلى قرن المنازل ثم إلى الغتق ثم إلى صفن ثم إلى تربه ثم إلى كري ثم إلى رنيه ثم إلى تبالـه ثم إلى بيشة بعطان ثم إلى جسداء ثم إلى بنات حرب ثم إلى يبمبم إلى كتنة ثم إلى الثجة ثم إلى سروم راح ثم إلى المهجرة ثم إلى عرقه ثم إلى صعده ثم إلى الأعشمية ثم إلى خيوان ثم إلى أثافت ثم	من الغمرة إلى الجدد ١٢ ميل وهو موضع البريد ثم إلى الفتق ثم إلى تربه ثم إلى صفر وهي منزل فيه داران لصاحب البريد في الصحراء ثم إلى كرادبه وبه منزل صاحب بريد ثم إلى زنية ثم إلى تبالة ثم إلى بيشه ثم إلى جسداء ثم إلى بنات حرم ثم إلى يبمبم ثم إلى كنتبه ثم إلى الثجة موضع البريد ثم
ابن خرداذبه	**قدامة**
إلى صنعاء فمن صنعاء إلى خيوان ٢٤ فرسخ ومن خيوان إلى صعده ١٦ فرسخ ومن صعده إلى المهجرة ٢٠ فرسخ فبين المهجرة وصنعاء ٦٠ فرسخ.	إلى شروم راح ثم إلى المهجرة ثم إلى عرقة ثم إلى صعده ثم إلى الأعمشية ثم إلى خيوان ثم إلى أثافت ثم إلى ربده ثم إلى صنعاء قصبة اليمن وهذا الطريق هو الذي عليه الأميال وهو طريق العوامل والعمال

ابن خرداذبه. من صنعاء إلى صدى وجعفي وشنوءه ٤٢ فرسخ ومن صدى إلى حضر موت ٣٠ فرسخ ثم صنعاء إلى حضر موت ٧٢ فرسخ. وزمن صنعاء إلى ذمار ١٦ فرسخ ثم إلى نسفان وكحلان ٨ فرسخ ومن نسفان إلى حجر وبدر ٢٠ فرسخ ومن حجر وبدر إلى قرية عدن ٢٤ فرسخ فمن صنعاء إلى عدن ٦٨ فرسخ.. ومن ذمار إلى علو يحصب ٨ فرسخ ثم إلى السحول ٨ فرسخ ثم إلى الثجة ٨ فرسخ ثم إلى الجند ٨ فرسخ.. فمن صنعاء إلى الجند ٤٨ فرسخ، ومن صنعاء إلى العرف ٨ فرسخ ثم إلى الهان ١٠ فرسخ ثم إلى جبلان ١٤ فرسخ، فمن صنعاء إلى جبلان ٣٢ فرسخ ومن جبلان إلى زبيد ورمع ١٢ فرسخ [١].

ولقد علق الأستاذ آدم متز [٢] على الطرق المتجهة صوب مكة بقوله: وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء الدول الإسلامية ولم تكن فريضة الحج وحدها التي تجذب هذه الجماعات بل كان يغريها أمان الطريق أيضاً في حماية قوافل الحج الكثيرة التي كانت تنهال إلى هناك من شتى النواحي، فمن ذلك أن كثيرين من تجار بغداد هاجروا مع قافلة الحج سنة ٣٣١ هـ إلى الشام ومصر وذلك لاتصال الفتن ببغداد وتواتر المحن عليهم من السلطان وعلى عكس ذلك كان البعض يفرون من الشام من البوزنطيين ففي سنة ٣٣٥ هـ ألتحق كثير من أهل الشام بقافلة الحج وقطعوا الطريق الشاسع من الشام إلى العراق مارين بمكة وكان فيهم قاضي طرسون ومعه مائة وعشرين ألف دينار.

خامسا: الطريق إلى نواحي المغرب:

ابن خرداذبة وقدامه. الطريق من بغداد إلى الرقه. من بغداد إلى السيلحي ٤ فرسخ ثم إلى الأنبار ٨ فرسخ ثم إلى الرب ٧ فرسخ ثم إلى هيت ١٢ فرسخ ثم إلى

---

(١) وهناك طرق كثيرة من عواصم الأمصار إلى مكة ذكرت فيها مراكزها دون مسافاتها ورغبنا عن ذكرها هنا كالطريق من مصر إلى مكة ثم من دمشق إلى مكة، ثم من البصرة إلى مكة، ثم من اليمامة إلى مكة ألخ.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرم الرابع الهجري جـ ٢ ص ٣٥٣.

الناووسه ٧ فراسخ ثم إلى آلوسه ٧ فرسخ ثم إلى الفحيمة ٦ فرسخ ثم إلى النهية ١٢ فرسخ ثم إلى الدازقي ٦ فرسخ ثم إلى النرضه ٦ فرسخ ثم إلى وادي السباع ٦ فرسخ ثم إلى خليج بني جميع ٥ فرسخ ثم إلى الناش ٧ فرسخ (٦ قدامه) ثم إلى نهر سعيد ٨ فرسخ ثم إلى الجروان ١٤ فرسخ ثم إلى المبارك ١١ فرسخ ثم إلى الرقه ٨ فرسخ.

قدامه: طريق دمشق من الرصافة. من الرقه إلى الرصافة ٨ فرسخ ومن الرصافة طريقان أحدهما إلى دمشق في البريه وآخر على حمص في العمران فأما طريق العمران فمن الرصافة إلى الزراعة ٤٠ ميل ثم إلى قسطل ٣٦ ميل ثم إلى سليمة ٣٠ ميل ثم إلى حمص ٢٤ ميل ثم إلى شمسين الشعر ١٨ ميل ثم إلى قارا ٢٢ ميل ثم إلى النبك ١٢ ميل ثم إلى القطيفة ٢٠ ميل ثم إلى دمشق ٢٤ ميل.. فأما طريق البريه. من الرصافة إلى دمشق. فمن الرصافة إلى الحزبه ٣٥ ميل واسمها بطلاميا ثم إلى النديب ٢٤ ميل ثم إلى نهيا ٢٠ ميل ثم إلى القريتين ٢٠ ميل ثم إلى جرود ٣٦ ميل ثم إلى دمشق ٣٠ ميل ومن سليمه إلى دمشق في طريق يعرف بالأوسط من سليمه إلى فرعايا ١٨ ميل ثم إلبي ماء شريك ٢٠ ميل ثم إلى صدد ١٨ ميل ثم إلى النبك ٣٥ ميل.

ابن خرداذبة: من حمص إلى دمشق. من حمص إلى جوسيه ١٦ ميل ثم إلى قارا ٣٠ ميل ثم إلى النبك ١٢ ميل ثم إلى القطيفة ٢٠ ميل ثم إلى دمشق ٢٤ ميل.

قدامة: من حمص إلى دمشق. من حمص إلى جوسيه ١٣ ميل ثم إلى ابعاث ٢٠ ميل ثم إلى بعلبك ٣ ميل ثم إلى عين الجر ٢٠ ميل ثم إلى القرعون ١٥ ميل ثم إلى العيون ٢٠ ميل ثم إلى طبريه ١٥ ميل.

ابن خرداذبه وقدامه: من دمشق إلى طبريه. من دمشق إلى المكس ١٢ ميل ثم إلى جاسم ٢٤ ميل ثم إلى نيف ٢٤ ميل ثم إلى طبريه ٦ ميل.

ابن خرداذبه وقدامه. من طبرية إلى الرملة. من طبريه إلى اللجون ٢٠ ميل ثم إلى قلنسوه ٢٠ ميل ثم إلى الرملة ٢٤ ميل.

قدامة وابن خرداذبة: من مدينة السلم إلى البردان ٤ فرسخ ثم إلى عكبرا ٥ فرسخ ثم إلى باممشا ٣ فرسخ ثم إلى القادسية ٧ فرسخ ثم إلى الكرخ ٥ فرسخ ثم إلى جبلتا ٧ فرسخ ثم إلى السورقانبه ٥ فرسخ ثم إلى بارما ٥ فرسخ ثم إلى السن ٥ فرسخ ثم إلى الحديثة ١٢ فرسخ ثم إلى طهمان ٧ فرسخ ثم إلى الموصل ٧ فرسخ ثم إلى بلد ٧ فرسخ ثم إلى باعيناثا ٧ فرسخ ثم إلى برقعيد ٦ فرسخ ثم إلى أذرمة ٦ فرسخ ثم إلى تل فراشه ٣ فرسخ ثم إلى نصيبين ٤ فرسخ.... ومن نصيبين مفرق طريقتين أحدهما ذات اليمين إلى نواحي الشمال المقاربة لما ذكرنا من المشرق إليها والآخر إلى سائر نواحي المغرب. الأول من نصيبين إلى دارا ٥ فرسخ ثم إلى كفر توثا ٧ فرسخ ثم إلى قصر بني نازع ٧ فرسخ ثم إلى آمد ٧ فرسخ ثم إلى ميافارقين ٥ فرسخ ثم إلى إرزن ٧ فرسخ... والطريق من آمد إلى الرقة ذات الشمال منها إلى الشمشاط ٧ فرسخ ثم إلى تل جوفر ٥ فرسخ ثم إلى جرنان ٦ فرسخ ثم إلى بامقدا ٥ فرسخ ثم إلى جلاب ٧ فرسخ ثم إلى الرها ٤ فرسخ ثم إلى حران ٤ فرسخ ثم إلى تل محرا ٤ فرسخ ثم إلى باجروان ٧ فرسخ ثم إلى الرقة ٣ فرسخ... وأما الطريق من نصيبين إلى الرقة فمنها إلى دارا ٥ فرسخ ثم إلى كفر توثا ٧ فرسخ ثم إلى العراده ٣ فرسخ ثم إلى رأس عين ٤ فرسخ ثم إلى الجارود ٥ فرسخ ثم إلى حصن مسلمه ٦ فرسخ ثم إلى باجروان ٧ فرسخ ثم إلى الرقه ٣ فرسخ... فأما الطريق من بلد ذات الشمال إلى قرقيسيا وسنجار وطريق الف ات فمن بلد إلى تل أعفر ٥ فرسخ ثم إلى سنجار ٥ فرسخ ثم إلى عين الجبال ٥ فرسخ ثم إلى سكير العباس ٩ فرسخ ثم إلى الغدين ٥ فرسخ ثم إلى ماكسين ٦ فرسخ ثم إلى قرقبسيا ٧ فرسخ.. وأما الطريق من الرقة الثغور فمن الرقه إلى عين الروميه ٦ فرسخ ثم إلى تل عبدا ٧ فرسخ ثم إلى سروج ٧ فرسخ ثم إلى المزنبه ٦ فرسخ ثم إلى سميساط ٦ فرسخ ثم إلى حصن منصور ٦ فرسخ ثم إلى ملطية ١٠ فرسخ ثم إلى كمخ ٤ فرسخ ثم إلى زبطره ٤ فرسخ ثم إلى الحدث ٤ فرسخ ثم إلى مرعش ٥ فرسخ.

الطريق من الرملة إلى مصر

ابن خرداذبة	قدامة
من الرملة إلى أوزجود ١٢ ميل ثم إلى غزة ٢٠ ميل ثم إلى رفح ١٦ ميل ثم إلى العريش ٢٤ ميل ثم إلى الواردة ١٨ ميل ثم إلى الثعامه ٢٨ ميل ثم إلى العذيب ٢٠ ميل ثم إلى الفرما ٢٤ ميل ثم إلى جرجير ٣٠ ميل ثم إلى الفاضرة ٢٤ ميل ثم إلى مسجد قضاعه ١٨ ميل ثم إلى بلبيس ٢١ نيل ثم إلى الفسطاط ٢٤ ميل.	من الرملة إلى ازجوج ١٢ ميل ثم إلى غزة ٢٠ مسل ثم إلى رفح ١٦ ميل ثم إلى العريش ٢٤ ميل ومن العريش يفترق إلى اثنين: طريق الحفار من العريش إلى الوراده ١٨ ميل ثم إلى البقارة ٢٠ ميل ثم إلى الفرما ٢٤ ميل. وأما طريق الساحل فمن العريش إلى المخلصة ٢١ ميل ثم إلى القصر ٢٤ ميل ثم إلى الفرما ٢٤ ميل ومنها طريق الصيف إلى جرجير ٣٠ ميل ثم إلى فاقوس الفاضرة ٢٤ ميل ثم إلى مسجد قضاعه ١٨ ميل ثم إلى بلبيس ٢١ ميل ثم إلى مصر ٢٤ ميل ... ومنها طريق الشتاء إلى المرصد ومن المرصد إلى الفاضرة ٣٤ ميل.

سادسا: الطريق من الفسطاط إلى برقة وأفريقية والغرب:

ابن خرداذبة وقدامه. من الفسطاط إلى الإسكندرية من الفسطاط إلى ذات السلاسل ٢٤ ميل ثم إلى مرنوط ٣٠ ميل ثم إلى كوم سويد ٢٢ ميل ثم إلى الرافقة ٢٤ ميل ثم إلى قرسطا ٣٠ ميل ثم إلى كربون ٢٤ ميل ثم إلى الإسكندرية ٢٤ ميل.

ابن خرداذبة وقدامه: من الإسكندرية إلى برقة. من الإسكندرية إلى نونيه ٢٠ ميل ثم إلى ذات الحمام ١٨ ميل ثم إلى جنة الروم ٣٤ ميل ثم إلى الطاحونة ٣٠ ميل ثم إلى كنائس الجون ٢٤ ميل ثم إلى جب العوسج ٣٠ ميل ثم إلى سكة الحمام ٣٠ ميل ثم إلى قصر الشماس ٢٥ ميل ثم إلى خربة القوم ١٥ ميل (٢٥ قدامه) ثم إلى خرائب أبي حليمة ٣٥ ميل ثم إلى العقبة أو المسقية ٢٠ ميل ثم إلى مرج الشيخ ٢٠ ميل ثم إلى جب عبد الله ٣٠ ميل ثم إلى جياد الصغير ٣٠ ميل ثم إلى جباب الميدعان ٣٥ ميل ثم إلى وادي مخيل ٣٥ ميل ثم إلى جب جلمان ٣٥ ميل ثم إلى

وادي المغار ٣٥ ميل ثم إلى ناكيست ٢٥ ميل ثم إلى البدانه ٢٥ ميل ثم إلى برقة ٦ ميل.

ابن خرداذبة وقدامه. من برقة إلى طرابلس: من برقة إلى ملتنيه ٢٥ ميل (١٥ قدامه) ثم إلى قصر العسل ٢٩ ميل ثم إلى أبوان ١٢ ميل ثم إلى سلوق ٣٠ ميل ثم إلى برمست ٢٤ ميل ثم إلى بلبو ٢٠ ميل ثم إلى أجدابيه ٢٤ ميل ثم إلى حي نجوه (حرفن) ٢٠ ميل ثم إلى سبخه منهوسا ٣٠ ميل ثم إلى قصر العطس ٣٤ ميل ثم إلى اليهوديتين ٣٤ ميل (٢٤ قدامه) ثم إلى قصر العبادي ٣٤ ميل ثم إلى سرت ٣٤ ميل ثم إلى القرنين ١٣ ميل (١٨ قدامه) ثم إلى قصور حسان ٣٠ ميل ثم إلى المنصف ٤٠ ميل ثم إلى تورغا ٢٤ ميل ثم إلى دعوعا ٢٠ ميل ثم إلى ونداسا ١٨ ميل ثم إلى المجتنى ٢٢ ميل ثم إلى وادي الرمل ٢٠ ميل ثم إلى طرابلس ٢٤ ميل.

ابن خرداذبة وقدامه. من طرابلس إلى القيروان: من طرابلس إلى بترة ٢٤ ميل ثم إلى بئر الجمالين ٢٠ ميل ثم إلى قصر الزرق ٣٠ ميل ثم إلى بادرخت ٢٤ ميل ثم إلى النوارة ٣٠ ميل ثم إلى قابس ٣٠ ميل ثم إلى بئر الزيتونة ١٣ ميل (١٨ قدامه) ثم إلى كبابه ٢٤ ميل ثم إلى الكبس ٣٠ ميل ثم إلى الثيروان ٢٤ ميل.

ابن خرداذبة. من القيروان إلى قرطبة: من أفريقية (القيروان) إلى تونس مرحلتان على البغال وبين تونس وبين الأندلس أرض البحر وهو هناك ٦ فرسخ ثم إلى قرطبة مدينة الأندلس مسيرة ٦ يوم.

٣- السكك:

يقول Sprenger[١] أن كلمة سكة مستمد معناها من كلمة حارة (طريق) وأن التعبير العربي والرسمي عن كلمة محطة البريد هو «سكة_ واجمع سكك». وكانت

(١) مقدمة Sprenger.

المسافة بين محطة وأخرى يطلق عليها رسميا كلمة سكة [١]. أما التعبيير الشائع المستعمل بين الناس فكانت كلمة بريد. اما في مصر فكانت محطات البريد تسمى مراكز البريد وقد عرفها القلقشندي [٢] بأنها الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريدية فيها فرسا بعد فرس. أما مؤرخوا العرب فأطلقوا عليها كلمة منازل. من ذلك ما ذكره الطبري [٣] عن المنصور أنه لما دخل آخر منزل نزله من طريق مكة نظر في صدر البيت الذي نزل فيه فإذا فيه مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم.

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت سنوك وأمر الله لابد واقع

أبا جعفر هل كاهن أو منجم لك اليوم من حر المنية مانع

فدعا المنصور بالمتولي لإصلاح المنازل فقال له ألم آمرك ألا يدخل المنول أحد من الدعاة، قال يا أمير المؤمنين والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها فقال اقرأ ما في صدر البيت مكتوبا. قال ما أرى صدرى البيت شيئا. فأملي البيتين فكتبا عنه، فالتقتا إلى صاحبه فقال اقرأ لي آية من كتاب الله جل وعز تشوقني إلى الله عز وجل فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون». فأمر به فوجي فكاه وقال ما وجدت شيئا تقرأه غير هذه الآية، فقال يا أمير المؤمنين محى القرآن من قلبي غير هذه الآية؛ فأمر الرحيل عن ذلك المنزل تطيرا مما كان وركب فرسا فلما كان في الوادي الذي يقال له سقر، وكان آخر منزل في طريق مكه كبابه فرسه فدق ظهره ومات فدفن ببئر ميمون... يفهم من هذا أن طريقة العرب كانت عبارة عن تقسيم كل طريق إلى محطات أو مواقف أفراس أو هجن فيستدل عمال البريد أفراسهم بأفراس مستريحة في كل موقف ألتماساً للسرعة [٤]. وهذا الموقف ورد

---

(١) في لسان العرب (جـ ٤ ص ٥٣) السكة موضع كان يسكنه الفيوج المرتبون من بيت أو قبة أو رباط وكان يرتب في كل سكة بغال وبعد ما بين السكيتن فرسخان وثيل أربعة.

(٢) القلشقندي جـ ١٤ ص ٢٧٢.

(٣) الطبري مجلد III جـ ١ ص ٤٤٩.

(٤) تاريخ التمدين الإسلامي جـ ١ ص ١٨٢_ Cambridge Med .Hist. Vol 4 P.283.

في كتبهم تحت اسم «السكه» زقد بلغ عدد هذه السكك أيام الإمبراطورية العباسية ٩٣٠ سكة كما ذكر علماء المسالك [١]. وإلى القاريء إحصاء رسمي عن أماكن سكك البريد وطرقه، ولو أنها لا تخلو من بعض التكرار كما وصلتنا عن اثنين فقط من جغرافي القرن الثالث الهجري وهما ابن حرداذبه وقدامه:

سكك طريق المشرق

ابن خرداذبة: من سرى من رأي إلى الدسكره ١٢ سكة ومن بغداد إلى الدسكره ١٠ سكة ثم إلى جلولا ٤ سكة ثم إلى حلوان ١٠ سكة ثم إلى نصير أباد ٩ سكة ثم إلى قرمسين ٦ سكة، ثم إلى خردان ١٠ سكة، ثم إلى همذان ٣ سكة، ثم إلى مسكرجه ٢١ سكة، ثم إلى الري ١١ سكة، ثم إلى قومس ٢٣ سكة، ثم إلى نيسابور ١٩ سكة.

قدامة: من بغداد إلى دسكره ١٠ سكة، ثم إلى جلولا ٤ سكة، ثم إلى حلوان ١٠ سكة ثم إلى قصر أباد المحطة الأخيرة في هذه المقاطعة ٩ سكة، ثم إلى قرماسين ٦ سكة، ثم إلى جدار آخر محطة في منطقة البريد إلى دينور ١٠ سكة، ثم إلى مدينة همذان ٣ سكة ثم إلى مشكوبه آخر محطة في مقاطعة همذان في اتجاه الري ٢١ سكة.

ابن خرداذبة: من سامرا إلى واسط على البريد ما يأتي:

من سامرا إلى عكبرة تسع سكك ومنها إلى بغداد ٦ سكك ومنها إلى المدائن ٣ سكة، ثم إلى دير العاقول ٤ سكة، ثم إلى جرجرايا ٨ سكة، ثم إلى جبل ٥ سكة، ثم إلى واسط ٨ سكة_ ومن بغداد إلى واسط ٢٥ سكة، (٤٠ ؟) وبين وساط والحدود من الأهواز ٢٠ سكة، ثم إلى نوبندجان ١٧ سكة، ثم إلى شيراز ١٢ سكة، ثم إلى اصطخر ٥ سكة.

قدامة: من بغداد إلى المدائن ٣ سكة، ثم إلى جرجرايا ٨ سكة، ثم إلى سكة

---

(١) ابن خرداذبة ص ١٥٣– وما ذكرناه من سكك فهي عنه ولا داعي لتكرار اسمه وصفحات الكتاب.

جبل ٥ سكة، ثم إلى واسط ٨ سكة، ثم إلى سكة باذبين ٣ سكة، ديرمانيه في نهاية شواطي الدجلة نحو الأهواز ١٣ سكة، ثم إلى نهر تبرين ٤ سكة، ثم إلى سوق الأهواز ٣ سكة، ثم إلى البرجان آخر محطة في هذه المقاطعة من الأهواز ١٤ سكة، ثم من الرجان لغاية سكة الرجان سكة واحدة، ثم من سكة الرجان لغاية نوبندجان ١٧ سكة، ثم إلى شيراز ١٢ سكة، ثم إلى اصطخر ٥ سكة_ وسكك طريق العادل من بادس إلى البصرة فيه فيوج مرتبون ومن بادس إلى عبدس ٥ سكة، ومن عبدس إلى سكة المدار ٨ سكة، ومن المدار إلى البصرة وكانت فيها دواب البريد ٣ سكة_ السكك على الطريق إلى بادس من البصرة من بادس إلى ٥٠٠٠٠ سكة ثم إلى سكة من دار (أ) ١٨ سكة ثم إلى البصرة ٣ سكة وكان بها خيول لحمل البريد.

قدامة: من حلوان حتى شهر زور ٩ سكة ومن حلوان حتى مدينة السير وان ٦ سكة، ثم إلى سر سميرة ٤ سكة ثم إلى دينور سكتين ثم إلى يزدجرد على حدود دينور في الطريق إلى زنجان سكة ومن سكة يزدجرد إلى زنجان ١١ سكة_ ومن زنجان إلى المراغة ١١ سكة ومن المراغة ١١ سكة ومن المراغة إلى اليانج سكتان، ثم إلى أردبيل ١١ سكة ومن سكة ورثان آخر نقطة من أعمال أذربيجان ١١ سكة، ومن سكة ورثان إلى مدينة برذعة ٨ سكة، ومن سكة برذعة إلى المنصورة ٤ سكة، ومن برذعه إلى مدينة المتوكلية ٦ سكة ومن المتوكلية إلى تفليس ١٠ سكة، ومن البرذعة إلى الباب والأبواب ١٥ سكة، ومن برذغة إلى وبيل ٧ سكة.

ابن خرداذبة. من حلوان إلى شهر زور ٩ سكة ومن حلوان إلى شيروان ٧ سكة ومن حلوان إلى الضيمرة ٤ سكة.

ابن خرداذبة: الطريق إلى أذربيجان وأرمينيه. من سميرة إلى الدينور ٢ سكة والدينور إلى زنجان ٢٩ سكة ثم إلى المراغة ١١ سكة ثم إلى الميانج ٢ سكة ثم إلى أردبيل ١١ سكة ثم ورثان وهي آخر عمل أذربيجان ١١ سكة_ ومن ورثان إلى برذعة ٨ سكة ثم إلى المنصورة ٤ سكة ومن برذعة إلى تفليس ١٠ سكة ومن البرذعة

إلى الباب والأبواب ١٥ سكة ومن البرذعة إلى دابيل ٧ سكة.

قدامه وابن خرذابة: الطريق نحو نهاوند من مديران في جيبت من دينور إلى نهاوند ٣ سكة.

قدامة. سكك الطريق العادل إلى قم وأصبهان. من الزرقاء إلى قم ٣ سكة ومن قم إلى أصبهان ٤٧ فرسخ ومن قم إلى سكة الرود آخؤ عملها مما يلي أصبهان ١٣ سكة والطريق العادل من الدكان إلى قزرين من دكان إلى قرزين سكة.

ابن خرداذبة: من حمدان إلى قم ٤٧ سكة ومن الورقاء إلى قم ٣ سكة ومن قم إلى أصبهان ١٦ سكة ومن مادران إلى نهاوند ٣ سكة.

سكك طريق المغرب

قدامة: من بغداد إلى البروان ٢ سكة ثم إلى عكبرة ٤ سكة ثم إلى سامرة ٧ سكة ثم إلى جبلتا ٧ سكة ثم إلى السن ١٠ سكة ثم إلى الحديثة ٩ سكة ثم إلى الموصل ٧ سكة ثم إلى بدء بلدجبت ١ سكة ثم إلى حدود مقاطعة الموصل حتى سكة بلد ٣ سكة ومن بلد حتى أذرمه ٩ سطة ثم إلى نصيبين ٦ سكة ثم إلى كفر توتا ٣ سكة ثم إلى رأس عين ١٠ سكة ثم إلى الرقة ١٥ سكة ثم إلى النقيرة نهاية المقاطعة من دير نصر ١٠ سكة ومن النقير إلى منبج ٥ سكة ثم إلى حلب ٩ كسة ثم إلى قنسرين ٣ سكة ثم إلى مبدأ مقاطعة حمص ١ سكة. ومن سكة المرج وهي أول سكة تلي عمل قنسرين إلى حوران ٧ سكة ثم إلى حماة ٢ سكة ثم إلى حمص ٤ سكة ثم إلى المحمدية ٤ سكة ثم إلى بعلبك ٥ سكة ثم إلى دمشق ٩ سكة ثم إلى دير أيوب في نهاية هذه المقاطعة ٧ سكة ومن دير أيوب إلى طبرية ٦ سكة ثم إلى اللاجون في مقاطعة الأردن ٤ سكة ثم إلى الرملة قصبة فلسطين ٩ سكة ثم إلى سكة المغنية آخر عمل فسلطين ٩ سكة ثم إلى نهاية الطريق من جنار حيت تقع سكة البارورية ١٧ سكة.

ابن جرداذبة: من سامرا حتى جبلتا ٧ سكة ثم إلى السن ١٠ سكة ثم إلى

الحديثة ٩ سكة ثم إلى لموصل ٧ سكة ثم إلى بلد ٣ سكة ثم إلى أذرمة ٩ سكة ثم إلى نصيبين ٦ سكة ثم إلى كفر توتا ٣ سكة ثم إلى رأس العين ١٠ سكة ثم إلى الرقة ١٥ سكة ثم إلى النقيرة آخر عمل ديار مضر ١٠ سكة ثم إلى مانبج ٥ سكة ثم إلى حلب ٩ سكة ثم إلى قنسرين ٣ سكة إلى صور ١٠ سكة ثم إلى حماه ٢ سكة ثم إلى حمص ٤ سكة ثم إلى خرشنة ٤ سكة ثم إلى بعلبك ٦ سكة ثم إلى دمشق ٩ سكة ثم إلى دير أيوب ٧ سكة ثم إلى طبرية الأردن ٦ سكة ثم إلى اللجون ٤ سكة ثم إلى الرملة وهي قصبة فلسطين ٩ سكة ثم إلى الجفار ١٧ سكة ثم إلى البارورية ١٧ سكة.

ابن خررداذبة وقدامة: من الفسطاط إلى الإسكندرية ١٣ سكة ثم إلى جب الرمل على الطريق إلى برقة ٣٠ سكة.

قدامة: سكك طريق العادل من منبج إلى الثغور الشامية. من حلب إلى قنسرين ٧ سكة ثم إلى أنطاكيا ٤ سكة ثم إلى اسكندرونه ٤ سكة إلى المصيصة ٧ سكة ثم إلى أطنه ٣ سكة ثم إلى طوسوس ٥ سكة ومن المصيصة إلى عين زربه ٢ سكة_ الطريق من طبريه إلى صور ٧ سكة.

ابن خرداذبة: الطريق من حلب إلى الثغور الشامية. من حلب إلى قنسرين ٧ سكة ثم إلى أنطاكية ٤ سكة ثم إلى الأسكندرونه ٤ سكة ثم إلى المصيصة ٧ سكة ثم إلى أذنه ٣ سكة ثم إلى طرسون ٥ سكة.

قدامة: الطريق العادل من نصيبين أرزن وخلاط. من نصيبين إلى مدينة أرزن ١١ سكة ومن بدليس إلى خلاط ٤ سكة.

الطريق العادل من كفرتوتا إلى سميساط. من كفر توتا إلى آمد ٧ سكة ومن آمد إلى تل جوفر سكتان ثم إلى سميساط ٦ سكة ثم إلى قاليقلا ٢ سكة.

الطريق العادل من ديار مضر إلى طريق الفرات. من الرقة إلى سكة ديار آخر عمل ديار مضر ٩ سكة.

الطريق العادل من حمص مسلمة إلى الثغور الجزرية على حران والرها من الحصن إلى حوارن ٣ سكة ومن حران إلى الرها ٢ سكة ومن الرها إلى سميساط ٣ سكة ومن سميساط إلى حصن منصور ٢ سكة.

ابن خرداذبة: سكك اليمن. بين غمره وصنعاء ٤٩ سكة ومن صنعاء إلى ذمار ٤ سكة وبين ذمار وعدن ٧ سكة وبين زمار والجند ٤ سكة وبين صنعاء ومأرب ٧ سكة وبين مأرب وعبدل وهي حضر موت على الإبل ٩ سكة.

قدامة: هذه السكك رتبت فيها الرجال لحمل الخرائط وجعلت رسماً للبريد.

هذه سكك البريد التي قال عنها شبرنجر [١] أنها لم تكن أفضل منها في عهد الأتراك، فلم يكن الإنسان يستطيع البقاء فيها طويلا، ولم تكن تتألف إلا من سقيفة صغيرة من القش، ومن شجرتين يستظب تحتهما زوج من الخيول أو البغال. وهذه السقيفة المغطاه في حقيقة الأمر مفتوحة من ثلاث جهات وإلى جوارها بعض العشش حيث يسكن الأشخاص الذين يعتنون بالدواب. وعلى الرغم من أن ابن خرداذبة [٢] تحدث عن محطات البريد المزودة بالخيول فإنه لا يزال هناك محل للظن بأن هذه كانت وقفا على الأشغال الهامة التي تستخدم بريدا خاصا، وإلا فإنه في بلاد فارس بصفة خاصة قلما كان الخطاب فيما ينقلل من محطة بريد إلى أخرى بواسطة خيل متجددة. نستنتج من هذا أن الأستاذ المستشرق ينكر بصراحة العبارة وجود نظام ثابت للبريد إلا أن يكون هناك خطاب من الدرجة الأولى من الأهمية موجها من الخليفة أو بأمره أو بأمر وزيره إلى ناحية من النواحي، أو أن يكون هناك خبر في منتهى الخطورة يراد إبلاغه للخلافة. فهناك وهنا فقط ينقل الخطاب من محطة إلى محطة بواسطة خيول تتجدد في كل مرحلة. وفيما خلا هذه الأحوال الخاصة القليلة فلا محل للقول بوجود نظام بوجود نظام كامل ثابت للبريد بأكثر مما عليه الحال في الهند المتخلفة

---

(١) مقدمة **Sprenger** ص ٢، ٣.

(٢) ابن خرداذبة ص ٢٢٥، ٢٢٦.

والإمبراطورية العثمانية التي كانت في حالة الذبول.

وإذا جاز الخطأ على ابن خرداذبه في المسألة المالية فإننا قد نصدق ذلك لأنه لم يكن هناك ميزانيات تنشر على رءوس الأشهاد كما هو حالنا اليوم. أما كونه يشير إلى ما ورد عن ابن خرداذبة من وجود محطات للبريد بها الخيول الكثيرة. يشير إلى ذلك بكثير من الشك والافتراض فهذا أمر لا جدال يجب أن يصدق فيه المؤرخ العربي لأنه أمر يشاهد بالعين. وهو لم يكن يعرف أن أحدا سيحاول في نقبل الشرقيين أن ينكر وجود نظام كامل للبريد فيعمل على المغالاة والتضخيم. بل إن ابن خرداذبة ثقة في هذه الناحية لأنه كان موظفا للبريد بالذات وهذا الموضوع من أخص وظيفته. فالخيول كانت موجودة إذن، ولو أنه من غير المعقول أن توجد في جميع المحطات أرقام ضخمة من الخيول. بل المعقول أن تكون هناك محطات رئيسية وأخرى فرعية وحسبي أن أشير إلى عبارة ابن خلدون [1] وقد سبق ذكرها في الفصل الثاني «فأبعثني على أربعين من دواب البريد، وأبعث إلي كل يوم أربعين رجلا مددا...».

هذه النص يدلنا على أن قائله أراد أن يبادر إلى ميدان القتال بأسرع ما يمكن فلم يكن أمامه إلا أن يستخدم أسرع الوسائل في ذلك الوقت، فاقترح دواب البريد أو بالأحرى أن يكون انتقاله على أسلوب نظام البريد. إذ لو كان الأمر مجرد خيول عادية وانتقال عادي لما كان الأمر يأخذ صورة النجدة به ولا معنى لتخصيصه بأربعين، فلا جدال أن الدولة تستطيع أن تجهز فورا مائتي أو ألف فارس أو أكثر يسافرون فورا، وإنما اقتصر على أربعين من دواب البريد لأنه لا يمكن أن يكون هناك أكثر من هذا العدد من الخيول المجهزة للبريد في المحطات المختلفة. وإذن فنحن أمام نص يدلنا على أن قوافل البريد السريعة كان ينقل عليها فرق صغيرة من الجيش يبلغ عددها أحيانا الأربعين... وقد زاد عدد الخيول المجهزة عن الأربعين فكان في بعض

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٨٩.

المحطات أيام تيمورلنك [1] مائة رأس، وفي غيرها أكثر من ذلك حتى إذا أراد تيمور أن يعود مسرعا وجد في المحطات ما يحتاجه من الخيل القوية السريعة. فالحال لم يكن مجرد عشه صغيرة بها زوج من الخيول كما تصور حضرة المستشرق بل أكثر من هذا أنشئت المصانع وخزانات المياه في بعض الطرق الرئيسية. ففي سنة ١٦١ هـ أمر الخليفة المهدي [2] باتخاذ المصانع في طريق مكة وبتجديد الأميال والبرك وبحفر الركايا... ويظهر من بعض الأخبار التي تؤديها الآثار أنه كان لدمشق مركز مهم لبريد العرب حتى أنه بقى اسمه إلى الآن مطلقاً على أشهر محل من المدينة وهو باب البريد [3].

شاهد المقدسي [4] هذا الباب وقال عنه «ويدخل العامة إلى محراب الجامع الأموي من أربعة أبواب. باب البريد عن اليمين كبير له فرخان عن يمين وشمال على كل واحد من الباب الأعظم. وللفرخين مصرعان مصفحة بالصفر المذهب، وعلى الباب والفرخين ثلاثة أروقة كل باب منها يفتح إلى رواق طويل».

وقيل سبب تسمية هذا المحل باسم البريد أنه كان مركزه فيه أيام العرب، وقيل بل لان البريد كان يمر منه (٥).

(٤) الرباطات [6]: تقول الرواية التاريخية [1] أن المسافر على الطريق في بلاد

---

(١) **Le vie de Tamerlan P. 157**

(٢) أبو الفداء جـ ٢ ص ٤٣.

(٣) الطائر الفريج ص ٢٢، ٢٣.

قال الشاعر: ما بين جابيها وباب بريدها قمر يغيب وألف بدر يطلع

(٤) المقدسي ص ١٥٨.

(٥) الطائر الغريد ص ٢٢، ٢٣.

(٦) للرباطات علاقة بموضوع البريد لأنها قامت بعمل السكك تماما في الجهات التي لم يكن بها سكك، إذ كنت تجد بها أماكن للاستراحة وخزانات للمياه، كما أنها قامت بالمحافظة على الأمن ومراقبة الطرق. وهذا كله يساعد بطبيعة الحال عمال البريد على اجتياز الجهات الموحشة لتأدية وظائفهم. ويظهر أنها كانت اشائعة في الجهات الصحراوية وعلى الحدود الشرقية الشمالية والشرقية.

فارس يجد ما يسمى «رباطا» فعندما يحط المسافر رحاله في أحد هذه الأربطة فإن أول ما يفعله هو أن يدق له وتدا في الأرض يربط به حبلا وإلى هذا الحبل بعلق المسافر حيوانه أو دابته فيربط إحدى أرجلها الخلفية إليه. ومن هنا سمي هذا المكان حيث يربط الحيوان «رباطا» وقد تطور معنى هذه الكلمة، وتوسع فيها فأصبحت تطلق على المراكز العسكرية حيث تقف الجنود لمواجهة العدو لمدة معينة أو على سبيل الدوام والاستمرار لانقاء شره ومراقبة حركاته [٢]. ويؤيد هذا المعنى ما ورد على لسان القرآن خاصا بتقال النبي مع الكفار «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم.»[٣] ويسمى الجنود القائمون على هذا الأمر في هذه النقطة مرابطين. «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون» [٤] وقد خص المؤرخون [٥] بلاد فارس بالأربطة نظرا لاتساعها وكثرى القلاقل التي تسودها والتي زادتشر اللصوص خصوصا في الصحراء الواقعة بين يزد وطبس. وكان عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) أول من أقر الأمن في هذه الربوع، ودرج حكام فاارس من بعده على أخذ رهائن من هؤلاء اللصوص، واستبدال غيرها بها بين الحين والحين، لتستطيع القوافل المسافرة في حراسة الحكومة اجتياز هذا الإقليم آمنة. وحوالي منتصف القرن الرابع الهجري ابتنى عضد الدولة مخفرا معه خزان للماء العذب. قد وصفه المقدسي [٦] بقوله «رباط آب شتران هو

---

(١) القدسي ص ٦٦.

(٢) مقدمة **Sprenger**.

(٣) سورة الأنفال.

(٤) سورة آل عمران_ وفي المصباح المنبر (جـ ١ ص ٢٩٣) الرباط ما يربط به القربه وغيرها والجمع ربط، والرباط اسم من رابط مرابطة من باب قاتل إذا لازم ثفر العدو، والرباط الذي يبني للفقراء ويجمع في القياس ربط ورباطات وفي كتاب «الإدارة الإسلامية في عز العرب» ذيل ص ٠٢٠ المرابطة. أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره وكل مستعد للقاء صاحبه فكانوا يرابطون أي يقيمون على جهاج عدوهم بالحرب ومرابطات المسلمين مواضع خيلهم المرابطة والمرابطة هم الجماعة رابطوا.

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ جـ ٢ ص ٣٥٣.

(٦) ص ٤٨٨.

معدن الخوف ومأوى الكوج، به قناة عذيبيه تصب إلى بركة، والرباط حسن، ما رأيت أحسن منه ببلدان الأعاجم، من الحجارة والجص على عمل حصون الشام، وعليه أبواب حديد، وهو شديد العمارة، وفيه قوم يحفظونه، بناه ابن سيمجور صاحب جيش ملك الشرق» ولكن إنشاء هذا المخفر لم يؤمن الطريق. فالمقدسي نفسه أراد أن يسير من طبس إلى يزد فقطع هذه المسافة في سبعين يوما مع أن طولها لا يزيد على ثمانية وستين فرسخا بتقديرا بن خرداذبة، وذلك لأن قافلته ضلت سبيلها [١] ولان الطريق كان_ على حد قوله [٢] مخوفا من قوم يقال لهم القنص، يسيرون إليه من جبال كرمان، قوم لا خلاق لهم، وجوه وحشة، وقلوب قاسية، وبأس وجلاده، لا يبقون على أحد، ولا يقنعون بالمال حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار كما تقتل الحيات، تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة حتى يتصدع.

استخدمت هذه المخافر التي نبني في الطرق الصحراوية رباطات للزهاد، وفي الوقت نفسه حصون عسكرية للجند، وكثر عددها بنوع خاص في بلاد ما وراء النهر لما عرف عن أهلها من الورع والزهد. ويذكر الاصطخري [٣] أنه يوجد بهذه البلاد ما يزيد على عشرة آلاف رباط، في كثير منها إذا أنزل النازل أقيم له علف دابته وطعام نفسه إن احتاج إلى ذلك.

والحق أن شرق المملكة الإسلانية أكرم من غربها، فيحدثنا ابن حوقل [٤] مثلا أنه كان من آل المرزبان رجل مشهور بالكرم أقام رباطات ووقف على مصالحها بقراسائمة، وجعل عليها قوامين يحلبونها، ويأخذون ألبانها ويقصدون بها المجتازين عليهم ومعهم الأطعمة منها ومن غيرها وما من رباط إلا فيه المائه بقره وما فوق ذلك

---

(١)الحضارة الإسلامية في القرن ٤ جـ ٢ ص ٣٥٤.

(٢) المقدس ص ٤٨٨.

(٣) ص٢٩٠.

(٤)ابن حوقل ص ٢٠٨.

لهذا الوجه. ويؤيدذلك ما شاهده الأصطخري [١] إذا يقول. وترى الغالب على أهل الأموال بما وراء النهر صرف مرتباهم إلى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبل الجاه ووجوه الخير إلا القليل منهم. وليس من بلد ولا منهل ولا مفاره مطروقة ولا قرية آهله إلا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه... وكذلك كانت توضع جباب الماء في الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل في الطريق وربما حل إليها الماء من بعيد [٢]. ويذكر الاصطخري [٣] أيضا أن رباط أبي علي ابن رستم يسكنه رجاله على النوب وهو منزل للماره وله ماء جار من قرية بالقرب منه إلى حوض في الرباط.

ويختار أهل القرى بفارس من بين أنفسهم رجلا مهمته توزيع الضيوف على أهل القرية ويسمةنه الجزيز [٤] وفي البلاد التي كانت نصرانية من قبل كانت الأديرة تقدم ضيافة واسعة للمجتازين، وكان كبار المسافرين ينزلون بها عادة طلبا للراحة. إذ يوجد بدير يوحنا على مقربة من تكريت على نهر الفرات، وبدير باعربا إلى الشمال من ذلك أماكن خاصة لتضييف المسافرين [٥]. الذين من أجلهم بنيت المساكن بكثرة في بعض الأربطة. بلغت في إحداها عشرين مسكنا، وفيه ماء وعليه رحي صغيرة، وبالرباط زرع ونخيل ومراع [٦]. ويذكر بعض الرحالة أنه رأي على مقربة من بحيرة وان بأرمينية طريقا على امتداده عمد مقامه على الأرض ليسير المسافرون أيام المطر والضباب بهديها. كما أقيمت في الطريق الذي بين نفراوه وقسطيليه خشب يهتدي المسافرون بها لكيلا يضلوا في الأرض السواخه التي بين هذين البلدين [٧].

---

(١)الاصطخري ص ٢٩٠.

(٢)المقدسي ص ٤١٦.

(٣)الاصطخري ص ٢٢٩.

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ ج ٢ ص ٣٤٤.

(٥)الحضارة الإسلامية في القرن ٤ ج ٢ ص ٣٤٤.

(٦) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٦٤٥.

(٧) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ ج ٢ ص ٣٤٣.

انتهينا من فصل الطرق وما يتعلق بها من سكك ورباطات، ولا بد من أن نتذكر_ لنعرف قدر تلك الطرق_ العقبات الطبيعية والحواجز الجغرافية من أنهار وجبال وهضاب إلى صحاري وغابات ومستنقعات، وكلها كانت حجر عثرة في شق تلك الطرق، ولكن المتخصصين في بنائها تغلبوا عليها فرفعوا أرضا وخفضوا أخرى واجتازوا نهرا، واخترقوا جبلا [1]... وإني أعتقد أن الأمريكيين والإنجليز يتشبهون في حربهم الحالية [2] بالعرب فيما يتعلق بالطرق؛ فطرقهم بصحراء ليبيا وإيران المقسمة إلى أشراط وفي آخر كل شوط استراحه وعمال للصيانه، ما هي إلا صورة لما كانت عليها أيام العباسيين غير أن السيارة حلت محل الحصان والسائق حل محل الفارس. فكما كان عامل البريد يستبدل فرسه بآخر مستريح، ويأكل وينام بسكة البريد كذلك يفعل السائق، يقطع شوطاه بالسيارة ثم ينزل ليأكل وينام ثم يركب سيارة فارغة ليعود إلى قاعدته_ أما السيارة التي بدأ بها الشوط منذ حين فتفحص فحصا سريعا ثم تنطلق مزودة بالوقود يقودها سائق جديد وهكذا حتى تصل إلى نهاية الخط.

---

(١)يقول الأستاذ آدم متز (جـ ٢ ص ٣٤٣) أن جنكيز خان أنشأ طريقا يخترق جبال تيان شان جنوب بحيرة صيرم، أقيم فيه أربعون قنطرة من الخشب تتسع كل منها لعربيتين تسيران متحاذيتين.

(٢) الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩_ ١٩٤٥).

الفصل الخامس

البريد في مصر الإسلامية

المعروف أن العرب بعد أن تم لهم فتح الشام سنة ٢١ هـ استأذن قائدهم عمرو بن العاص الخليفة عمر في فتح مصر، ولسنا في صدد الكلام عن هذا الفتح، وهل كان صلحا أم عنوة، وهل حدث في سنة ١٦ هـ أو عشرين أو ٢٥ هـ على رأي. فهذا موضوع يحوطه الغموض، واختلفت في الحكم عليه الروايات، ولا يزال في حاجة إلى عرض جديد وتصفية جديدة... والمعروف أيضا أن مصر ظلت خاضة للرومان مدة تزيد على الستة قرون شاهدت في خلالها تشيكلات حكومية متباينة، تخضع كلها في جوهرها لقواعد الحضارة الرومانية وقد قدر للمصريين أن يهضموا من تلك القواعد ما يتفق وروحهم وتقاليد بلادهم.. فلا غرابة إذن أن نرى معظم هذه القواعد معمولا بها حتي بعد الفتح العربي، فالعرب قد فطنوا من أول الأمر إلى أنه يوجد بمصر نظام إداري مستقر من قديم الزمان وإدارة مالية محكمة.

فأحسنوا في الاحتفاظ بهذه النظم الإدارية والمالية مع تعديل يسير في بعض الأحوال ويفهم من الوثائق [١] أن نظام البريد كان من أهم تلك النظم الرومانية الموروثة بفسطاط مصر وكثيرا ما عولت حكومة الفسطاط على عمال البريد في الأخبار التي ترد إليها من المديريات عن تحصيل الضرائب الأميرية هناك.

(١) البريد المصري من الفتح حتى عصر الظاهر بيبرس (٢٠_ ٦٥٦ هـ):

لكي نفهم هذه الفترة يحسن أن نقسمها إلى ثلاثة مراحل: المرحلة الأولى من الفتح حتى سنة ٢٥٤ هـ وفيها امتازت مصر بأنها كانت ولاية عربية بمعنى الكلمة يوم

---

(١) **Henri ammens: Etudes sur le Siécle des O mayyades. P. 314.**

أن كان يحكمها وال من قبل الخليفة، فلم يكن له شخصية دولية بالمعنى القانوني اليوم... والمرحلة الثانية هي المرحلة التي تمتعت فيها مصر بصفة الدولة المستقلة استقلالا لا يكاد يكون تاما. ولم يكن يربطها بالخلافة الإسلامية إلا السيادة الإسمية [١] فقط أيام الطولونيين (٢٥٤- ٢٩٢ هـ) والأخشيديين (٣٢٣- ٣٥٨ هـ) ثم الأيوبين أخيراً (٥٦٧- ٦٥٦ هـ) وكانت الغلبة في هذه المرحلة للعنصر التركي بطبيعة الحال. فعلى الرغم كم استقلال هذه الأسر بمصر إلا أن عمداءها كانوا حريصين على الحصول على تفويض شرعي من الخلافة كي تقرهم حكاما على مصر... والمرحلة الثالثة هي المرحلة التي شطرت المرحلة الثانية شطرين فجاءت بعد الأخشيديين وقبل الأيوبيين وعرفت بعصر الفاطميين (٣٥٨- ٥٦٧ هـ) وفيها تمتعت مصر بالاستقلال التام واعترفت بالدبلوماسية المعاصرة وقتذاك بشخصيتها الدولية.

في الواقع تاريخ البريد في هذه الفترة يمكن أن أصفه بالبتر لما يحيطه من الغموض واللبس، فتارة أعثر على إشارة عابرة من كلمة أو كلمتين يرد فيها ذكره، وأخرى ينضب معينة ويجف تماما، وعلى ضوء هذه الشذرات، ويقدر ما وصلني من مادة مبعثرة هنا وهناك حاولت جهد طاقتي أن أخفف من حدة هذا الغموض. فمثلا في المرحلة الأولى من عهد الفتح يشير التاريخ [٢] في سياق حديثه عن سياسة الولاه إزاء أهل الذمة من القبط واليهود والإغريق، يشير إلى حذرهم في تأمين أهل الذمة على تنفيذ سياسة جمع الجزية بالعدل والطمأنينة، مستعينين في ذلك بصاحب البريد الذي عهد إلى عماله في الأقاليم بمراقبة جهات الضرائب للحيلولة دون تعسفهم مع أهل الذمة.

وفى نهاية هذه المرحلة تقريبا نلحظ تطورا فى سياسة عامل البريد فى مصر, إذ نراه فجأة يزج بنفسه فى تيار النزاع الذى قام بين العلويين والعباسيين, فعلى الرغم من

---

(١) مظاهر هذه السيادة كانت ممثلة في ذكر اسم الخليفة في الخطبة وعلى السكة وفي دفع الجزية سنويا لدار الخلافة.

(٢) **Etudes sur le Siécle des 6 mayades p. 314.**

تبعية «واضح» عامل بريد مصر [1] لصاحب البريد فى بغداد وكونه مسئولا أمامه إلا أنه يقدم أدوات البريد من دوابورجال لأحد الخارجين على الخليفة الهادي وهو إدريس بن عبد الله عند مروره بمصر في طريقه إلى بلاد المغرب، يضع وضح أدوات البريد تحت تصرف إدريس فيستخدمها ليحارب الدولة في بلاد المغرب فينجو بنفسه ويؤسس حكما مناؤيا للعباسيين هناك، وقد دفع واضح ثمن هذه الخيانة غالبا على النحو الذي ذكرناه في الفصل الثاني.

وفي بداية المرحلة الثانية يلبس البريد المصري لباس القومية ويتوق إلى الإنفصال عن إدراته العليا في بغداد، وذلك في وقت قبضت العناصر غير العربية على أزمة الأمور في بغداد وفي الولايات. ونمت في الأخيرة روح التمرد والأنفصال، وتجلت بنوع خاص في مصر، فابن طولون أراد الإستفادة من مركز مصر الجغرافي وبالتالي من إدارة البريد في تحقيق أطماعه الشخصية، وكانت الظروف طواعية أمره فينجح في تعيين أحد صنائعه صاحبا للبريد [2] في الحضرة الخليفية، فيجيء بطبيعة الحال أكثر أخلاصا له من الخليفة المهتدي (٢٥٥_ ٢٥٦ هـ)، ويترصد الكتب التي ترد من العناصر المعادية لابن طولون في مصر للإيقاع به عند الخليفة فيردها إليه، ويعرف ابن طولون أصحابها ويراقبهم مراقبة دقيقة، ثم يفتك بهم، وما زال على هذا الحال حتى طهر مصر من أعدائه واطمأن بفضل الجاسوسية التي أقامها غي بعداد لحسابه، على أن الأمور لم تهدأ بالنسبة لابن طولون عند هذا الحد فسرعان ما تشتد العاصفة وتعمل على اقتلاعه من ولاية مصر لولا سهر عمال بريده واعتماده عليهم، فلما وقع الجفاء بين الموفق طلحة وابن طولون في عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦- ٢٧٩ هـ) كتب الأول إلى قواد مصر ليفسدهم على ابن طولون، ولكن كتب القواد وقعت في يد ابن طولون وزادته توكيدا في عداء تاموفق له. وتفنن كلاهما في التنكيل والكيد بالآخر.

---

(١) المقدسي ص ٢٤٤_ الطبري مجموعة ٣ جـ ٢ ص ٥٦٠.

(٢) مصر في ظلال الحكم الإسلامي ص ٨٥_ تاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ ص ٢٨٢.

وحفظ لنا المقريزي [١] الكتب المتباجلة بينهما وكلها تدل على العداء المر بين الرجلين. من ذلك ما يحكي عن الموفق أنه أرد أن يشغل قلب أحمد بن طولون فدس من سرق نعله من بيت حظية له لا يدخله إلا ثقاته ثم بعثها إليه. فقال له الرسول «من قدر على أخذ هذا النعل من الموضع الذي تعرفه أليس هو بقادر على أخذ روحك»[٢]. فالموفق من ناحية يريد أن يشهر بسمعة ابن طولونلدى الخليفة، ومن ناحية أخرى يريد أن يشعر ابن طولون بقوته وقدرته على الإبقاء عليه في مصر أو إخراجه منها.

ونزل ستار الرواية العدائية بين خمارويه بن طولون والموفق بهزيمة الأخير وعقد الصلح بين مصر وبغداد، ومن شروطه زواج الخليفة المعتضد (٢٧٩_ ٢٨٩ هـ) من ابنة خماروية (قطر الندى) وتغالى أبوها في جهازها مما حدانا إلى القول بأن هذا الزواج كان مسألة سياسية أريد من ورائها امتصاصشروه مصر لإضعاف قوة آل طولون. ولا أدل على هذا من أن يأمر خماروية إدارة بريده بإعداد الطريق بين بغداد والقطائع على صورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ من قبل فيبنى لها على رأي كل منزلة تنزل فيها قصرا فخما بين مصر وبفداد. ثم تخرج قطر الندى مع عمها خزرج وصحب أبيها. فيسيرون بها سير الطفل في المهد، ولذلك لم تعان شيئاً من ألم السفر على بعد الشقة، وكأنها في منازلها المختلفة لم تغادر بيت أبيها [٣].

وأصاب بغداد من الإحن والكوارث في ظل سيادة البويهيين والسلاجقة ما جعل مادة المؤرخين عن البريد تنعدم انعداما كليا، والمعروف عن السلطان السلجوقي ألب أرسلان ألأنه أبطل نظام البريد عند العباسيين ١٠٦٣ (٤٥٥ هـ) [٤] ولم يحفظ لنا التاريخ في الكتب التي تناولتها شيئاً عن بريد الإخشدين. وظل حال البريد كذلك

(١) الخطط المقريزية جـ ٢ ص ١٧٨.

(٢) الخطط المقريزية جـ ص ١٨٠_ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ١ ص ١١٨.

(٣) مصر في ظل الحكم الإسلامي ص ٩١_ تاريخ الإسلام السياسي جـ ٣ ص ٢٨٢.

(٤) Sauvaget

حتى أتت الدولة الزنكية فأعادت انشائه وتنظيمه من جديد ودام الأمر كذلك أيام بني أيوب [(١)]... ولمن على أية صورة أعيد تنظيمه وإنشائه، هذا ما فشلت بحق في تحقيقه [(٢)] وحتي الدولة الأيوبية نفسها لم تترك لنا آثاراً عن بريدها. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما تناولت كتاب «قوانين الدواوين» لابن مماتي وزير صلاح الدين الأيوبي. وأنا مشوق لإيجاد مادة خصبة فيه عن البريد فإذا بأملي يتبدد ويصبح ضربا من ضروب الخيال عندما أراه يتحدث عن قوانين الدولة الإدارية والإقتصادية ولم تشر إلى كلمة البريد إطلاقا. وكذلك كان الحال عند شهاب الدين في كتابه «الروضتين في تاريخ الدولتين» ثم تأتي المرحلة الثالثة والأخيرة من هذه الفترة والتي عرفتها بعصر الفاطميين، وكنت متوقعاً أيضاً مادة غريزة في كتب هذا العصر، فإذا بالبريد الفاطمي لم يكن أسعد حظاً من زميليه الإخشيدي والأيوبي. هذا على الرغم من استقلال مصر استقلالا كليا وانقطاع صلتها ببغداد واتصالها بالبلاطين البيزنطي في شرق البحر الأبيض المتوسط والأموي في غربيه، ولم يشر أستاذي الدكتور حسن إبراهيم في كتابه «الفاطميون في مصر» وهو صورة صادقة للتطور التاريخي في هذا العصر إلى نظام البريد عندهم، مع أنه تكلم لاسهاب عن حضارة الفاطميين ونظم حكمهم، وليس معنى هذا أن الفاطميين لم يعرفوا قيمة ولم يعتنوا به، وإنما سنرى في الفصل القادم اهتمامهم به من ناحية أخرى عن طريق الحمام الزاجل.

يستفاد من هذا أن بريد مصر ظل خاضعا في إدارته لبغداد حتى استعر أوار الفتن في أنحاء الأمبراطورية وانتهز ولاة مصر الفرصة وقطعوا صلتهم ببغداد، وانفردت مصر ببريدها الخاص على أن هذا الانفراد أو إن صح الاستقلال لم يكن دائما إلا في العهد الفاطمي وجزء من عهد الأسرة الطولونية. وما عداهما فكانت هناك رابطة بين

---

(١) التعريف ص ١٨٦_ القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٦٩.

(٢) أشار **Sauvaget** ص ١١ إلى استخدام الأيوبين للحمام الزاجل فقط وللسعاة المشاة والإبل في الضرورات التي تستلزم سرعة نقل الرسالة.

مصر وبغداد. وقد فسر البعض هذا التحليل بقوله [١]: فلما استقل الولاة بحكم مصر ألغوا بريد الخلفاء وانشأوا لأنفسهم بريداً خاصاً كان ينقله السعاة المشاة ثم استخدم السعاة الجمال إلى أن تولى الظاهر بيبرس حكم مصر سنة ١٢٦٠م. فتيقظ إلى عظم الفائدة التي يجنيها من ورائه، فتوسل به في ربط أجزاء دولته المترامية الأطراف عندما بدأ في توحيد قوى الإسلام في الشرق عقب الحروب الصليبية، فأرتبطت بمقتضاه جميع أنحاء المملكة بشبكة من البريد البري والجوي [٢].

(٢) بريد السلطان الظاهر بيبرس: لما وصل إلى مصر نبأ إغارة المغول على بغداد وقتلهم الخليفة العباسي المستعصم سنة ١٢٥٨م ثارت ثائرتها وخرجت لصدهم عن أملاكها في الشام، وهزمت زعيمهم هولاكو في موقعة عين جالوت المشهورة سنة ١٢٦٠م، ويرجع الفضل في هذا الانتصار إلى بيبرس أحد قواد المماليك الذي نصب نفسه سلطانا على مصر وجعل حكمه شرعيا في البلاد بإحيائه الخلافة العباسية في القاهرة. ولهذا وقع اختيارنا على عصره لدراسة البريد المصري فيه دراسة وافية. وأيضا لأن مصر في هذا العصر بلغت قوتها المادية والمعنوية إلى أوج عظمتها واحتشدت فيها قوى العالم الإسلامي أجمع وأصبحت دولة كبيرة يشار إليها بالبنان. فدراسة بريدها في هذا العصر هو أصدق مثل لبريد الدولة الإسلامية في العصور الوسطى. وتقول الرواية المعاصرة للظاهر بيبرس على لسان ابن فضل الله العمري أن الظاهر لما أراد تجهيز دولة إلى دمشق عين لها نائباً ووزيراً وقاضياً وكاتباً للإنشاء، وكان الصاحب شرف الدين [٣] أبو مُحَمَّد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب الإنشاء. فلما مثل إلى الظاهر ليودعه أوصاه وصايا كثيرة، أكدها مواصلته بالأخبار وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج وقال له: «إن قدرت أن تبيتني كل ليلة إلا على خبر ولا تصبحني إلا على خبر فأفعل فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان الأول وأيام

---

(١) تاريخ البريد ص ٢٧,

(٢) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٦١٠_ النظم الإسلامية ص ١٥٨_ الظاهر بيبرس ص ١٣٥.

(٣) الصاحب شرف الدين هو عم ابن فضل الله العمري.

الخلفاء. وعرض عليه فحسن موقعه منه وأمر به قال عمي: «فكنت أنا المقرر له قدامه وبين يديه، وحدثني بذلك مفصلا مطولا عن عمي جمال الدين عبدالله الدواداري البريدي المعروف بابن الشديد، وها هو الآن على ذلك وهو جناح الإسلام الذي لا يحص، وطرف قامته التي لا تقص [١]». هذه الرواية توضح مدى اهتمام الظاهر بيبرس بنظام البريد منذ ساعة توليه الحكم، والجهود التي بذلها لتركيز نظامه وتثبيته حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل بالقاهرة إلى دمشق_ وهما المركزان الأساسيان في عهده للبريد_ في أربعة أيام ويعود في مثلها، كما ترد إليه أخبار الممالك في كل جمعة مرتين [٢].

ومما يدل على أن نظام البريد قد بلغ غي عهده مبلغاً من الدقة يستوجب الإعجاب أن السلطان نفسه كان يعلق أهمية كبرى على سفر البريد في مواعيده المقررة... الأمر الذي آزره على صد غارات التتر في الوقت المناسب كما آزره على تفقد الحالة في مختلف أنحاء السلطنة والإلمام بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولاة والحكام [٣]... ولم يتأت ذلك كله للظاهر بيبرس إلا بعد أن أنفق أموالا ضخمة في سبيل ترتيبه [٤].

وكان قصده من وراء ذلك قصر استعماله لصالح الحكومة فقط ولحمل العمال وناقل البريد [٥]، وسندرس الآن أهم الطرق التي أنشأها السلطان بيبرس. وكانت كلها تتشعب من المركز الرئيسي الهام بقلعة لاجبل بالقاهرة. وإليك أهم تلك الطرق البريدية كما وردت في أكثر من مصدر [٦].

---

(١) التعريف ص ١٨٧_ القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٧٠.

(٢) المقريزي_ السلوك جـ ١ القسم الثاني ص ٤٤٦. Princis de L'Hist V. 11. P. 253_Lane Poole P.P 246- 264 Sauvaget P. 10.

(٣) تاريخ البريد في مصر ص ٤٠.

(٤) المقريزي السلوك جـ ١ القسم الثاني ص ٤٤٦.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٣ ص ٦١٠. الظاهر بيبرس ص ١٣٥.

٦() التعريف ص ١٨٧_ ١٩٠_ زبدة كشف الممالك ص ١١٧_ القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٧٣_ المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧_ Princis Vol. 11 p. 259

(١) الطريق من قلعة الجبل إلى قوص محاذيا للنيل ومارا بالجيزة إلى برفشت ثم إلى منية القائد ابن خصيب ثم إلى الأشمونيين ثم إلى ديروط الشريف ثم إلى المنهى ثم إلى منفلوط ثم إلى أسيوط ثم إلى طماثم إلى المراغة ثم إلى بلنسون ثم جرجا ثم البلينة ثم هوثن ثم إلى الكوم الأحمر ثم خان الدرنبا ثم قوص [(١)] وهي مركز تجاري غاية في عظم الشأن وملتقى الطرق، فمنها يبتديء طريق إلى أسوان[(٢)]

فبلاد النوبة ويركب البريد الهحن، ويقال أن الخزينة العامة كانت تدفع سنوياً مبلغ عشرة آلاف دينار لتنفيذ الترميمات التي يتطلبها ذلك الطريق [(٣)] ومنها أيضا يبتديء الطريق إلى عيذاب وهي ميناء على البحر الأحمر اتخذه التجار والحجاج على السواء، وكلا الطريقين يوصل إلى مراكز للتعدين ومناجم من الزمرد في صحراء العرب [(٤)] وطريق عيذاب ذو شأن خطير في نظرنا لأنه كان موجوداً منذ العصور القديمة. غير أن بدايته لم تكن ثابتة في العصر الإسلامي بل تراوحت أحياناً بين قفط وقوص وأحيانا كانت عند أدفو بل عند أسوان حتى تثبتت عند قنا حوالي القرن ١٦م. زقد قدرت المدة اللازمة لقطع الطريق بعشرة أيام غير أن هذه المدة في الحقيقة كانت محض استثناء لأن الزمن اللازم أطول منها بكثير... وهناك طريق آخر عبر الصحراء من قوص إلى القصير التي لم تكن لها مطلقاً من الأهمية ما كان لميناء ليكاس ليمان **Leukos Limen** التي حلت القصير محلها [(٥)].

(٢) أاما بريد الأسكندرية فكان له طريقان، أحدهما محاذ للصحراء ويسمى، طريق الحاجز مارا بالجيزة فوردان ودمنهور، والثاني يسير بين فرعي النيل مارا بقليوب

---

(١) زبدة كشف الممالك ص ١١٧

() من مصر إلى أسوان مسافة ٢٥ مرحلة وتمتاز جميع بلاد مصر بتقارب مسافاتها فلا يكون بين البلد والبلد أكث٢ر من يوم أو يومين_ الإدريسي ص ٥٢.

(٣) **NassiriKhosrau**_ المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٣.

(٤) المقتطف عدد خاص سبتمبر سنة ١٩٣٧.

(٥) المرجع السابق ص ٤٩.

ومنوف والمحلة الكبرى وقد تمكن الرحالة ابن جبير أن يقطع الطريق الثاني في ثلاثة أيام ونصف [١] على حين أن الأدريسي [٢] يقول من الأسكندرية إلى مصر ٩ يوم.

(٣) وأما الطريق إلى دمياط فمن مركز القلعة إلى سر ياقوس فمدينة بلبيس وهي آخر المراكز السلطانية وفيها يتفرع خطان أحدهما إلى دمياط مارا بأشمون الرمان وفارسكور والآخر إلى غزة فدمشق [٣].

(٤) الطريق إلى دمشق والفرات، يبدأ من بلبيس وهي آخر المراكز التي لخيل السلطان وهي الخيل التي تشتري بمال السلطان ويقام لها السواس والعلوفات، ثم ما يليها خيل البريد المقررة على عربان ذوي اقطاعات علسها خيول موظفه، يحضر بها أربابها عند هلال كل شهر إلى المراكز وتستعيدها في آخر الشهر ويأتي غيرها، ومن هنالك سميت خيل الشهارة، وعلى الشهارة وال من قبل السطان يستعرض في رأس كل شهر خيل أصحاب النوبة ويدوغها بالداغ السلطاني وما دامت تستجد فهي قائمة، ومتى اكترى أهل نوبة ممن قبلهم فسدت المراكز لأن الشهرة لا يهل وفي خيل المنسلخ قوة لا سيما والعرب قليلة العلف، وتستخدم خيل الشهارة هذه من السعيدية أول مركز بعد بلبيس حتى العريش وهي آخر مراكز العرب الشهارة ثم مما يليها خيل السلطان ذوات الإصطبلات والخدمة تشتري بمال السلطان وتكلف منه [٤].

ويمتد الخط من العريش إلى غزة وتعتبر دهليز مصر وبداية الإقليم السوري الفلسطيني، ومنها إلى دمشق فحمص وحماة وحلب حتى يصل إلى ضفاف الفرات حيث توجد قلعة برته التي كانت تعتبر مفتاح السلطنة. ومن حمص يتفرعطريقان

---

(١) ابن جبير ص ٤٤_ زيدة كشف الممالك ص ١١٩_ المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧.

(٢) الإدريسي ص ١٥٠.

(٣) زبدة كشف الممالك ص ١١٩.

(٤) التعريف ص ١٩٠_ ١٩٢_ القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٧٧_ راجع = **Sauvaget p. 24** عن طرق البريد الفرعية التي أنشأها بيبرس في سوريا وتاريخ إنشائها.

أحدهما للقوافل يصل إلى بغداد [1] وتدمر. والآخر يؤدي إلى قلعة رحاب على الفرات. ومن دمشق يتفرع ثلاث طرق. أولها إلى عكة وصيدا وبيروت، وثانيها إلى بعلبك، وثالثها إلى مكة وينتهي عند قلعة الكرك شرق البحر الميت [2].

وحسبنا من هذا أن نعرف أن الطريق البريدي بين دمشق والقاهرة هو نفس الطريق الحربي الذي سلكه الغزاة في دخولهم الأراضي المصرية منذ أقدم العصور فهو الطريق الذي اجتازه بنو اسرائيل عند خروجهم من مصر. وهو الطريق الذي سلكه السيد المسيح وهو طفل بصحبة أمه مريم ويوسف النجار فراراً من يهود فلسطين إلى مصر. وهو الطريق الذي وطئته أقدام جنود قمبيز والإسكندر وعمرو ابن العاص... وعلى طول هذه الطرق جميعاً حدد بيبرس مراكز فيها خيول مجهزة في جميع الأوقات يستطيع فيها البريديون أن يستبدلوا جيادهم [3]. وكانت المسافة بين المحطتين المتعاقبتين لا تتجاوز أربعة فراسخ [4]، وتقارب المحطات بهذه الصفة يساعد الرسل على اجتياز المسافات البعيدة بسرعة عظيمة.

وقد زود الظاهر بيبرس تلك المراكز بكل ما يحتاج إليه المسافر [5] من زاد وعلف كما راعة فيها توافر المياه أو وجود قرية بجوارها يستأنس بها عمال البريد، وأعد بكل منها خيولاً عرفت بخيل البريد وعندها عدة سواس، وللخيل رجال يعرفون بالسواقين، وأحدهم سواق يركب مع رسم بركوبه خيل البريد ليسوق له فرسه ويخدمه مدة مسيره، ولا يركب أحد خيل البريد إلا بمرسوم سلطاني، فتارة يمنع الناس من ركوبه إلا من انتدبه السلطان لمهماته، وتارة يركبه من يريد السفر من الأعيان بمرسوم

(١) من مصر إلى بغداد ٥٧٠ فرسخاً أي ١٧١٠ ميلا. الأدريسي ص ١٦٣.

(٢) زبدة كشف الممالك ص ١١٠.

(٣) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٧.

(٤) تاريخ البريد في مصر ص ٣٨.

(٥) القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٧٢.

سلطاني [١].

كذلك اهتم السلطان بيبرس بأن يكون السفر آمنا هينا، فأقام في كل طريق خفراء يحفظ المسافرين [٢]. فكانت الطرق عامرة خصوصاً في الشام حيث يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغيره. ولا ستتباب الآمن قال فيها المقريزي [٣] «إن المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء». وزاد قوله توكيد لما ذكره القلقشندي. «وسرعان ما بذلت المراكز الخوف أمنا والوحشة أنسا»[٤].

ولا شك أن المراكز الكبرى كانت مجهزة بأبنية تسمى بحسب العصر والمكان والغرض الذي شيدت من أجله خانات أو فنادق أو وكالات (**okell** أو **Okelle**)[٥] وابن بطوط [٦] رحالة القرن ١٤ م الكبير يقول في هذا المعنى «ثم وصلت إلىالصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها ولكل منزل منها فندق يسمونه الخان ينزل المسافرون بدوابهم، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته»، وكتب المقريزي [٧] أيضاً عن خانات القاهرة وذكر

---

(١) خطط المقريزي جـ ١ ص ٣٦٧_ الظاهر بيبرس ص ١٣٥.

(٢) **Quat rémére V. ier parti P. 227**

(٣) **Princis Vol. 11 p. 258**_ خطط المقريزي جـ ١ ص ٣٦٧.

(٤) القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٨٠_ الواقع أن فضل الاهتمام بالطرق ما بين مصر والشام يرجع إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي شيد بها الحصون والقلاع وزودها بالجراس والماء والزاد وغدت القوافل الحربية والتجارية تعبرها في آمان وسلام؛ وورث خلفاء صلاح الدين عنه تلك العناية بالطرق، وتخص منهم بالذكر السلطان الكامل بن العادل الذي أقام في كل طريق خفراء تحفظ المسافرين، وبلغ من مهابته أن الرمل_ فيما بين العريش ومصر_ كان يمر فيه الواحد بالذهب الكثير والأحمال من الثياب من غير خوف. وسرق مرة فيه فأحضر الكامل العربان الذين يخفرون الطريق وألزمهم بإحضاره وإحضار سارقه فبذلوا عوضه شيئاً كثيراً، وهو يأبى إلا إحضار السارق والبساط. السلوك للمقريزي جـ ١ قسم أ ص ٢٥٩و ٢٦٠.

(٥) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٥.

(٦) ابن بطوط جـ ١ ص ٤٣_ **Princis Vol. 11 p. 258**

(٧) المقتطف سبتمبر سنة ٩٣٧ ص ٤٦.

منها خان مسرور وخان قوصون وخان الخليل. ولسنا في حاجة إلى التنعرض إليها قفي قليل أو كثير وإنما الذي يعنينا منها خانات البريد التي امتازت ببساطة بنائها، ولكنها على أتساع كاف لتخصيص محل لإقامة الصلاة، ونافورة وأحواض للماء الصالح للشرب، وسوق صغيرة يعرض فيها ما يحتاج إليه المسافر، فضلا عما يلزم للموظفين والدواب من الغذاء. ولذا كان في الإمكان تقليل ما يحمل من الزاد والماء إلى أدنى حد، ولم تكن الحاجة ماسة إلى نقل الأدوات اللازمة لنصب الخيام. وكان من صالح التجار أنفسهم أن يؤسسوا الخانات ولو في أبسط أشكالها كأن يبنوا قاعة مسقوفة.

وقد يكون من السخف أن نعزوا إلى السلاطين المماليك تأسيس هذه الفنادق فإنهم إنما هم أشاعوا استعمالها.

والحق أننا نعرف أنه يوجد بسوريا خانات أو فنادق من أواخر القرن ١٢م (١) والنصف الأول من القرن ١٣ م قبل ذلك أبدى ناصر خسرو (٢) إعجابه بعظم اتساع مائتي فندق بمصر القديمة. وإني أعتقد أن الإكثار من تشييد هذه الفنادق وتزويدها بالنافورات المائية والحوانيت على طول الطرق كان الحافز له تغلب النزعة الدينية على نفوس سلاطين المماليك بغتة الحصول على أجر كبير في الآخرة. ويؤيد ذلك ما نقشه أمير شيخو على واجهة إحدى النافورات شمال القلعة من أن الرسول ﷺ سئل أي الأعمال يثاب عليها المرء فأجاب تقديم الماء للظامئين (٣).

Comme om demandait au prophète quel-était l'acte le plus méritoire; il répondit donner de l'eau a boire.

---

(١) تاريخ البريد ذيل ص ٣٧_ Princis Vol. 11 p. 272 شهد سوفاجيه بقايا هذه الخانات على الطريق من جهة دمشق إلى حمص وطريق الرحبة وطريق دمشق بعلبك وأرجعا إلى العصر الأيوبي وقال إن بيبرس اتخذها محطات للبريد حيث يجد عمال البريد والمسافرون ما يلزمهم من خبز وأحذية وعلف للخيل_ Sauva get G. 29- 30.

(٢) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٤_ NassiriKhosrau G. 156.

(٣) Precisdel'hist, Vol 2 P.277

(٣) إدارة البريد المملوكي: كان يدير أعمال البريد «ديوان الإنشاء» الذي يتولاه الديوادار ويلقب كذلك بأسم أمير البريد، ومن واجبه السهر على سرعة إرسال بريد السلطان وإذاعة أوامره. ومن خصائصه أن يقدم للسلطان التقارير الخاصة بالأعمال الإدارية، والأوراق التي يراد توقيعها، والإلتماسات التي يرجو أصحابها مقذبلة السلطان [١] وللديوادار مساعد يقال له «كاتب السر» يتولى بنفسه تصدير البريد وإعطاء قوائم السفر التي تجيز لحاملها الحصول من المحطات المختلفة على جياد بالعدد الذي يلائم مكانته وأهمية مأموريته [٢]. ولعل السبب في إسناد إدارة البريد إلى ديوان الإنشاء وعدم إنشاء ديوان خاص لها كما كان الحال أيام الخلفاء يرجع إلى طبيعة عمل كل من ديواني البريد والإنشاء، فكلاهما جزء مكمل للآخر حسب النظم الديوانية المملوكية.

وقد جرت العادة أنه إذا ورد بريد من بلد من بلاد المملكة أحضره أمير جاندرا والدواداروكاتب السر بين يدي السلطان، فيقبل الأرض، ثم يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي ثم يناوله للسطان فيفضه، ويجلس كاتب السر فيقرأه عليه ويآمر فيه بأمره [٣]. وإذا أمر السلطان بكتابة شيء على لسان أحد من الدوادارية حمل بريدي من البريدية الرسالة كذلك عن ذلك الدوادار إلى كاتب السر فيسمع كلام البريدي، ويكتب على القصة إن كانت أو ورقة مفردة ما مثاله. «حضرت رسالة على لسان فلان البريدي بكذا وكذا». ويعينه على من يكتبه من كتاب الإنشاء [٤]؛ وهذا يدل على ما كان يتمتع به البريدي من ثقة غالية أكثر من كاتب الإنشاء فكأن كلامه حجة بعد السلطان مباشرة.

---

(١) القلقشندي جـ ١٤ ص ٢٧١_ النظم الإسلامية ص ٢٥٨.

(٢) تاريخ البريد في مصر ص ٣٩ وراجع Sauvaget p. 28

(٣) القلقشندي جـ ١٤ ص ٥٩.

(٤) القلقشندي جـ ٦ ص ١٩٤.

وقد عهد إلى الدوادار [1] حفظ ألواح البريد بالديوان، فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات أعطى لوحا من تلك الألواح ليعلقه بعنقه في ذهابه وإيابه، وكانت هذه الألواح من الفضة، وقد نقش على أحد وجهي كل لوح منها عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسبه بالهدى ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون ضرب بالقاهرة المحروسة»، وعلى الوجه الآخر ما صورته، «عز لمولانا السلطان الملك فلان ملك الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني فلان خلد الله ملكه»، وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حرير أصفر ذات بندين يجعلها البريدي في عنقه بإدخال رأسه بين البندين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه والشرابه خلفه من فوق ثيابه، فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات أهطى لوحا من تلك الألواح يعلقه في عنقه ويذهب إلى جهة قصده، فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدي، وبواسطة ذلك تذعن له أرباب المراكز بتسليم خيل البريد، ولا يزال كذلك حتى يذهب ويعود، فيعيد ذلك اللوح إلى ديوان الإنشاء [2].

ولقد كان عنصر الفطنة والذكاء من العناصر الضرورية عند اختيار رسل البريد أشار إليه القلقشندي [3] بقوله، «إذا كان الرسول متمكنا من عقله، عالما بما يأتي وما يذر، كفى ملكه مؤنة غيبته وأجاب عن كل ما يسأل عنه، وإذا كان بخلاف ذلك انعكست القضية، ورجع على مرسله بالوبال». ويستشهد بحكاية دحية الكلبي حين دخل على قيصر بكتاب النبي ﷺ، قال له دحية: هل تعلم أكان المسيح يصلي، قال نعم، قال فإني أدعوك إلى من كان المسيح يصلي له، وأدعوك إلى من دبر خلق

---

(١) ويذكر البعض (Princis Vol. 11 p. 246) أن أسرار الدولة كانت موكولة إلى الضباط المتعطشين دائما إلى تدبير المؤامرات فانتزعت إدارة البريد في عصر المماليك الشراكسة من الدوادار وهو ضابط مملوك وسلمت مقاليدها إلى كاتب السر وهو موظف مدني.

(٢) القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٧١ _ Princis Vol. 11 p. 248 _ النظم الإسلامية ٢٥٨ _ Sauvaget p. 20.

(٣) القلقشندي جـ ١٦ ص ٣٦٠.

السموات والأرض والمسيح في بطن أمه، فألزمه من صلاة المسيح أنه عبد الله تعالى... وكانوا يتصفون أيضاً بالإخلاص واليقظة، وهذا ما نلمسه في رواية المقريزي [(١)] عن حادثة طريفة وقعت للسلطان الظاهر بيبرس نفسه مع أحد عمال البريد تجلى فيها أخلاصهم لواجبهم وتنفيذهم الأوامر السلطانية بنصها وروحها حتى على السلاطين أنفسهم ففي أثناء تجوال بيبرس في دولته بالشام أراد التوجه إلى مصر خفية، فدبر حيلة خرج بها من القصر ولم يفطن به أحد، وتكون ركبه من خمسة أنفس ومعهم أربعة جنائب من خيل السلطان الخاص. وفي مكان يسمى القصير المعيني دخل السلطان إلى الوالي ليأخذ فرسه فقام إليه بنحو خمسين رجلا ليهاوشه وقال «الضيعة ملك السلطان ما يقدر أحد يأخذ منها فرسا، تروحوا وإلا قتلناكم» فتركوه وساقوا إلى بيسان وأنوا دار الوالي وقالوا «تريد خيلاً للبريد» فأنزلهم وقعد السلطان عند رجل الوالي وهو نائم ثم ألتفت إلى أحد الأمراء وقال «الخلائق على بابي وأنا على باب هذا الوالي لا يلتفت إلي ولكن الدنيا نوبات» وطلب السلطان من الوالي كوزا فقال «ما عندنا كوز، إن كنت عطشانا أخرج وأشرب من برا»، فأحضر إليه أحد الأمراء كوزا (قارورة) شرب منه وركبوا وصبحوا جنيين فوجدوا بها خيلا للبريد عرجاء معقرة (مجرحة الظهر) ركب السلطان منها فرسا لم يكد يثبت عليه من رائحة عقورة.

والقصة تفسر حسن اختيار السلطان بيبرس لعمال البريد من الثقات الأمناء الذين ينتخبون عادة من خدمه، ذوي الكفاءة والذكاء لإبلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء، الأمر الذي أكسبهم مكانة محترمة حببت السلطان فيهم، وكثيرا ما كان يثيب الأمناء منهم، ويغدق عليهم من النعم ما يغدق عادة على كبار رجال الدولة.

ننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن قانون الانتقال من قطر إلى آخر، وهل كان ذلك مباحا للمسافريم بلا قيد أو شرط، وهل كان للسابلة حرية اجتياز تلك الطرق بكل بساطة... الجواب على ذلك ما حفظته لنا سجلات إدارة البريد المملوكية، وما

---

(١) السلوك للمقريزي الجزء الأول القسم الثاني ص ٥٧٥_Quatremére v lier Parti P. P 63, 64

تضمنته الرواية التاريخية قديما وحديثا.. ففي مصر بنوع خاص كان بها منذ أقدم العصور الإسلامية نظام دقيق لجوازات المرور، فلم يكن أحد يستطيع أن يترك الناحية التي يقيم فيها إلى ناحية أخرى بدون إذن أولي الأمر، ويقال أن عامل مصر أصدر أمره سنة ١٠٠هـ بالقبض على من وجد مسافراً أو متنقلا من مكان إلى مكان من غير سجل، وإذا وجد صاعداً أو نازلاً من مركب أوقعت الحوطة على المركب وحرق بما فيها (فيه). ولدينا طائفة من هذه السجلات أو الجوازات وجدت ضمن ما عثر عليه من أوراق البردي، ويؤخذ من رواية لمؤرخ عربي أنه كان لا بد من جواز للخروج من مصر، ولا بد أن يدرج في هذا الجواز كل من يرافقون المسافر ولو كانت عبيده [١].

وابن بطوطة الرحالة المشهور يقول في هذا الصدد، أنه عند مركز بريد قطيا المشهورة تفتش أمتعة التجار، ويبحث عما لديهم أشد البحث، وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود، ومجباها في كل يوم ألف دينار من الذهب، ولا يجوز عليها أحد من الشام إلا ببراءة من مصر، ولا إلى مصر إلا ببراءة من الشام احتياطيا على أموال الناس، وتوقيا من الجواسيس العراقيين، وطريقها في ضمان العرب وقد وكلوا بحفظه، فإذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم يأتي الأمير صباحاً فينظر إلى الرمل فإن وجد به أثر طالب العرب باحضار مؤثره، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم، فيأتون به الأمير فيعاقبه بما شاء [٢].

أما في المشرق فالأمر على خلاف ذلك، إذ نجد المقدسي يستنكر ما حدث في أيام عضد الدولة من أنه لا يدخل أحد مديني شيراز أو يخرج منها إلا من يحمل جوازا[٣].

يتبين لنا إذن صحة ما تعمله مصلحة الحدود المصرية الآم من توزيع عساكرها وضباطها في نقط معينة عند مداخل مصر لتفتيش الغادين والرائحين، وعدم السماح

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ٢ ص ٣٦٠.

(٢) ابن بطوط جـ ١ ص ٤٣.

(٣) المقدسي ص ٤٢٩.

لمن لا يحملون منهم جوازات مرور جيئة وروحة، وأن إنشأ إدارة خاصة بوزارة الداخلية لإعطاء جوازات السفر خارج القطر، كل ذلك ما هو إلا صورة ناطقة بما نقلناه عن أصول الحضارة الإسلامية ونظمها لدى أسلافنا الصالحين.

(٤) البريد وحمل الثلج: بقى للقاريء مسألة أخرى اعتنت بها إدارة البريد المملوكي يحتم علينا الواجب العلمي والأمانة التاريخية أن نسوقها له، وهي ما وضعته تلك الإدارة من ترتيبات لحنل الثلج من دمشق إلى القاهرة لتبريد الماء في زمن الحر، وكان لنقله مراكب تحمله في البحر، اختلفت عدتها باختلاف الأوقات_ فبلغت حينا ثلاثا وأحياناً آخر إحدى عشر مركبا، وكانت منتظمة الرحلات فيما بين شهري أبريل ونوفمبر من كل سنة، تأخذ طريقها من الثغور الشامية وهي بيروت وصيدا إلى ثغر دمياط المحروس، ثم ينقل من مراكب بحر النيل ثم يؤتي به إلى بولاق، ومنها ينقل الثلج على البغال السلطانية إلى الشربخاناه حيث تخزن في صهريج، والواصلون بالمراكب في البحر يعودون على البريد في البر، وينقل من الثلج في البر صنف أنظف وأنقى مما ينقل في البحر، ويجهز مع كل نقله بريدي بيده تذكره ومعه ثلاجون خبراء يحمله ومداراته طول الكريق وهو خاص بمشروب السلطان، والمرصد لكل نقله خمسة أحمال والمرصد في كل مركز ستة، ليكون أحدهم فضله، وعدة نقلاته أوان الثلج إحدى وسبعين نقله، وكان للهجن منظر يثير دهشة السوريين [١].

وأقيمت له المراكز على طول الطريق من دمشق إلى القاهرة مثلها مثل مراكز البريد، فمن دمشق إلى الصمين ثم منها إلى طفس ثم إلى أربة ثم إلى جينين ثم إلى فاقون ثم إلى لد ثم إلى غزة ثم إلى العريش ثم إلى الواردة ثم إلى المطيلم ثم إلى قطيا ثم إلى الصالحية ثم إلى بلبيس ثم إلى القلعة [٢]، وقد اعتنى بنوع خاص مُحَمَّد بن قلاوون بهذه المراكز وعين في كل منها ست هجن، خمسة للأحمال وهجن للهجان، وهذه

(١) بدة كشف الممالك ص ١١٧_ التعريف ص ١٩٧، ١٩٩_ القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٦٩.

(٢) زبدة كشف الممالك ص ١١٧.

الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية، ومن الواردة إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية [1].

هذا بلا ريب تطور ملموس في نظام البريد كونه يستخدم في الإشراف على تحقيق الرغبات الشخصية للمماليك بعد أن كان القصد منه أولا المصلحة الحكومية في الدولة، ويروي لنا الفقهاء من القرن الرابع عشر أن البريد كان يستخدم لإحضار مغن مشهور إلى البلاد أو مملوك أمرد [2].

والنتيجة الطبيعية لتلك المجهودات العظيمة التي بذلها سلاطين المماليك في سبيل إنشاء نظام للبريد على قوائم وأسس متينة لم تكن قاصرة على تمتع الحكومة بثمار ذلك النظام بل وأيضاً الأفراد، فالاهتمام بطرق البريد ومحطاته أدى بدوره إلى تنشيط تجارة الأفراد بدرجة ملموسة الأثر. بالنظر إلى تشييد الخانات وحفر الآبار وتأمين الطرق. ومما يدلنا على أن سلاطين المماليك المتأخيرين وملوك الشرق الآخرين لم يهملوا شأن البريد وجود تلك الخانات التي لا زلنا نشاهدها في الطرقات القديمة مثل الطريق المحاذي للبحر من دمشق إلى الغرب [3].

ويجب إلا ننسى أن مركز مصر الجغرافي يعين تمام التعيين دورها الإقتصادي فطرق مواصلاتها تعمل على توكيد تقدمها التجاري، فتعقد العلاقات عن طريق البحر الأحمر مع بلاد العرب والشرق الأقصى من جهة، ومع حوض البحر الأبيض المتوسط عن طريق موانيها من جهة أخرى، وكان قلب الحياة النابض في شمال مصر حيث قام تبادلها التجاري في أوسع حدوده بالإسكندرية.

---

(١) التعريف ص ١٩٩_ القلقشندي ج ١٤ ص ٣٩٧.

(٢) المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧ ص ٤٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٦١١.

الفصل السادس

البريد الجوي

لم نقصد من هذه التسمية ما هو شائع ومتداول الفهم الآن من ذلك البريد الجوي الصناعي، أعني به طائرات البريد، وإنما قصدت إطلاق هذه التسمية على حمام الزاجل المعروف بحمام الرسائل، ويعبر عنه أحيانا بالهدى [(١)] أو كما أسماه البعض بحمام البطاقة، وهذه اللفظة مأخوذة من بتاكيون باليونانية ومعناها رقعة وهي القطعة الصغيرة من الورق، وقد أطلق هذا الاسم على الحمام لحمله صغائر الرسائل، وقال البعض الآخر إن اسم ورقاء بالعربية أطلق في الأصل على هذا النوع من الحمام لحمله ورق الرسائل وهو مشهور بسرعة الطيران [(٢)].

(١) بريد الحمام قبل الإسلام: من العجيب أن استخدام الطيور في حمل الرسائل قديم جداً في التاريخ، والفضل الأول في ذلك يرجع إلى سيدنا نوح عليه السلام على ما جاء في التوراة، ذلك أنه أرسل حمامة من الفلك أثناء الطوفان فعادت إليه بغصن من شجر الزيتون في منقارها، فاعتبرها المؤرخون أول حمامة أطلقت من السفينة إلى البر [(٣)]. ثم جاء من بعده سيدنا سليمان عليه السلام وقد منحه الله سبحانه وتعالى من قوة السيطرة والاستعلاء على مخلوقاته ما ذكر في القرأن الكريم من قوله تعالى: «وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون [(٤)]». وكان الهدهد إحدى تلك الطيور التي جندت وجيشت، فلعبت دوراً دبلوماسياً خطيراً

---

(١) النظم الإسلامية ص ٢٥٨.

(٢) القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٩٠_ الطائر الغريد ص ٨.

(٣) تاريخ البريد في العالم ص ١٤_ الطائر الغريد ص ١١. وراجع هامش ص ٢٨٢ من السلوك جـ ١ قسم ١ للمقريزي.

(٤)سورة النمل.

في صراعه العنيف مع بلقيس ملكة سبأ... والقرآن الكريم وهو أقدم كتاب عربي إسلامي، وهو كتاب تاريخ كما هو كتاب دين وتشريع قد نطق بما أداة الهدهد من الجاسوسية والاستطلاع ما لم يستطع عامل البريد في عصر من العصور التاريخية أن يؤديه حتى ولا سفراء العصر الحاضر، فعندما كان سيدنا سليمان [١] يتفقد الطير لم يجد الهدهد وقد سأل عنه خاصة ليستخبره على بعد الماء في الوادي الذي نزل به في مسيره، والهدهد يعلم مكانه. فغضب وتوعده «وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذبنه عذابا شديداً أو لا أبحنه وليأتيني بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ يقين [٢]».

وصار هذا الخبر للهدهد عذرا وحجة عند سليمان درأ به عندما كان أوعد به. فقال له سليمان قد اعتللت «قال سننظر أصدقت أم كنت من الماذبين. إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم. ثم تولى عنهم فانظر ماذا يرجعون. قالت يا أيها الملؤ إني ألقي إلى كتاب كريم [٣]». اعتقد سيدنا سليمان [٤] أن ليس في الأرض أحداً له مملكة معه، فلما دله الهدهد على ملك هو لغيره وقوم كفرة يعبدون غير الله رأي في غزوهم الثواب العظيم. وحققت للهدهد المعذرة وصحت له الحجة في مغيبه. فهدهد سيدنا سليمان هو سفير أحد أصحاب الجلالة في عصرنا الحاضر، وأسفرت دبلوماسية الهدهد عن هذه العبارة الخالدة على لسان بلقيس. «قالت رب أني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين [٥]» وهذا القول الكريم لم يدع مجالا للشكاك والهواة أن ينكروا ويجحدوا مقدرة الطائر على نقل الأخبار.

---

(١) تفسير الطبري جـ ١٩ ص ٩٠ـ تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٦٧٦.

(٢) سورة النمل.

(٣) سورة النمل.

(٤) تفسير الطبري جـ ١٩ ص ٩١.

(٥) سورة النمل.

وتاريخ بني إسرائيل [١] يشير إلى مجهودات الحمام في هذا المضمار يوم أن تكاثر الأعداء حول يخوشع وأعيته الحيل في الخلاص منهم، فوقف يبكي ويطلب من ربه أن يفرج عنه وعن بني اسرائيل، وأخذ يهوشع يتمنى على ربه حمامة، فإذا بحمامة قد حطت في حجره فكتب كتابا إلى بينج ابن عمه الملك على السبطين يطلب منه النجدة، ثم طوى الكتاب فحفظته الحمامة بفيها وحلقت وطارت ورمت الكتاب في حجر بينج وهو جالس على كرسي ملكه يحكم في قومه، وأجاب الحمامة إلى طلبها وكتب الله النصر لبني اسرائيل.

على أن أول من استخدم الحمام الزاجل فيما بعد الأنبياء والرسل الفرس الذين نقل عنهم الإغريق طريقة تدريبه على حمل الرسائل فاستخدموه في نقل أنباء الألعاب الأولمبية [٢]. وجاء من بعدهم الرومان فاستخدموه في سباق العجلات، وأول من جاء عنه أن مصارعا من جزيرة إيجين أخذ معه حمامة إلى محل الألعاب الأولمبية، فإذا تغلب على مصارعيه علق في عنقها قطعة من الأرجوان وأطلقها فتبلغ بيتها في ذلك اليوم، فيعرف أهله بفوزه، وكانت تلطخ الحمامة أحياناً بلون قرمزي كما فعل طورسينوس **Torisinus** حينما أخبر أباه بانتصاره في الألعاب الأولمبية [٣] كذلك كان الذين لا يستطيعون الذهاب إلى سباق العجلات في روما يرسلون إليه أصدقاءهم وغلكانهم ومعهم حمام البطاق فيطلقونه عند نهاية السباق مصبوغاً أو مخضباً بلون الحزب الذي فاز في السباق فترجع إلى أوكارها فيعرف أصحابها من اللون ما إذا كانوا قد ربحوا أو خسروا. ومن ذلك تنبه العالم المتمدين إلى صلاحية الحمام الواجل للتراسل [٤]، وبيس خطر اقتناء حمام الزاجل إبان الحرب بدعا أو جديدا؟ فقديما تساءل المؤرخ بلييوس إذ لمس أثر الحمام في إفشاء أخبار المتحاربين فقال «لماذا تقام الأسوار ويضرب

---

(١) تاريخ اليهود ص ٢٣.

(٢) **Encyclopaedia Brit. V. 17 p. 921**

(٣) **Ameer Ali S, P, 118**.

(٤) الطائر الغريد ص ١١_ تاريخ البريد في العالم ص ١١.

الحصار، وتبث العيون والأرصاد في السهول والأودية وتنصب الشباك في الأنهار والجداول. وللأخبار رسول أمين وسبل خالصة في الهواء» وسعر قوله ما قاله زملاؤه مؤرخو الفرنجة أن أول من استخدم الحمام في الحرب هم الرومان إذ أرسل أنطونيوس حين حاصر مورينا سنة ٤٣ ق.م إلى رئيس حكومته رسالة معلقة بعنق حمامة فإجاب عنها برسالة معلقة في رجلها [١].

ويستدل على قول هؤلاء المؤرخين أن التراسل بواسطة الحمام كان وافيا بالمقصود في تلك الأيام وشاع استعماله بين جميع الأمم وقتذاك. سيما البحارة المصريون والإغريقيون الذين اعتادوا_ في عهد البطالمة_ إطلاق الحمام في الجو إيذاناً باقترابهم من أرض الوطن [٢] ولعل الحمام كان أحد العوامل التي ساعدتهم على شق عباب البحار بعد أن كان من سبقهم يجوبونها على مقربة من الشاطيء خشية أن يضلوا أو تعترضهم الأهوال والمخاوف. أما الصينيون [٣] فقد ذكرت كتبهم أنهم استخدموا الحمام الزاجل في أواخر القرن السابع الميلادي. والفضل في ذلك يرجع إلى تجار العرب والهنود الذين جلبوه معهم إلى هناك.

(٢) بريد الحمام الزاجل في الدولة الإسلامية: ثم جاء الإسلام وأحدث انقلابا خطيراً اهتزت له عروش القياصرة والأكاسرة. وأدخل تغييرات جديدة في نظم الحكم على النحو الذي رأيناه في نظام البريد، غير أن عناية خلفاء المسلمين بحمام الزاجل [٤]. لم تكن دون عنايتهم بالبريد البري. فمن إدارة تشرف على الحمام في أنحاء المملكة. ومن عمال في الأبراج يراقبون مجيء الحمام وسفره، ومن بغال مجاميع الحمام

(١) الطائر الغريد ص ١١.

(٢) تاريخ البريد في مصر ص ٤٠.

(٣) الحضارة الإسلامية في القرن ٤ جـ ٢ ذيل ص ٣٥٧_ المقتطف عدد خاص سبتمبر سنة ١٩٣٧.

٤() الزجل، الرمي بالشيء تأخذه بيدك فترمي به والزجل ارسال الحمام الهادي من مزجل بعيد. وقد زجل به يزجل. وزجل الحمام يزجلها رجلا أرسلها على بعد وهي حمام الزاجل والزجال وربما أوقع الزاجل على الغناء قال وهو يغنيها زاجلا. والزجل رفع الصوت المطرب وقال: يا ليتنا كنا حمامى زاجل_ لسان العرب جـ ١٣ ص ٢٠.

من المطارات الرئيسية إلى الفرعية. كل ذلك جمعه ورتبه نظام دقيق شامل تراه بعد ثوان. يقال أن أول استخدام للحمام في حمل الرسائل نشأ في الموصل... ثم في مصر على عهد الفاطميين ثم العباسيين. قامت بين الأسكندرونه في سوريا وبين مدينة بغداد مخابرات متواصلة بحمام يسمونه حمام حلب (١) بينما يقول العلامة هيوبرت (٢) برد أن الخليفة المهدي ثالث خلفاء بني العباس هو أول من نظم استخدام الحمام في البريد وذلك في القرن الثامن الميلادي. في حين أن أول وثيقة جاءت مصداقا لهذا الموضوع وجدت في حكم المعتصم عندما أرسلت إليه_ وهو بمدينة سامرا_ أنباء القبض على بابك بواسطة حمام الزاجل وإليك نص عبارة المسعودي (٣) أحد مؤرخي القرن الرابع الهجري «وأطلقت الطيور إلى المعتصم. وكتب إليه بالفتح. فلما وصل ذلك ضج الناس بالتفكير وعمهم الفرح، وأظهروا السرور، وكتب الكتب إلى الأمصار بالفتح» على أن الخلفاء من بعده خطو خطوات واسعة في تنظيم نقل البريد بواسطة الحمام، ففي حكم الخليفة الناصر لدين الله يبدو أنها كانت تستخدم على نطاق واسع (٤).

وفي أوائل القرن الرابع نجد أخباراً كثيرة عن استعمال الحمام بالعراق، فمن ذلك أنه لما تقلد حامد بن العباس الوزارة في سنة ٣٠٤ هـ وروسل بالقدوم على الخليفة كتب على عدة أطيار بخروجه في يومه (٥) وحكى عريب في حوادث سنة ٣١١ هـ أن القراطمة لما دخلوا البصرة أخبروا الناس بعزل ابن الفرات وولاية حامد بن العباس قبل أن يجيء الخبر إلى البصرة بأربعة أيام. ولما جاء الخبر بعد ذلك لأهل البصرة علموا ما أرادت القراطمة بذلك وأن الخبر أتاهم من وقته في جناح طائر (٦). وعند ما قرب القرامطة من الأنبار تشوق المقتدر إلى معرفة أخباره، فلما عرف أبو

---

(١) زبدة كشف الممالك ص ١٧_ الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢١٤ التعريف ص ٥٨.

(٢) مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرابعة ص ٨.

(٣) مروج الذهب طبعة باريس جـ ٧ ص ١٢٦_ Ameer Ali S, P, 118.

(٤) Ameer Ali S, P, 118.

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٥٨.

(٦) صلة تاريخ الطبري ص ٥٧.

علي بن مقلة ذلك طلب أطيارا وأنفذها إلى الأنبار وكتب له عليها أخبار القرمطي وقتا بعد وقت [١]. فلما اشتد خطر القرامطة في تلك السنة رتب الوزير علي بن عيسى بين بغداد وبين مقرهم المرتبين، وسلم إليهم مائة طائرة إلى مائة رجل يكتبون له على أجنحتها كتبا بخير العدو في كل ساعة [٢]. وفي سنة ٣٢١ هـ استطاع ابن قرابة أ، يحمل إلى الوزير ابن مقلة أخبار سلامة الكوفة من القرمطي لأن أطيار جاره_ وهو من أهل الكوفة_ حملت إليه أنباء أصدق مما حملته أطيار صاحب المعونة المعين في الكوفة من قبل الوزير، فتعجب ابن مقلة من أن يكون ابن قرابة أعرف بأخبار الكوفة من أصحاب المعونة [٣].

ومن غريب أخبار سنة ٣٢٨ هـ أن طائرا وقع لغلمان بحكم فوجدوا على ذنبه كتابا من بجكم بخط كاتبه إلى أخيه يعرفه فيه أخبار بجكم وأسراره، ووصلت الرسائل في ذلك العصر من الرقة والموصل إلى بغداد وواسط والبصرة والكوفة بواسطة الأطيار في يوم وليلة [٤] وفي النصف الثاني من القرن الرابع كان عند مُحَمَّد بن عمر أبي الحسن الشريف_ وكان علويا وجيها متعولا ببغداد_ طيور كوفية وبالكوفة طيور بغدادية ويكتب على الطير إلى الكوفة فيأتيه الخبر في ساعة أو نحوها، وجلس هذا الشريف عند الوزير مرة فوصل إلى الوزير خبر وصول رسول القرامطة إلى الكوفة وأنه لا بد من الكتابة إلى الكوفة بالقيام بالواجب مع الرسول، فأرسل الشريف إلى الكوفة بالخير وجاءه الرد بوصول الكتاب وامتثال الإشارة وهو جالس مع الوزير وكان هذا يحسبه متهاونا في الأمر [٥].

ويغلب على الظن أن مؤسس فرقة القرامطة في القرن الثالث الهجري قد عول

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٣٥_ ٢٤٠، تجارب الأمم جـ ٥ ص ٢٩٨.

(٢) تجارب الأمم جـ ٥ ص ٢٩٨.

(٣) المرجع السابق جـ ٥ ص ٤١٦.

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٥٨.

(٥) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٥٩.

كثيرا على البريد الجوي في إنجاح حركته وأحداث الارتباكات في جنوب العراق. وهذا من غير شك عمل كبير قامت به الحمامة، ذلك الطائر الوديع، ذو الصوت الموسيقي الجميل، وهذا العمل لا يمكن أن يتم بغيرها اللهم إلا بواسطة التلغراف اللاسلكي، وهذا لم يكمل أتقانه إلا في الأزمنة الحديثة وحتى بالرغم من هذا فإنه لم يكن من المستطاع الاستغناء عن الحمام في نقل الأخبار.

ويطل الأستاذ هيوبرث [1] يرد سبب اهتمام خلفاء المسلمين بالبريد الجوي بأن طريق السفر في الصحراء كان غير آمن في العصور الوسطى فتغلبوا على وحشته بواسطة القوافل المسلحة التي تتكون عادة من نحو ألفين أو ثلاثة آلاف ([2]) من الإبل. تنظيم تنظيما محكما مرة أو مرتين فقط كل عام، وخوفا من أن تضل هذه القوافل الطريق أو تضيع لجأوا إلى حراستها بواسطة إقامة أبراج الحمام في حلب ودمشق والبصرة وغيرها من المدن الواصلة إلى مكة وبغداد وهما أهم مدينتين للقوافل في ذلك العصر... وذلك لأن الحمام الزاجل اعتبر في ذلك الوقت الوسيلة الوحيدة للمراسلات بين الأماكن المنقطعة في الصحراء وبين لبمدن المعمورة. فيطلق بعض هذه الحمام إلى حلب أو البصرة لإخبار التجار المنتظرين هناك بمكان القوافل القادمة. وجرت العاده أن يحتفظ بالطيور الفارهة لاستخدامها في وقت الخطر فيطلقها رئيس القافلة في اللحظة التي يداهمه الخطر في الصحراء طالما المعونة من آخر مدينة غادرتها؛ ولم تمض سويعات قليلة حتى يكون الطائر الفاره قد حمل رسالته وتكون النجدة في طريقها إلى القافلة وإذا رأى رئيس القافلة الكبرى الطريق آمنا كتب بذلك رسالة وإرسلها بالحمام الزاجل إلى القوافل الصغيرة التي تريد أن تتبع الطريق ذاته، ثم تطور الأمر وأصبح الحمام يستعمل أيضا في البريد الرسمي ويؤدي غرضا حكوميا هاما.

(٣) المطارات الجوية: وعلى الرغم مما سبق ذكره فإن الدولة الإسلامية لم تعتن

---

(١) مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرابعة ص ٨.

(٢) رأي استرابو هذه القوافل التجارية في العصور القديمة وشبه القافلة منها بجيش وذكر الطبري أن قافلة من هذه القوافل بلغت خمسمائة وألف بعير. فجر الإسلام جـ ١ ص ١٦.

بالحمام الزاجل العناية الكافية، ولم تخصص له الإدارات الخاصة إلا في العصور الإسلامية الوسطى، وكانت مصر بلا ريب سباقة إلى استخدامه بنظام منقطع النظير من حيث الدقة والإحكام، خصوصا بعد أن آلت إليها زعامة الأمم الشرقية عقب وفاة نور الدين محمود الذي يرجع إليه الفضل الأكبر في تنسيق هذا النوع من البريد، إذ وصل التراسل بالحمام الزاجل في عهده إلى مرتبة البريد الإعتيادي بنوع مستوفي في النظام من مراكز ومستخدمين. حتى يقال أنه نظم خطا لنقل البريد بين مصر والشام وأعد له مطارات ذات أبراج في كل ثلاثة عشر ميلا. وأقام لها نظارا وحراسا يراقبون وصول الحمام نهارا وليلا، خوفا من أن يمر عليهم وهم عنه غافلون وإلى جانب هذا الخط الرئيسي أنشأ خطوطا ثانوية أخرى منها [(١)]:-

(١) الخط من مطار قلعة الجبل (القاهرة) إلى الوجه القبلي (قوص وأسوان وعيذاب).

(٢) الخط من مطار قلعة الجبل إلى الإسكندرية وبه مطاران منوف العليا ودمنهور الوحش.

(٣) الخط من مطار قلعة الجبل إلى دمياط وبه مطاران بني عبيد وأشمون الرمان.

(٤) الخط من مطار قلعة الجبل إلى دمشق عن طريق غزة والقدس وبه مطارات عديدة.

(٥) الخط من مطار دمشق إلى برته على نهر الفرات.

(٦) الخط من مطار دمشق إلى بيروت وطرابلس.

(٧) الخط بين حلب والرحبة على الفرات.

(٨) الخط بين غزة والكرك على البحر الميت.

---

(١) زبدة كشف الممالك ص ١١٧. تاريخ البريد في مصر ص ٤١- ٤٣_ الطائر الغريد في وصف البريد ص ١٠_ ١١.

(٩) الخط بين دمشق وبعلبك.

(١٠) الخط بين برتة وقيصرية.

وإذا دققنا النظر في تلك الخطوط نلحظ أنها نفس الخطوط الذي انتظم فيها نقل البريد بواسطة الجياد في ذلك العهد، غير أن الحمام يقطع المحطة في ثلث الوقت الذي يقطعها فيه الجواد. ويوجد في كل مطار من مطارات الحمام برج أو أكثر يحفظ به الحمام من المحطتيم السابقة واللاحقة، لكي تحمل الحمامة رسالتها إلى المحطة التي جلبت منها، وعليه فقد كان لزاما أن تتبادل المحطات الحمام، وتتم عملية التبادل باستخدام جياد السلطان لنقل الحمام بين المطارات تحت إشراف المراقبين الذين شيدت لهم في المطارات الهامة أماكن للاستراحة. ولنقل إحدى الرسائل من خط ما لا بد من استخدام جميع الأبراج الواقعة على طول هذا الخط، بمعنى أنه إذا أراد حاكم دمشق مثلا أن يبعث برسالة إلى القاهرة استخدم لهذا الغرض حمامة من حمام المطار التالي وهو مطار «تفاس» ولا تزال الرسائل تنتقل كذلك من تفاس إلى بيسان ومن بيسان إلى جنين فنابلس فأورشليم، فقاطبة فغزة فالواردة فالصالحية حتى تصل إلى بلبيس فترسل منها إلى القاهرة.

ولا شك أن تسلم الرسالة من الحمامة وشدها إلى أخرى في كل محطة يستغرق الكثير من الوقت، ولكن ضياع الوقت لم يكن يذكر في شيء إلى جانب ما في هذه الطريقة من المزايا العظيمة. وأول هذه المزايا أن قصر المسافة بين المحطات لم يكن يحتم استخدام الحمام من نوع الزاجل الصميم وهو نوع كان ولا يزال نادراً وغالي الثمن، ولذلك استخدم الحمام العادي، أضف إلى ذلك أن قصر المسافة من شأنه أن يقلل من الأخطار التي يستهدف لها الحمام، وذلك مما يزيد الثقة والأمل في وصول الرسائل. ويوجد فضلاً عن ذلك بريد مباشر بين عاصمة السلطنة وسائر الولايات، فإذا أراد السلطان مثلا أن يبعث برسالة من القاهرة إلى دمشق أطلق من أبراجه حمامه من حمام دمشق فتصل إليها الرسالة في مرحلة واحدة بغير توقف، ولم يكن

يستخدم لمثل هذه الأسفار البعيدة غير حمام الزاجل الصميم، والفارق بين هذا الحمام وغيره كالفارق بين أفراس الرهان والنقل [1].

أما كيفية التراسل بالحمام فكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها، وجرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقة أن تكتب الرسالة من صورتين، ترسلان مع حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى حتى إذا ضلت إحداهما أو قتلت وافترسها الجوارح أمكن الاعتماد على الأخرى، وجرت العادة كذلك ألا يطلق الحمام في الجو الماطر ولا أن يطلق قبل تغذيته الغذاء الكافي [2]. وكانت الطريقة المتبعة إذا بطق الطائر من مطار قلعة الجبل إلى مطار الإسكندرية فلا يسرح إلا من منية عقبة بالجيزة وهي أول المراكز، وإذا سرح إلى الشرقية لا يطلق إلا من مسجد التين خارج القاهرة وكان يسير مع المطيرين من يوصلهم إلى هذه الأماكن من موظفي إدارة الحمام بالقاهرة. وكذلك كانت العادة في كل مملكة أن يتوخى الإبعاد في التسريح عن مستقر الحمام والقصد بذلك أنها لا ترجع إلى أبراجها من قريب [3].

أما كيفية التراسل الحربي بواسطة الحمام فقد اتبع الأقدمون طريقة وضع الرسالة ضمن كيس من الجلد الرقيق أو ضمن قارورة من الورق الذهبي لحفظ الرسالة من العوارض الجوية وتعلق بعنق الحمامة أو رجلها، وأما المتأخرون فيضع بعضهم الرسالة ضمن غلاف صغير من الورق المزيت ويعلقونها في عنق الحمامة وبعضهم يضعها في جوف ريشة ويربطون تلك الريشة بالريشة المتوسطة من ذنب الحمامه، وهذه الطرقة أستر للتراسل إلا أن الرسالة لا تكون وافية بالمقصود لصغر حجمها [4]. فعند حدوث أمر ذي بال يعلق السلطان الخبر بعنق الحمامة. ويضع ضمن القارورة رسالة

(١) تاريخ البريد في مصر ص ٤٣_ تاريخ البريد في العالم ص ١٠_ الطائر الغريد في وصف البريد ص ١١.

(٢) خطط المقريزي جـ ٣ ص ٣٧٥_ النظم الإسلامية ص ٣٥٨_ الظاهر بيبرس ص ١٣٧.

(٣) المقريزي جـ ٣ ص ٣٧٥_ الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢٤٤.

(٤) الطائر الغريد ص ٩_ تاريخ البريد في العالم ص ٩.

أخرى من الورق الرقيق أسماها «ورق البطاق» ثم يوضع على ظهرها وقت سفر الحمامة بالتدقيق التام، ويقيد حارس كل مركز عند وصول الحمامة إلى البرج ساعة وصولها إليه وذهابها منه وذلك على ظهر الرسالة التي تحملها الحمامة [1].

وامتازت رسائل الحمام بالإيجاز فيستغني فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل في ذلك العصر. ويكتفي فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب صيغة مقتضبة كالتي تستعمل في البريقات في وقتنا هذا. ولا بد وأن يكتب سرح الطائر ورفيقه، حتى أن تأخر الواحد ترقب حضوره أو تطلب، ولا يعمل للبطائق هامش ولا تجمل ويكتب آخرها حسبلة، ولا تعنون إلا إذا كانت منقولة مثل أن تسرح إلى السلطان من مكان بعيد فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد، ولكل وإلى تصل إليه يكتب في ظهرها أنها وصلت إليه ونقلها حتى تصل مختومة [2].

(٤) الحمام الراجل في مصر الإسلامية: تبع انتقال حكم الفواطم من بلاد المغرب إلى مصر تمتع الأخيرة بكثير من النظم الإدارية ذات الطابع المصري الخالص، ذلك أن الفاطميين قد حافظوا على العناية بالحمام وبالغوا فيه حتى أفردوا له له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام [3]. واستخلصنا من روايتين للقلقشندي وجاستون [4] فييت أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القراصية البعلبكية (الكرز) وأنه يجب أن يراها. ويجد بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق، فكتب الوزير لوقته لطاقته يأمر فيها من هو تحت أمره بدمشق أن

---

(١)الطائر الغريد ص ٩

(٢) خطط المقريزي جـ ٣ ص ٣٧٥_ النظم الإسلامية ص ٢٥٨_ الظاهر بيبرس ص ١٣٦ تاريخ البريد ص ٤٣.

(٣) التعريف ص ٥٨_ زبدة كشف الممالك ص ١١٧– مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرابعة ص ٨.

(٤) القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٩١_ المقتطف سبتمبر سنة ١٩٣٧.

يجمع ما بها من الحمام المصري ويعلق في كل طائر من القراصية البعلبكية ويرسلها إلى مصر ففعل، وانطلقت مائة وعشرون حمامة صوب العاصمة فوصلت إبراجها إلا عشر منها في ثلاثة أيام أو أربعة على أكثر تقدير. وجمع الوزير الحبات وقدمها إلى العزيز فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه... وقد لفت نظري اختلاف المؤرخين في زمن وصول الحمام من دمشق إلى القاهرة، فالقلقشندي يقول أنه وصل في نفس اليوم الذي أطلق فيه سراحه من دمشق، ويقول جاستون فييت أنه وصل بعد ثلاثة أيام أو أربعه وقد يكون كلاهما صادقا فيما يقول، فالقلقشندي يخيل إلينا أنه قصد استخدام الحمام الزاجل الأصيل في آداء هذه المهمة وهذا النوع من الحمام له خط مباشر من القاهرة إلى الشام فمن المعقول أن يصل في نفس اليوم الذي أطلق فيه... على حين جاستون فييت أحتسب الزمن ثلاثة أيام أو أربعة، وهذا صحيح أيضا على اعتبار أن الحمام الذي استخدمه الوالي كان من النوع العادي وهذا يحتاج إلى زمن أطول نظرا لإنتقاله من برج إلى آخر على طول الخط الجوي من الشام إلى القاهرة. ومما ذكر القلقشندي أيضاً أن الوزير اليازوري المغربي وزير المستنصر بالله الفاطمي استخدم الحمام في نقل الأخبار ما بين تونس وبلاد المغرب ومصر...

ثم حدث أن تقوضت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبي الذي انفراد بملك مصر والشام وتوسع في تنظيم إدارة البريد الجوي، واستفاد كثيراً من خدماتها إبان الحروب الصليبية. ففي وقت حصاره مدينة عكا في أغسطس سنة ١١٩٠م. انقطعت صلته بمصر والعالم الخارجي إلا عن طريق الجو حيث شقت أسراب الحمام الزاجل عنان السماء حاملة في أجنحتها أنباء مصر وما يجري فيها من حوادث، على حين حمل بعضها الآخر الرسائل الودية بين السلطان وبين صديقه الإمبراطور اسحق [١].

(١) كتاب الفسيح القسي لعماد الدين الكاتب ص ١٧٧_ Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem p. 270 _ راجع المقريزي: السلوك هـ ٣ قسم ٢ عن الدور الذي قام به الحمام الزاجل في الخلاف القائم بين ملوك بني أيوب ص ٢٨٥.

والمستنتج من خلاصة هذه الروايات التاريخية أن تاريخ ذلك العهد قد حفل بطريف أخبار الحمام الزاجل والأدوار التي استخدم فيها في الحروب والسياسة والإدارة. وظلت أبراجه ونظمه في مصر وسوريا موضع العناية حتى غزا التتر سوريا في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي، فشتتوا الحمام ودمروا أبراجه وأتلفوا محطات البريد ومسالك البريدين [١]... ولكن مما لا شك فيه أن هذه المحطات والمسالك أعيد إصلاحها في عهد السلطان الظاهر بيبرس الذي لم تكن عنايته بالبريد الجوي أقل منها بالبريد البري. وساعد الحمام الزاجل خلفاءه على ضبط الأمن وإخماد الفتن والثورات. من ذلك ما رواه ابن بطوطة [٢] عن الناصر محمد أن ثورة قامت في الأسكندرية بين المسلمين والنصارى واستفحل خطرها ولكن طير الهبر على جناح الحمام فتداركها الملك الناصر وهي في مهدها، وحدث مثلها في مدينة جبله بالشام وطار الحمام إليه بالخبر وتعاون عن طريق البريد الجوي مع عماله هناك على إطفائها فكان الفضل في ذلك للحمام طبعا.

أثمان حمام الزاجل:

ومما يدل على مبلغ إتقان هذا البريد الجوي أن حمامه عرف بعلاماته تشبيها برسل البريد البري كبصم منقاره ببصمات خاصة ونقش اسم السلطان عليها، ونمرتها على رجليها أو قص ريشه بطرق معروفة. فإذا وصل إلى قلعة الجبل ببطاقة تولي السلطان قطعها بنفسه إلى حد أنه إذا كان جالسا على مائدته أو نائما في فراشه أو داخل حمامه فإنه يسرع حالا إلى نزع البطاقة [٣] الأمر الذي يفسر اهتمام السلاطين وحرصهم على الوقوف على كل ما يتجدد في أنحاء إمبراطوريتهم فيأخدون حذرهم ويستعدون للطوارىء.

---

(١) تاريخ البريد في مصر ص ٤٤.

(٢) ابن بطوطة جـ ٢ ص ١٨، ٦٢.

(٣) خطط المقريزي جـ ٣ ص ٣٧٥. النظم الإسلامية ص ٢٥٨. الظاهر بيبرس ص ١٣٦.

ووضع تحت إمرة السلطان في القاهرة وحدها عدد وافر من الحمام الزاجل قدره المقريزي [1] بألف وستمائة حمامة. ولم يبالغ المقريزي حين قال أن الحمام في سائر الأبراج فاق العدد والحصر، وأن الساطان يستطيع وهو في أية بقعة من بقاع السلطنة أن يتصل بسائر حكام الولايات بفضل الحمام الذي يرافق ركابه اينما ذهب.

ومما لا شك فيه أن إدارة بريد الحمام الزاجل قد كلفت خزانة الدولة الأموال الباهظة وفي اعتقادي أن نفقاتها قد تزيد على نفقات البريد العادي، وقد يكون لهذا الاعتقاد شيء من الصحة إذا أدركنا أن خلفاء بني العباس بل والطبقات الممتازة في العراق سيما بالبصرة قد تنافسوا في اقتناء الحمام الزاجل إلى حد الإفراط حتى الفقهاء ورجال الدين أنفسهم لا يمتنعون عن المنافسة فيه والأخبار عنها. ومن طريف ما يذكر أن أهل البصرة وجهوا إلى بكار بن شيبة البكراني قاضي مصر_ وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاض_ بحمامات لهم مع ثقات وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه ففعل [2].

وكان لهذا التنافس أثره الملموس في ارتفاع أثمان الحمام وقد ذكرت الرواية التاريخية أن حمامة بيعت في بغداد على عهد العباسيين بسبعمائة دينار (أي نحو ٣٥٠ جنيها) وأخرى حملت إليها من القسطنطينية فبيعت بألف دينار (أي نحو ٥٠٠ جنيها) وكانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالفراهة بعشرين ديناراً [3]. الأمر الذي جعلهم يعتنون بإدارته وبتعيين موظفين عندهم دفاتر أنساب الحمام وبعد المسافات التي أرسلت فيها... وكما اعتنوا بأنساب الخيل والإبل اعتنوا بالحمام، فألف بعضهم

---

(١) خطط المقريزي جـ ٣ ص ٣٧٥_ Lane Pole His Hist. p 246_ الهلال مجلد ٧ من السنة العاشرة ص ٢١٥ راجع Sauvaget p. 37.

(٢) القلقشندس جـ ١٤ ص ٢٦٠.

(٣) حسن المحاضرة للسيوطي جـ ٢ ص ٨٦ القلقشندي جـ ١٤ ص ٣٤٠. الهلال مجلد ٧ من السنة ١٠ ٢ ١٨٦.

كتبا تبحث في أصلها ومميزاتها وخصائصها ونظموا الأشعار فيها [1].

وحاز حمار العراق الشهرة بين الحمام المستعمل لحمل الرسائل، لأنه يدجن سريعا ويتعلم في وقت قريب، وأكثر أنواع الحمام تعلقا بوطنه وأحرصها على الإبقاء عليه والعودة سريعا إليه. ولا تزال الأسراب الكثيرة من نسل حمام السلاطين باقية بقرية كفتين على بعد عشرة أميال من حلب. وأسرع نوع من الحمام يقطع في الساعة من أربعين ميلا إلى خمسين وأقل نوع منه من خمسة وعشرين إلى ثلاثين ميلا والمعدل المتوسط لطيران الحمام خمسة وثلاثون ميلا بالساعة [2]. وقد وصف أحد الرحالة الأوروبيين في القرن السادس عشر الميلادي كيف كان الحمام يحمل الرسائل الهامة إلى ألف ميل من البصرة إلى القسطنطينية ومن بغداد إلى جميع أنحاء العالم العربي، والذي جعل قطع هذه المسافات الطويلة أمراً ممكنا إنشاء أبراج الحمام على مسافات يبعد بعضها عن بعض بخمسين ميلا على طول طرق القوافل في جميع البلاد الإسلامية. وقد استخدم النجار الأوربيون في الأسكندرونة الحمام الزاجل في نقل الرسائل إلى قناصلهم في حلب يعلمونه فيها بموعد وصول السفن. وهذه الطيور تأتي بالرسائل إلى حلب في ظرف أربع ساعات أو خمس بدلاً من أربعة أيام لو أرسلت بوسيلة أخرى... ومن طرف ما يذكر أن حمامة حملت مرة رسالة تنبيء بارتفاع عظيم في سعر جوز العفص في الأسواق الأوربية ولكنها قتلت في أثناء طيرانها من الأسكندرونه إلى حلب، ووقعت في يدي أحد التجار الذي علم بهذا الخبر وأسرع في الحال إلى جمع مقدار

---

(١) الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢١٦.

ومن لطيف ما قاله أحدهم في وصف هذا الطائر.

خضـــر تفـــوت الـــريح في طيرانهـــا	يا بعـــد بـــين غـــدوها ورواجهـــا
تأتي بأخبـــار العـــدو عشـــية	لمســير شـــهر تحـــت ريـــش جناحهـــا
وكأنمـــا الـــروح الأمـــين بوحيـــه	نفـــث الهدايـــة منـــه في أرواحهـــا

(٢) الطائر الغريد ص ٨.

كبير من جوز العفص ربح من الأتجار فيه مبلغاً طائلاً من المال؛ وسرعان ما نهج التجار الآخرون نهج هذا التاجر في قتل الحمام سعياً وراء الحصول على الأنباء حتى لم يبق في سماء سوريا طيرا واحداً آمنا. وفي هذه الحال قرر التجار الأوروبيون برضاهم على ما يقال عدم استخدام الحمام في إرسال رسائلهم لأن أيامه قد انتهت في عالم التجارة على ما زعموا [1].

يضاف إلى ما سبق من فحش أثمان الحمام تكاليف إنشاء أبراجه ومحطاته وتزويدها بالبغال السطانية لنقله من برج إلى آخر ثم تعيين الموظفين على اختلاف راتبهم من نظار ومقدمين ومطيرين. ومن الغريب أن الرواية التاريخية قد سكتت عن ذكر مرتبات هؤلاء جيمعاً إلا أنها أشارت إلى ما يستهلكه الحمام يومياً من الغلال بقولها:

«والعلوفات تصرف من الأهراء السلطانية فتبلغ النفقة عليها من الأموال مالا يحصى كثره، وكانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع ويبة فول في كل يوم [2]».

الحمام في الأزمنة الحديثة:

هذا غاية ما استوعبته عن حمام الزاجل من مختلف المصادر العربية والإفرنجية التي تيسر لي الإطلاع عليها. ثم أذيل أخيراً هذا الفصل بكلمة عن أثر الحمام في الحروب الحديثة. فبالرغم من اكتشاف التلغراف اللاسلكي وانتقاصه الشيء الكثير من أهمية الحمام في نقل الأخبار فإن الدول لم تكن في غنى عنه، بل لا زالت تتخذه وسيلة من وسائل الانتصار والظفر في ساحات القتال، وتفتت في حمل هذه الطيور في ميادينه، واصطنعوا لكل منها غمدا من الحديد أو الصفيح يدخلون الطائر فيه وله غطاء يغطي الرأس ولا يمنع عنه الهواء وإذا أرادوا إطعامه أو إرواءه رفعوا الغطاء وقدموا له الإناء واصطنعوا للجند أحزمة بصنانير ييعلق بها الطائر من غمده. والغالب

(١) الطائر الغريد ص ١١، مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرباعة ص ٩.

(٢) خطط المقريزي جـ ٣ ص ٢٧٥_ الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ١١٤.

أن يحمل هذه الطيور طلائع الجند في خروجهم لاستطلاع أحوال العدو لأنهم يبعدون عن معسكرهم لاستكشاف مواقع الأعداء، فيذهبون والحمام معلق في أحزمتهم فإذا رأوا أمرا يدعو لللمخابرة كتبوا البطاقة وأدخلوها في أنبوب من الألومنيوم منبسط الشكل يعلق بذيل الحمامة، وأطلقوا الطائر من غمده فيطلب المعكسر بأسرع من لمح البصر (١).

ولعل القاريء يعلم أن الطيار في مقعد طائرته يجد سبيل عودته إلى مطاره بواسطة البصلة والراديو، أما الحمام فيجد طريقه إلى برجه بواسطة غريزته الطبيعية التي تجذبه إلى بيته كما يجذب المغناطيس الحديد. لذا يحمل الطيارون معهم دائماً في قاذفاتهم صندوقين ملآنين بالحمام الزاجل ليكون واسطة إنقاذهم عند الخطر إذا أسعدهم الحظ وهذا سر ما نراه من أبراج الحمام منتشرة هنا وهناك بالقرب من المطارات. ويقال (٢) إن وزارة التموين البريطانية تستخدم في كل يوم ما يربو على ألف ومائتين وخمسين حمامة في حمل رسائلها، خصوصا في الأوقات التي تعطل فيها التليفونات أو تشغل لعدة ساعات فيستعاض عنها بالحمام الذي يقطع مسافة مائة ميل في نحو ساعة ونصف ساعة.

فلا غرابة إذن فيما أصدره الحاكم العسكري في مصر من أمر يمنع بمقتضاه اقتناء الحمام الزاجل، ويوجب تسليم ما يوجد منه إلى جهات الإدارة. وإليك نص مواد هذا الأمر العسكر (٣).

مادة ١– يحظر حيازة حمام الزاجل بجميع أنواعه وكذلك استخدامه.

مادة ٢– على كل حائز لحمام زاجل أن يسلمه في خلال أسبوع من تاريخ العمل بهذا الأمر إلى جهو الإدارة التي يقيم في دائرتها ويعوض أصحاب الحمام طبقاً

---

(١) الهلال المجلد السابع من السنة العاشرة ص ٢١٧.

(٢) مجلة المستمع العربي العدد السابع من السنة الرابعة ص ٩.

(٣) الوقائع المصرية العدد ١٥٢ الصادر في ١٩٤٢/٨/١٦ أمر رقم ٣١٦ بحظر حيازة الحمام الزاجل.

لأحكام المرسوم بقانون رقم ١٥٧ لسنة ١٩٣٩ والأمر رقم ٤٨.

مادة ٣- كل مخالفة لأحكام هذا الأمر يعاقب عليها بالحبس مدة لا تزيد على سنة وبغرامة لا تتجاوز مائة جنية أو بإحدى هاتين العقوبتين ويضبط الحمام موضوع المخالفة ويحكم بمصادرته.

مادة ٤- يعمل بهذا الأمر من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

الفصل السابع

نظام التخاطب بالمشاعل والطبول والماء

(أ) المشاعل

(١) قبل الدولة الإسلامية: إن استخدام النار في التخاطب لم يكن بالأمر المستحدث في العصور الإسلامية بل هو قديم بقدم التاريخ ومعروف من غابر العصور، فمما يروي [١] عن الملك نخلو الثاني أنه أتخذ بحارة من الفينيقيين للطواف على سواحل أفريقية واكتشاف أقطار جديدة تدر الخير عليه وعلى بلاده... والرحلة في حد ذاتها لا تعنينا بقدر ما يعنينا النوادر التي صادفت أعضاءها، فمن ذلك عجزهم عن مخاطبة المواطنين أينما حلوا بالهيروغليفية أو غيرها من اللغات المصرية القديمة، ولكن سرعان ما وجد البحارة في النار وسيلة للتخاطب مع أهالي الساحل الغربي خصوصاً. فيذكر هيرودوت أنهم كانوا بوقدون النار إذا ما نزلوا إلى البر، ويضعون بضاعتهم بجانبها ويعودون إلى سفنهم فعندما يرى الأهالي الدخان المتصاعد يسرعون نحو الشاطيء ويفحصون ما عليه من بضاعة ويضعون بجانبها ما تساويه في نظرهم من الذهب، ويتراجعون إلى مسافة بعيدة... عندئذ ينزل الفينقيون إلى البر مرة أخرى فإذا ما راقهم ما تركه الأهالي من ذهب ورأوا أنه يكفي كثمن لبضاعتهم أخذوه ورحلوا؛ أما إذا رغبوا ثمنا أعلى رفضوا ما ترك وأشعلوا النار وعادوا إلى سفنهم ثانية، وانتظروا صابرين فيعود الوطنيون، ويزيدون على الذهب ثم ينسحبون حتى يتأكدوا من رضاء التجار... هذه الأسطورة عظيمة الأهمية من الناحية التاريخية لأنها تضع النار موضع المترجم في عصورنا لحديثة، فدخانها المتصاعد أخطر الأهالي بوجود نزلاء على الساحل، واستمرار تصاعده أشعرهم بأن بحارة تخلو يطلبون المزيد من الثمن.

(١) مصر في العصور القديمة للمدارس الثانوية ص ١٤٣ للأستاذ شفيق غربال.

وهناك رواية تاريخية ثانية وردت في القرآن الكريم تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يخاطب سيدنا موسى عن طريق النار فتجلى نوره على الجبل... ولما رأى موسى عليه السلام النار على بعد توقع الخير من ورائها، وتلمس أسباب النجاة من قومه.

فلما آتاها خاطبه الله سبحانه وتعالى، وطمأنه بالسلامة والخلاص، وجاء على لسان القرآن [1]:

«وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله أمكثوا إني آنست ناراً، لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى [2]»

وتاريخ بني إسرائيل حافل بكثير من النصوص التاريخية التي تؤكد أنهم عولوا كثيرا على النار في نقل أخبارهم. فمن ذلك أن بباربة (ملك السامرية) اتفق مع قومه على الطريقة التي يراسلهم بها عند بدء المعركة بينه وبين ملوك الروم وقادستهم ورهبانهم ويقول المؤرخ [3] في ذلك: «نفذ بباربه إلى كل القرى التي فيها السامرة. وقال لهم كونوا على هيئة إلى نصف الليل، فعندما تبصروا النار هلى قبة الزمان اقتلوا الوكلاء الذين عليكم، ولا تخلوا حولكم من الروم إنسانا إلا واقتلوه» ثم أعطيت الإشارة ووصل الخبر وقام السامرة «وأشعلوا النار على رأس القبة فقام كل السامرة وقتلوا جميع الوكلاء الذين عليهم» وهكذا كانت النار علامة على وصول الخبر ونذيرا بشن الغارات على الروم فأحرقت كنائسهم، وضربت رقاب ملوكهم ورهبانهم وقساوستهم وقامت الحرب بين الفئتين وكتب بعدها النصر لليهود...

---

(١) سورة طه ص ٤٠٦.

(٢) يقول الطبري في تفسيره (حـ ١٦ ص ١٠٨) أجد على النار هدى دلالة تدل على الطريق الذي أضللناه، أما من خير هاد يهدينا إليه، وأما من بيان وعلم نتنينه به ونعرفه. وقال هدى عن علم الطريق الذي أضللناه من خبر. وقال أيضاً (جـ ١٦ ص ١٠٧) أن موسى سار بأهله فضل الطريق وكان في الشتاء وقعت لهم نار، فلما رآها ظن أنها نار وكانت من نور الله.

(٣) تاريخ اليهود ص ١٤٢.

لم يقتصر تعظيم شأن النار في صدور بني إسرائيل فحسب بل زاد ذلك التعظيم عند العرب أيضا، ولعل العرب كانوا أكثر حرصا على تعظيمها من بني إسرائيل بدليل اختلاف لغة النار عندهم باختلاف نوعها فالنار عند عرب الجاهلية تعددت لهجاتها وتباينت مصطلحاتها ورموزها. من ذلك نار الاستمطار وكانوا يوقدونها إذا تتابعت عليهم الأزمان، وركد عليهم البلاء وشاتد الجدب زاحتاجوا إلى الأستمطار، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر ثم صعدوا بها جبل وعر وأشعلوا فيها النيران وضجوا بالدعاء والتضرع [١].

ونار التحالف [٢] فلا يعقدون حلفهم إلا عندها، فيذكرون عند ذلك منافعها ويدعون إلى الله عز وجل بالحرمان والمنع من منافعها على الذي ينقض عهد الحلف ويخيس بالعهد. وكل قوم يذكرون جبلهم والمشهور من جبالهم وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم، ويهولون على من يخاف عليه الغدر بحقوقها ومنافعها والتخويف من حرمان منفعتها.

ومنها أيضاً نار القرى[٣] وكانوا يوقدونها في الليل ليرشدوا السائرين وليدعوهم إلى الضيافة والإكرام فكانت دليلاً على علو الهمة والنفور من الجبن والبخل.

ونار أخرى وهي النار التي كانوا إذا أرادوا حربا وتوقعوا جيشاً عظيماً وأرادوا الاحتماء، وأوقدوا ليلاً على جبلهم ناراً ليبلغ الخبر أصحابهم [٤].

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ١٤٩.

وفي ذلك قال آميه:

عاقـــدين النـــيران في شـــك الأذ	ناب عهـــدا كيمـــاتهيج البحـــورا
فرآهـــا الإلـــه ترســـم بالقـــط	ر وأمـــــي جنـــابهم ممطـــورا

(٢) نفس المصدر السابق جـ ٤ ص ١٥٠.

(٣) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ العبادي.

(٤) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ١٥١.

ويقول الطبري [١] أن الحارث بن عمرو الكندي ملك الحيرة خرج بصحبة «تبع» ملك اليمن لفتح فارس ووصلا حتى الصين وجعلا النار فيما بينهما،فإذا حدث حدث أوقد أحدهما النار بالليل فأتى الخبر في ليله للأخر، وآية ما بينهما أن إشعال نار واحدة يخالف المعنى في حالة إشعال نارين أو ثلاثة، وهكذا تغلبا على البعد المكاني فيما بينهما، وكانا على إتصال دائم بواسطة النار.

ونار أخرى وهي النار التي كانوا ربما أوقدوها خلف المسافر وخلف الزائر الذي لا يحبون رجوعه وكانوا يقولون في الدعاء أبعده الله وأسحقه وأوقد نارا خلفه [٢].

وما زال الناس كافة والأمم قاطبة_ حتى جاء الله بالحق_ مولعين بتعظيم النار حتى ضل كثير من الناس لافراطهم فيها، أنهم يعبدونها في صورة الشمس وقال الله تعالى في ذلك [٣]. «وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله». ويزعم [٤] أهل الكتاب أن الله تعالى أوصاهم بها وقال لا تطفئوا النيران من بيوتي فلذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات إلا وهي لا تخلو من نار أبداً ليلاً ولا نهاراً؛ حتى اتخذت للنيران البيوت والسدنه ووقفوا عيلها الغلات الكثيرة، وانتشرت هذه البيوت على وجه الخصوص في دولة فارس.

(٣) في الدولة الإسلامية: ثم يتقدم الزمن بالنار فتحظى بنصيب وافر من العناية في ظل الدولة الإسلامية. فيوضع نزام لأشعالها ويخصص عمال لمراقبتها وترصد لها الأموال في بيت المال وعرف المؤرخون الأماكن التي تشعل فيها النار بالمناور، وهي

وفي ذلك قال عمرو بن كلثوم:

ونحـــن غـــداة أو قـــد في خـــزاز   رقـــدنا فـــوق رفـــد الرافـــدينا

(١) الطبري جـ ٢ ص ٨٨٨ طبعة أبريل.

(٢) الحيوان لللجاحظ جـ ٤ ص ١٥١.

(٣) سورة النمل.

(٤) الحيوان للجاحظ جـ ٤ ص ١٥٢.

كما ذكرت الرواية العربية ([1]) مواضع رفع النار في الليل والدخان في النهار. وذلك أن مملكة إيران لما أصبحت بيد هولاكو من التتار ووقعت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة صار من جملة احتياط أهل هذه المملكة أن جعلوا أماكن مرتفعة من رؤوس الجبال توقد فيها النار ليلاً ويثار الدخان نهارا للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة. وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال وتارة تكون في أبنية عالية ومواضعها معروفة، تعرف بها أ:ثر السفارة، وهي من أقصى ثغور ([2]) الإسلام كالبيرة والرحبة، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل حتى أن المتجدد بالفرات إن كان بكرة علم به عشاء وإن كان عشاء به بكرة. ولما يرفع من هذه النيران أو يدخن من هذا الدخان أدله يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والمخبر به بإختلاف حالاتها، تارة في العدد وتارة في غير ذلك. وقد أرصد في كل منور الديادب والنظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم، ولهم على ذلك جوامك مقررة كانت لا تزال دارة. فأما في طريق الرحبة فكان ينور بمدينة عانه قوم من النصاح بحجة أمر سوي التنوير، ويستر عليهم أهل البلد حبا لملوكنا، فترى ناره أو دخانة بخربة الروم وبالجرف أيضا، ويرفع فيهما أو في أحدهما فيرى من كل منها بوادي الهيكل، ويرفع فيه فيرى بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالرحبة، ثم تستمر الرواية التاريخية في تعداد المناور المتشعبة حتى غزه. وكلها مناور تتشعب إلى ما خرج عن

---

(١) يقول المقدسي في هذا (ص ٤٤٤) وبفارس عجائب بطرف أرجان نار تشتعل بالليالي وتدخن بالنهار.

(٢) يتحدث المثدسي (ص ١٧٧) عن مناور الساحل الشامي واتخاذها وسيلة للتفاهم بين الروم والمسلمين عند افتداء أسرى الأخيرين، فيقول وعلى هذا الساحل رباطات على البحر يقع بها النفير وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانبهم معهم من أسارى المسلمين للمبيع كل ثلاثة بمائة دينار، وفي كل رباط قوم يعررفون لسانهم ويذهبون إيلهم في الرسالات ويحمل إليهم صنوف الأطعمة، وقد ضح بالنفير لما ترايت شلندياهم فإن كانت ليل أو قدت منارة ذلك الرباط وإن كان نهارا دخنوا، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة قد رتب فيها قوم فتوقد المنارة، التي تلي الرباط ثم التي تليها ثم الأخرى فلا يكون ساعة إلى وقد أنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة ويؤدي إلى ذلك الرباط وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أهل الرساتيق ثم يكون الفداء فرجل يشتري رجلا وآخر يطرح درهما أو خاتما حتى يشتري ما معهم.

جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنب جنوبا وشمالا وشرقا وغربا. ومنذ أصلح الله بين الفئتين وأمن جانب الجهتين فقد قل بذلك الاحتفال، وصرف عن البال. وهذه المناور رسوم قد عفت وجسوم أكلت شعل النار أرواحها فانطفت [١].

نستنتج من هذا أنه لا بد من أتباع الرموز والإشارات المتفق عليها بين جماعة المنورين عند نقل الخبر من جهة إلى أخرى، كاختلاف حال النار بين شدة توهجها وضعهفة، وكتعداد مشاعلها في الموضع الواحد، وكمدى ارتفاعها في السماء، ثم تخصص الأخبار الحربية مثلا للحالة الأولى، والأخبار الداخلية في الولاية للحالة الثانية وهكذا. وهذا يذكرنا بما تجرى عليه الأمور الآن في نقل الأخبار بين أفراد جمعيات الكشافة عن طريق الإشارات والرموز في الهواء وبواسطة النار، وهذا يتطلب ذكاء نادراً ويقظة تامة. نستنتج أيضاً من هذا النص التاريخي أن استخدام المناور في الدولة الإسلامية كان قاصراً على فترة معينة وهي فترة الفتن والقلاقل التي أحدثتها جموع المغول في ربوع العالم الإسلامي وبانتهاء هذه الفترة غدت المناور أثرا بعد حين [٢]. وعلى الرغم من أن حركات التتار على حدود الدولة الإسلامية قد سببت إقامة هذه المناور فإن القلقشندي [٣] يرجع هذه المناور إلى ملوك الهند بقوله: «وهذه المناور مأخوذة عن ملوك الهند فقد رأيت في بعض الكتب أن ببلادهم مناور على جبال مرتفعة ترى النار فيها على بعد أكثر من هذه. على أن مرتبها بهذه المملكة أولا أتى بحكمة ملوكية لا تساوي مقداراً، إذا قد ترقى في سرعة بلوغ الأخبار إلى الغاية القصوى. وذلك أن البريد يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره، والحمام يظاتي من الخبر بما هو أسرع في البريد، والمناور تأتي من الخبر بما هو أسرع من الحمام. وناهيك أن يظهر عنوان الخبر في الفرات بمصر في مسافة يوم وليله».

---

(١) التعريف ص ١٩٩– ٢٠١_ القلقشندي جـ ١٤ ص ٤٠.

(٢) راجع **Sauvaget p. 39**

(٣) القلقشندي جـ ١٤ ص ٤٠٠.

على أن الأستاذ أدم [١] متز يقصر استعمال النار في الإشارة كوسيلة من وسائل المراسلة عند المسلمين على البلاج التي كانت تابعة للدولة البيزنطية من قبل، بحجة أن هذه الدولة التي كانت تستعملها، أما في غير ذلك من بلاد الإسلام فلم تستعمل. ولذلك نرى حصونا كثيرة على قنن الجبال بأسبانيا هي من بناء العرب الأندلسيين وأنه كانت لهم أبراج كثيرة متناوحة ومنتظمة بلبة الساحل الأيسر الإفرنسي والإيطالي اختاروا لها تلال الجبال لتوقد بها النيران ويتبادلون منها الإشارات النارية لأجل توحيد حركتهم إيذاناً بوقوع الحرب وطلبا للمدد وجمعا للقوة [٢].

الأمر الذي ألفت نظر القاريء إليه هو أن عادة إيقاد النيران في الأبراج ليست رومية أو تترية كما يتوهم البعض، وإنما هي في الغالب عادة عربية تتفق مع ما كان عليه حال العرب في جاهليتهم الأولى على النحو الذي سبق الإشارة إليه. وأن كل ما حدث في العصر الإسلامي إنما هو إدخال كثير من التحسينات على نظام المشاعل وغدت تستخدم استخداما حسنا. والعرب في أوائل الفتح الإسلامي نشروا هذا النمط من الأبراج النارية من الأسكندرية إلى طنجة على طول الساحل الإفريقي الشمالي، فمانت إذا وقعت واقعة ذات بال أوقدت النيران من طنجة ولا تزال من برج إلى برج حتى يبلغ ذلك الإسكندرية في ليلة واحدة، ومن طرابلس إلى الإسكندرية تصل الرسالة النارية في ثلاث ساعات إلى أربع [٣].

وكثيرا ما لعبت النار دورها في الحروب بين الجيوش المتقاتلة فكان إشعال أحدهما لها علامة على تحرك قواته نحو الأخير عدته للقائه. من ذلك أن يزيد ابن الملهب عند ماسيره سليمان بن عبد املك لمقاتلة الأتراك بطبرستان أحرق يزيد كل

---

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٥٧.

(٢) تاريخ غزوات العرب ذيل ص ٢٣٧.

(٣) زبدة كشف المماليك ص ١٩٣– تاريخ غروات العرب ذيل ص ٢٣٧_ وقد شاهد الأمير شكيب أرسلان «تاريخ غزوات العرب ص ٢٣٧_ ٢٦٦» في رحلته سنة ١٩٣٠ ببلاد الإندلس أبراجاً مخروطية الشكل من صنع العرب كما رأى برج العرب **La tour des sarrazins** في مقاطعة لوزان بسويسرة.

حطب عنده حتى اضطرمت النيران ونظر العدو إلى النار فهالهم وحلموا للقتال آمنين خلفهم فناشبهم يزيد إلى العصر وإذا بالتكبير من ورائهم فهربوا إلى حصنهم واتبعهم المسلمون فأعطوا ما بأيديهم ونزلوا على حكم يزيد [(١)]. فالنار في تلك الحالة كانت كالعيون التي تبث في صفوف الأعداء وتوهمهم أن خصمهم ضعيف في ناحية معينة وهو في الواقع قوي فيها فيقل اهتمامهم بها وتدور عليهم دائرة السوء منها وتحل بهم الهزيمة. هذا هو نظام المشاعل في المراسلة كما تيسر لنا معرفته من مختلف الروايات التي وصلتنا وإليك الحديث عن الطبول.

(ب) الطبول

المعروف أن الملوك والأمراء كانوا يتخذون من قرع الطبول والنفخ في الأبواق دليلاً على مل ينتحلونه من مذاهب البذخ والترف، وتنويها بالملك وأهله، فلا تعقد الأولوية إلا ويتقدمها الطبول والأبواق. وعلل ابن خلدون السر في ذلك بإرهاب العدو في الحرب فإن الأصوات الهائلة تحدث روعة وتأثيراً في النفوس [(٢)]. وقد يكون كلامه صحيحا ببعض الاعتبارات لأن النفس يدركها الفرح والطرب عند سماع النغم والأصوات الجميلة، كما يدركها الفزع والرعب عند سماع الأصوات المزعجة المحطمة للأعصاب وقد فسر القرآن الكريم ذلك المعنى في الآية الكريمة «وإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير [(٣)]».

ولكن ليس من المعوف تماما أن الطبول اتخذت في العصور الإسلامية السابقة كوسيلة من وسائل المراسلة ونقل الأخبار. ففي الجهات النائية عن عواصم الخلافة الإسلامية حيث يتعذر إنشاء نظام البريد العادي، لوحشة في الطريق، أو لاقتصاد في النفقات، أو لكثرة في الدروب والجبال ووعورتها، فيستعاض عن ذلك بنقل الخبر عن

---

(١) ابن خلدون جـ ٣ ص ٧٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ١١٥.

(٣) سورة المدثر ص ٧٧٦.

طريق دق الطبول كما كان الحال قديماً في مملكة الهند، فبين دلي وقبة الإسلام اللتين هما قاعدتا المملكة طبول مرتبة في أمكنة خاصة، فحيثما كان في مدينة وفتح باب الأخرى أو أغلق يدق الطبل فإذا سمعه ما يجاوره دق فيعلم خبر فتح المدينة وفتح باب الأخرى وغلقه (١).

يصف التاريخ الخليفة المأمون في صدر خلافته بالرجل المغلوب على أمره لأسرة بني سهل ذات الخبرة الواسعة في السياسة والإدارة، وذلك لانثرافه إلى الحياة العلمية الهادئة، حياة الفلاسفة المفكرين. الأمر الذي أحدث شغبا كثيرا وفتنا متعددة في الأقطار الغربية على وجه الخصوص، وكان المحرك لها جماعة الثائرين من بني هاشم، ولم يكن هناك من رجل مخلص حقيقة للمأمون سوى هزثمة ابن أعين، فوكل إليه الخليفة أمر القضاء على فتن العلويين. ولما فرغ هرثمة منها وكتب له النجاح أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال بالأقطار الغربية والفضل يحجب أخبارها عنه، ولم يكن ذلك مما يروق في عين الفضل بن سهل فاجتهد في منعه من المثول بين يدي الخليفة. ولكن هرثمة كقائد حربي صمم على ضرورة اللقاء فأمر رجاله بدق الطبوب كي يسمعها المأمون ويصله خبره، فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة فأمر بقدومه ولكن الفضل أسرع إلى المأمون وصور له هرثمة في صورة رجل عاص خارج على الخليفة. فاستاء الخليفة وزجره وقتل هرثمة في النهاية ضحية خبث البطانة (٢).

وهناك حادثة أخرى هامة في تاريخ العباسيين وهي حادثة الأفشين قائد الخليفة المعتصم مع أحد الثائرين على الدولة وهو بابك. تعذر على الأفشين الاتصال بجنده في ميدان القتال عند محاربته لبابك وذلك لكثرة الدروب وتشعب الطرقات بين جبال أذربيجان العظيمة الارتفاع والكثيرة الألتواء، فاستعان الأفشين بالطبول لإعلان قواته بحركات سره ووقوفه. وقبل الكلان على حرمان الأفشين ونظام دق الطبول يحسن أن

---

(١) القلقشندي جـ ٥ ص ٩٨.

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٤٦_ مذكرات غير مطبوعة للأستاذ العبادي.

نذكر كلمة صغيرة عن بابك لنقرب لذهب القاريء عناصر ربط الحوادث التاريخية بعضها ببعض.

ينسب بابك الخرمي إلى مدينة البد بمنطقة طبرستان، وهو صاحب حركة شاذة من الناحية الاعتقادية وفي منتهى الخطورة من الناحية السياسية، لأنها صادرة عن رغبة أساسية في نفس بابك وهي محاولة إحياء القومية الوطنية الإيرانية التي قضى عليها العرب وأضعفوها إلى حد بعيد. وقد شغلت حركته دولة بني العباس زمن المأمون لانصراف حكومته إلى المسائل الدينية والحركات الفكرية، وزمن المعتصو لانشغال رجاله بحرب الروم (١). ولكن المعتصم كان أقدر على المكائد العسكرية والعمليات الحربية مما تصوره بابك، إذ سرعان ما أوقف حملاته نحو بيزنطه وسرعان ما زرع نظام البريد بأنواعه المختلفة من بري وجوي ومشاعل وطبول، وسخره في تنسيق عملياته الاسستراتيجية وتجييش جنوده من عرب وعجم وترك في الحوطة بهذا الثائر المتحصن بالجبال والوهاد. والمعروف أن عمال البريد على اختلاف رتبهم وتنوع أعمالهم في كل تلك المناورات العسكرية هم حلقة الاتصال بين المعتصم في مدينة سامرا وبين رئيس هيئة أركان حربه في ميدان القتال وهو الأفشين الذي تقدم قليلاً إلى حصن البد، وهناك أحكم خططه ودبر أمره وأمر رجاله بضرب الطبل نصف النهار ويخرج بالشمع والنفاطات إلى باب الخندق وبالركوب ليلاً للحراسة خوف البيات. وقد عرف كل إنسان منهم كردوسه، من كان في الميمنة ومن كان في الميسرة، فيخرج الناس فيقفون في مواقفهم ومواضعهم والأفشين يحمل أعلاما سودا كبارا عددها أثنى عشر علما، يحملها على البغال ولم يكن يحملها على الخيل لئلا تزعزع يجعلها اثنى عشر بغلا وبلغت طبوله الكبار واحدا وعشرين طبلا، والأعلام الصغار نحوا من خمسمائة علم فيقف أصحاب كل قوم على مرتبتهم من ربع الليل، حتى إذا طلع الفجر ركب الأفشين من مضربه فيؤذن المؤذن بين يديه ويصلي ثم يصلي الناس بفلس، ثم يأمر

---

(١) مذكرات غير مطبوعة للأستاذ العبادي.

فيضرب الطبول ويسير زحفاً؛ وعلامته في السير والوقوف تحريك الطبول وسكونها لكثرة الناس ومسيرهم في الجبال والأذقة على مصافهم، كلما استقبلوا جبلا صعدوه وإذا هبطوا واديا انصبوا فيه، إلا أن يكون جبلا منيعاً لا يمكنهم صعوده وهبوطه فإنهم كانوا ينضمون إلى العساكر ويرجعون إذا جاءوا إلى الجبل إلى مصافهم ومواضعهم، وكانت علامة السير ضرب الطبول فإذا إراد أن يقف أمسك عن ضرب الطبول [1].

أما مؤخرة جيشه فعلي اتصال دائم بالمعتصم الذي نظم البريد على طول الطريق، فجعب من سامرا إلى عقبة حلوان خيلا مضمرة على رأس كل فرسخ معه مجر مرتب فيركض بالخيل ركضاً حتى يؤديه من واحد إلى واحد يدا بيد، ومن حلوان إلى أذربيجان رتب فيه دواب المرج، يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ. وجعل لهم ديادبة على رءوس الجبال بالليل والنهار، وأمروا أن ينعروا إذا جاءهم الخبر، فإذا سمع الذي يليه النعير تهيأ، فلا يبالغ إليه صاحبه الذي نعر حتى يقف له على الطريق، فيأخذ الخريطة منه فصارت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامرا في أربعة أيام وأقل [2].

ولما أدرك بابك أنه واقع لا محالة في شرك الأفشين هرب إلى الغرب صوب حلفائه من البيزنطيين والأرمنيين وأتبعه الأنشين بعيونه وجواسيسه فألفوه عند ملوك أرمينية وقبض عليه وصار خبر القبض عليه إلى المعتصم على جناح الحمام كما ورد في الفصل السابق. وبذلك تكون أدوات البريد من خيول وحمام وطبول ومشاعل وسكك وخرائط وعمال قد عاونت الدولة العباسية معاونة صادقة في الخلاص من أخطر حركة تعرضت لها الدولة منذ قيامها فشغلتها زهاء العشرين عاما. وقد عرفت

---

(١) الطبري مجموعة III جـ ٢ ص ١٢٠٢. ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٥٩.

(٢) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ص ٢٧٢– ٢٧٣.

الطبول في العصر المملوكي بالطبلخانات والكوسات، وهي طبول مجلدة بعضها بجلود البقر يضرب بها ضربا شديدا مزعجا ويبالغون في الاستكثار منها، ويبيحون لكل أمير أو قائد عسكر يتخذ من ذلك ما يشاء [١].

تلك هي الخدمات التي أسداها نظام التخاطب بالطبول إلى الدولة الإسلامية. ولم يبق من موضوع رسالتنا إلا التراسل بواسطة الماء.

(جـ) البر المائي والبحري

سيكون حديثنا عن البريد المائي موجزاً جداً لافتقارنا إلى مادة خصبة سبقت أن تناولته بالفحص والبحث. ولعل ذلك يرجع إلى أن استخدام الماء في التراسل من الندرة بحيث أن المراجع التي قتلتها بحثا لزمت الصمت بشأنه، وحتى المصادر العربية التي أشارت إليه نسبت استخدامه إلى بعض الأمم القديمة. وطريقته أن تكتب ورقة تعلق بقصبة وتغرس القصبة في باقة حشيش وتلقى في الماء فيعوم الحشيش ولا يزال جارياً بمجرى النهر حتى يراه المرسل إليه ([٢]).

وهناك طريقة أخرة وهي أن توضع الرسالة ضمن صندوق محكم لإقفال ويجعل ثقله متوازياً بحيث لا يطفو على وجه الماء ولا يغرق في قاعه بل يكون متوسطاً بينهما منعاً لظهوره أو وقوفه على الأرض، ثم يلقى في النهر أو الترعة فيندفع بالماء لغاية مركز الجيش الآخر، وهناك يقع في شباك معدة.

وقيل أن الهنود أول من استعمل هذه الطريقة ضمن النارجييل (جوز الهند)، وقد عرفها الإسكندر الأكبر الذي ظن قواد جيشه أن سقوط الجوز من أشجاره بالماء طبيعياً أن يكون من قوارب النقل، ويكن فطنة الإسكندر أبت ألا الوقوف على الحقيقة، فأمر بكسر بعض جوز النارجيل فوجد به رسائل هندية. ومن قول المؤرخ بلينيوس يظهر أن الرومانيين لم يجهلوا هذه الطريقة. وقيل أن القرطاجنيين استعملوا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٧_ Quatemère tome 1. Ier parti P.P 173- 227.

(٢) تاريخ المدن الإسلامي ج ١ ص ١٨٣.

أيضاً التراسل الحربي في الماء، وإنما عوضاً عن وضعها في صندوق كانوا يجعلونها في جوف الحيوانات المقتولة ويلقونها في الماء [1].

واضح من هذين النصين أن الطريقة الثانية أكثر أحكاماً وأسلم للرسالة من الأولى وأنه يشترط عند إلقاء الصندوق الموضوع به الرسالة أن يلقي مع اتجاه تيار الماء وهذا لا يتأتى طبعاً إلا في الأنهار. وعليه إذا كان المسلمون قد استعملوا هذه الطريقة فإن استعمالها كان محلياً ومقصوراً على الوديان كوادي النيل ووادي دجله والفرات وكذا أودية الهند. والبريد المائي على وجه العموم أكثر تعرضاً للخطر من غيره، فقد يتنبه العدو له فيراقب مجاري الأنهار، كما أن الرسالة قد يعترضها صخرة في النهر أو حيوان نهري أو سفينة فيعوق سيرها مع التيار فتضطر أن تركن.

ويغلب علي الظن أن الدولة الإسلامية لم تهمل هذا من التراسل خصوصا البحري، وبالرغم من افتقارنا إلى مادة تاريخية تؤيد هذا الظن، إلا أن رأينا الشخصي لابد وأن نسجله هنا لأنه نابع من عين الحقيقة والواقع، ومؤيد من سبق الحوادث عليه. فالتاريخ ينبئنا بأن العرب أمة بدوية لا عهد لها بالبحر، وأن الخليفة عمر كان يخشى عليها غائلة البحر، فلما تجلت الحاجة إلى أسطول في بحر المشرق أذن عثمان لمعاوية بإنشائه على أن تكون الخدمة فيه اختيارية بحته، وبذلك تكونت نواة الأسطول العربي في المياة الشامية والمصرية، وبفضله فتح معاوية رودس وغزا كربت وقبرص وجزيرة رواد بالقرب من القسطنطينية، وكان أول منغزا صقلية ولم تزل تغزى بعد ذلك حتى فتحها بنو الأغلب [2]. فكأن الغزوات الإسلامية البحرية في صدر الإسلام موجها أكثرها إلى مملكة الروم. وإذا ما اتجهنا إلى غربي البحر الأبيض نلحظ أن العرب بعد استيلائهم على مدينة قرطاجنه لم يفكروا في أول الأمر أن يجاهدوا فيما وراء البحر ولذلك بنوا مدينة القيروان على مسافة بعيدة من الشاطيء، فلما غزا

---

(١) الطائر الغريد ص ١٤ـ تاريخ البريد في العالم ص ٦٠.

(٢) تاريخ غزوات العرب ص ١٥١.

موسى بن نصير الأندلس وهو لا يملك إلا أربع سفن أحس بضرورة بناء الأساطيل، فأنشئت دور صنعه عظيمة في تونس، وأكثر موابي الأندلس كطرطوشه وأشبيلية، وأصبح لهم في الأندلس قائد للبحر اسمه أمير الماء، ويظن أن لفظة أميرال محرفة عنها [(١)].

ومن هذه الموابي تحركت غزوات المسلمين لجزر البحر الأبيض المتوسط كيورقه ومنورقه وسردينيا وكورسيكا، ولم تنقطع المعارك البحرية بين أساطيل الإسلام وأساطيل النصارى، سواء التابع منها لشرلمان فرسنا، أو لابنه بين ملك إيطاليا، أو لإمبراطور بيزنطه، أو لجمهورية جنوة، وكانت الغلبة من غير شك لأساطيل العرب، لأن أية قوة على وجه الأرض وقتذاك لا تستطيع أن تقف في طريقهم، فتمكنوا بقوة الإسلام من تثبيت أقدامهم في جنوب القارة الأوربية. وأخيرا بعد موت الخليفة هارون الرشيد وانقضاء عهد تبادل السفارات السياسية بين الشرق والغرب، تحولت مراسيهم في تونس وسوسة وغيرهما بؤرة القرصان، تنبث منها الغارات البحرية وتجبي الأتاوات من أعداء المسلمين.

وبناء عليه فإن قوة بحرية كهذه على الصورة الخاطفة التي بسطناها للقاريء، لا يمكنها أن تبسط جناحها في ربوع البحار بهذه السرعة المدهشة إلا إذا كانت متكئة على بريد بحري محكم الإدارة والتنظيم حتى يضمن لها سلامة خطوط تموينها الخلفية وخطوط دفاعها وتقهقرها. وآية ذلك ما وراءه ابن الأثير من أن أبراج الحمام أقيمت في جزيرة قوصرة وهي ما بين المهدية وصقلية، وأن أقفاص الحمام وضعت في مراكب الأسطول الإسلامي ليحمل الحمام منها إلى المهدية وغيرها من الثغور المغربية أخبار الأعداء وحركاتهم في طول البحر وعرضه [(٢)].

وأظن أن إنشاء الأبراج النارية على قمم الجبال كما وضحنا سابقا_ سواء منها

---

(١) تاريخ غزوات العرب ص ١٠٩، ١٣٧.

(٢) ابن الأثير طبعة ليدن_ جـ ١٠ ص ١٠٩ و جـ ١١ ص ٨٢.

على سواحل إيطاليا أو فرنسا أو أسبانيا أو بلاد المغرب ومصر وسواحل الشام لم يكن عبثا. ولم يكن المقصود منه فقط نقل الأخبار والأحداث التي تتولد على البر وإلا كان نظام البريد البري والعادي فيه الكفاية... وإنما لا بد وأن يكون هناك غرضا بعيدا قصد من وراء تلك المناور، هذا الغرض كما أفهمه وكما يقره المنطق السليم هو تنظيم إدارة بريدية بحرية تجعل ربان السفن وأميرال البحر على اتصال دائم بالبر وبقواعده. فرفع علم على سارية سفينة ما في جزيرة مالطة مثلا على صورة من الصور يعطي معنى طلب المدد للمنورين في منارة تونس.. وإعطاء إشارة نارية من برج بجنوب فرنسا مثلا قد يعطي البحارة في عرض البحر معنى الأمان إذا ما أرادوا الوصول إلى الشاطيء.

ومثل هذا الاستنتاج يمكن أن يقال أيضا عن نشاط البريد البحري في جنوب آسيا صوب المياه الهندية وجزر المحيط الهادي جهة جاوة وسومطرة والفلبين حيث كانت السفن العربية لا تنقطع في اليوم والليلة.

الخاتمة

ليس عيبا القول بأنه عندما شرعت فى البحث عن مادة البريد فى الدولة الإسلامية كان ذهنى فارغا تماما من كل ماله علاقة بالموضوع, مثلى فى ذلك مثل عابر سبيل أو كالغريب يهبط بلدا مجهولا فيجد نفسه حائرا بين طرق متشعبة هنا وهناك, فتراه يتحسس الطريق السوى ويتلمسه, عله يجد أثرا أو دلالة يهتدى بهديها ويسير على ضوئها.... وكانت طريقتى فى ذلك قراءة كل مايقع تحت يدى من مجلدات ومؤلفات قديمة وحديثة, شرقية وغربية, تاريخية وجغرافية, أدبية وفقهية... وكنت أجد فيها إشارات خفيفة أو لا أجد البتة. على أن هذه الإشارات وتلك العبارات المفككة والمبعثرة قد أحدثت فى ذهنى كما يقول السيكولوجيون ارتباطات جديدة عن البريد... هذه الارتباطات أخذت تزداد يوما بعد يوم, وفى إزديادها إزدياد إيمانى بالغاية السامية التى أرتجيها لبلادى وأعمل من أجلها... وعلى ضوء هذه المصابيح الخافته شققت طريقى فى بطون الكتب غير مشفق على نفسى مما يصيبنى من العنت والإرهاق حتى استطعت بعون الله أن أحقق النتائج العلمية التى قرأتها فى الفصول السبعة السابقة والتى ألخها فيما يأتى:-

الفصل الأول: وقد صدرناه بكلمة فسرنا بها معنى البريد اصطلاحا ولغة مستعرضين آراء المؤرخين عرب ومستشرقين, واستنتجنا منها إرجاع لفظ «بريد» أصلا إلى الفرس مؤيدين ذلك بالبراهين والأدلة وأشرنا إلى طريقة قياس مسافة البريد عند العرب كما وردت فى كتب جغرافيهم. وأإتبعت هذا بعرض تاريخى عن نشأة البريد عند الجماعات والأمم القديمة. وأن اليوم الذى فكر فيه زعيم القبيلة فى وضع الحراس على حدود منطقته لإنذاره بالغارات الأجنبيه عد يوم الميلاد لنظام البريد, وبذا تولدت الجاسوسية فى هذا النظام, وغدت عملية نقل الأخبار هى لب نظام البريد فى العصور القديمة فجأء من وحى وصنع الحكومات لا الأفراد.. غير أن

نصيب الأفراد والجمهور من هذا النظام يكاد يكون معدوما لأن البريد نشأ لحاجة من حاجات السلطة الحكومية وظل كذلك محصورا فى هذا النطاق لدى جميع الدول السابقة على الدولة الإسلامية بل وفى الدول الحديثة أيضا الى ماقبل قرنين أو ثلاثة. وليس معنى هذا أن الرسائل الخاصة كانت غير موجودة, فهى كانت موجودة فعلا ولكن بوسائلها الخاصة التي لم تؤثر عن قريب أو بعيد فى تطور نظام البريد... وقد استدللنا من وثيقة ترجع إلى عهد الأسرة ١٢ ومن رسائل تل العمارنة على معرفة الفراعنة لنظام البريد وتنظيمهم إياه داخل القطر وخارجه حتى جاء البطالمة فأولوه عنايتهم واهتمامهم كما ورد فى وثيقتين تاريخيتين ترجعان إلى هذا العهد... أما بريد أباطرة الرومان فقد عنوا به عناية فائقة خصوصا بعد انقسام العالم الرومانى إلى شرقى وغربى, وكان أوجسطس أكثرهم يقظة لأهمية هذا النظام الذى تعدت وظيفته إلى نقل الأطعمة والجنود والتجسس على العمال فى الولايات... كذلك الفرس لم يكن بريدهم أقل شأنا منه عند الروم, فهم أصحاب الفضل فى ابتكاره وترتيبه فى ديوان خاص به لا يتولاه إلا من يوثق فيه, وظهرت عنايه الفرس بالجاسوسية المنظمة الداخلة فى نطاق البريد.

الفصل الثانى: فتح باب البحث بكلمة عن بريد عرب الجاهلية. وتدرجنا فى البحث إلى تعريف الدوله الإسلامية وتاريخ سقوطها... ويلاحظ القارئ أن تاريخ نظام البريد يتمشى مع تاريخ الدولة نفسها عندما أتخذ الرسول عبد الله بن أبى بكر ليأتيه بأخبار مكة– وهو فى الغار– يوما بيوم: وهكذا كان عبد الله أول ساع للبريد فى تاريخ الدولة, كما كان عثمان بن عفان فى يوم الحديبية أول مفوض دبلوماسى أرسلته مصلحة البريد الإسلامية, وأعقبه إرسال البعوث والسفارات إلى أكابر الملوك والأمراء المعاصرين. وأتخذ الرسول الخاتم لتوقيع رسائل البريد, وتوسيع الخلفاء فى ترتيب ماورثوه من نظم حكومية عن صاحبهم صلةات الله عليه وسلامه, واعتمد عمر كثيرا على نظام البريد فى تلقف أخبار قواده فى الأقاليم, على أن إدارة البريد قد أهملت واجبها فى عهد الخليفة الثالث ودفعت ثمن الإهمال باهظا وهو هدر دم عثمان الذى تسبب عن غلطة ارتكبها صاحب بريده مروان... فإذا ماجاء عصر الأمويين نرى

نظام البريد يتسلل من سذاجة البداوة إلى بحبوحة الحضارة, فأقام له معاوية الخيول على الطرق لنقل البريد معتمدًا فى ذلك بجمع الوثائق عن البريدين الفارسى والرومى, واهتم من بعده عبد الملك بن مروان بالبريد وأباح لساعى البريد أن يدخل عليه أنى شاء ليلا أو نهارا, وأضاف عمر بن العزيز إصلاحات كثيرة على نظام البريد. وعلى الجملة فقد استفاد الأمويون من نظام البريد فى القضاء على ثورات الخوارج وغيرهم ممن خرج على طاعتهم... وفى العصر العباسى يلبس نظام البريد ثوبا جديدا يشير إلى الذوق الفارسى والعقلية الفارسية والتقاليد والنظم السكسروية القديمة,فلا عجب أن يجعله الخليفة المنصور أحد القوائم الأربعة التى شيد عليها دولته, وهى القضاء والشرطة والخراج والبريد وتطور البريد تطورا محمودا فى عهد خلفائه, ولم يستثن من رقابته أصحاب الجاه والسلطانكالبراكمة مثلا الذين كانت أخبارهم تصل توا إلى مسامع الرشيد... ولعب البريد دوراً في الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وكانت الغلبة لبريد الأخير... وفي عصر الخلفاء المتأخريم اضطرب حال البريد، فتارة يعلو صوته وأخرى ينخفض حسب شخصية الخليفة ومدى الغور الذي أحدثه السوس في عظم الدولة... وزاد الطين بله هبوب عاصفة الصليبيين وتساقط أوراق البريد التي لم تكد الحياة تدب فيها من جديد حتى التهمتها جموع التتر، ولم يكن ذلك عن جهلهم بفائدة البريد وإنما حرصا في ألا تسبقهم أخبارهم إلى الدول التي لم تسمع بمجيئهم... ونخرج من هذا الفصل مقتنعين بأن التراث الروماني كان أكثر وضوحا في عهد الأمويين عن زميله الفارسي، بينما كان الحال على العكس في عهد العباسيين.

اللفصل الثالث: وقد أفردناه للكلام عن الإدارة العامة لنظام البريد فذكرنا اختصاصات صاحب البريد والشروط التي يجب توافرها فيه والصفات التي يجب أن يتحلى بها. وهو يرأس قوة من البوليس السري يقومون بعمل الجاسوسية، وله ثلاثة عينات رئيسية من موظفي البريد هم المرتبون والقائمون والفرانقيون، كما له عمال في الولايات ينوبون عنه ولكل من هؤلاء جميعا اختصاصات. ولعمال البريد علامة يتميزون بها عن سائر موظفي الحكومة... وفي هذا الفصل ميزنا بين نوعين من البريد،

بريد الرجالة وقصد به جماعة السعاة، ويرجع تاريخ استخدامهم في الدولة الإسلامية إلى أيام بني بويه ومن أشهرهم عدوا الصينيون ويليهم المصريون، ويشترط في من يلحقبوظيفة الساعي أن تثبت لياقته بامتحان... أما بريد الخيالة فهو شائع من أقدم العصور واستخدام العرب الجمل في بريدهم ثم استبدلوه بالخيل والبغال. ومن أشهر خيالة البريد التتر ثم الفرس... وختمت هذا الفصل ببحث اقتصادي عن ميزانية البريد وفيه ناقشنا ودحضنا أراء الهيرشبرنجر بأدلة تاريخية عن بعض المؤرخين مستشرقيين وشرقيين.

الفصل الرابع: وهو خاص بطريق البريد وسكسكه، وبدأناه بكلمة عن الطرق الرومانية القديمة، والمقارنة بين الإمبراطوريتين الرومانية القديمة والإسلامية، وحاجة كليهما إلى الطرق العامة ثم أشرنا إلى أقدم وأشهر الطرق الرومانية ومميزاتها... أما طرق العرب فصدرناها بأراء المستشرقين عنها، ثم سرعان ما تجد نفسك سائراً في هذه الطرق مبتدأ بطريق المشرق مارا بأشهر سككه حتى تقف على ضفاف سيحون وجيحون، وإذا ما عدت إلى بغداد تأخذ الطريق إلى نواحي الأهواز وفارس وأصبهان وكرمان وسجستان، وكذلك تستطيع أن تأخذ طريقا ثالثا إلى نواحي الشمال صوب أرمينيه والقوقاز... وطريق رابع ينتهي بك عند أم القرى وقبر الرسول اللتان تتصلان بطرق متشعبة إلى عواصم الأمصار جميعا... أما طريق المغرب فيبدأ من بغداد إلى الرقة فالثغور الشامية فالرملة إلى الفسطاط، وأخيرا تأخذ طريقك إلى بلاد المغرب مارا ببرقة ومصليا بمسجد سيدي عقبة بالقيروان ومنها إلى تونس، وإن رغبت في قرطبة والحمراء عبرت البحر إليهما. وفي تعداد هذه الطرق ذكرنا المسافة بين كل بلد وأخرى أحيانا بالفرسخ، وأحيانا بالميل، وأحيانا أخرى بالمرحلة، وذلك حسب ما ورد عند كل من الشيخين ابن خرداذبه وقدامه.. أما السكك وقد بلغ عددها ٩٣٠ سكة فتستطيع أن تقرأها وتعرف تعدادها لكل طريق على انفراد، حيث وزع العمال على هذه السكك وناقشنا رأي شبرنجر الخاص بهذا... وأخيراً أغلقنا باب البحث في الفصل الرايه بكلمة عن الرباطات زعلاقتها بنظام البريد.

الفصل الخامس: وخصصناه لبريدنا القومي أعني بريد مصر الإسلامية، وتكلمنا عنه في عهدين العهد الأول من الفتح حتى عصر الظاهر بيبرس (٢٠– ٦٥٦ هـ) وهذا العهد قسمناه إلى مراحل ثلاث. الأولى من الفتح سنة ٢٥٤ هـ. والثانية أيام الطولونيين والإخشيديين والأيوبيين. والثالثة أيام الفاطميين (٣٥٨_ ٥٦٧ هـ) والعهد الثاني خصصناه للبريد الظاهري لأن مصر في عهده بلغت أوج عظمتها من حيث القوتين المادية والمعنوية... وأعقب هذا ذكر طرق البريد في مصر الإسلامية وتزويد محطاتها بالدواب والعمال وإنشاء الخانات لراحة المسافرين.. كذلك تكلمنا عن إدارة البريد المملوكية وموظفيها وعمالها وعلاماتهم وشروط توظفهم وقانون انتقال المسافرين من قطر إلى آخر... وينتهي هذا الفصل بإشارة قصيرة إلى حمل الثلج من جبل لبنان زمن الصيف إلى قصور سلاطين القاهرة بواسطة دواب البريد وعماله.

الفصل السادس: وجاء فيه ذكر البريد الجوي، مبتدئين بتاريخ استخدام الحمام في البريد قبل الإيلام، وأن عناية خلفاء المسلمين بالحمام الزاجل لم تظهر بوضوح إلا في عهد العباسيين والفاطميين، واعتمد عليه مؤسس فرقة القرامطة في إحداث الفتن في أنحاء دولة بني العباس. وكما كان للبريد العادي محطات كذلك كان الحال بالنسبة للحمام وعرفناها بالمطارات الجوية وأوردنا خطوط هذه المطارات في مصر المملوكية، وشرحنا طريقة استخدام الحمام في نقل الرسالة من مكان لآخر وكيفية التراسل الحربي بواسطته في العصور القديمة... والغريب أن الفاطميين الذين لم يرد عنهم ما يثبت اهتمامهم بالبريد العادي يكونون أسبق الخلفاء للعناية بالبريد الجوي. وأخيرا يرى القاريء علامات الحمام وأنواعه وأثمانه والمنافسة على اقتنائه وأثر الحمام في الحروب الحديثة وإقامة أبراجه إلى جوار المطارات الحربية.

الفصل السابع والأخير: ويبحث في نظام التخاطب بالمشاعل والطبول والماء وفيه يقرأ الباحث نبذا طريفة عن استخدام النار في التخاطب قبل الإسلام عند الفراعنة وبني إسرائيل وعرب الجاهلية وأنواع النار عند الأخيرين... وفي الدولة الإسلامية نرى للنار نظاماً خاصاً ومناور يشرف عيلها جماعة المنورين وطريقة التراسل

بالنيران والأدوار التي لعبتها النيران في الحروب... وفي القسم الخاص بالطبول يشعر القاريء بأنه في مهرجانات رسمية بين دق الطبول وعزف الموسيقى التي تشنف الآذان والتي تختلف نغماتها في بلاد التركستان عنها في الهند أو تونس ألخ... وكانت الطبول وسيلة من وسائل نصر القواد في الحروب كما ذكرنا في حادثة بابك والأفشين... أما البريد المائي فكان معروفا من أقدم العصور إلا أنه كان نادراً في العصر الإسلامي وقاصرا على جهات دون الأخرى، على عكس البريد البحري في ضرب الرقم القياسي بين جميع أنواع البريد وبفضله أحرزت أٍطيل الإيلام الغلبة في معارك البحر الأبيض المتوسط وغيره من بحار العالم المعروفة وقتذاك.

بقي أن نتساءل ما هي الفوائد التي جنتها الدولة والأفراد من نظام البريد؟ وما هي الأغراض التي حققها هذا النظام بوجه عام؟... في الواقع يستطيع القاريء بفطنته وذكائه أن يستخلص هذه الفوائد ويلخصها فيما يأتي:–

(١) أستطاع ديوان البريد أن يحقق رغبة الخلفاء في استتباب الأمن وضبط الأداة الحكومية في ربوع الإمبراطورية والإشراف الدقيق على جميع العمال سواء منهم من بأقاصي المشرق أو المغرب... ولولا قيام نظام البريد ما استطاع الخليفة بشخصه الضعيف واتساع رقعة الأمبراطورية وبطء المواصلات وقتذاك أن يهيمن بقوته وهيبته على العالم الإسلامي أجمع، فيخشاه كل فرد من رعاياه كما خشيه معاصروه من أصحاب التيجان والعروض فيتبادلون معه الود والرسائل، وما تبادل السفارات والوفود بين هارون الرشيد وشرلمان بخاف على أحد.

(٢) وعلىضوء وطرق البريد المنبثة في أنحاء المملكة، وفي ظل محطاته وعماله تيسر الحج والزيارة لكل مسلم قادر وهو آمن على حياته وماله [١] وغدت مكة تعج بالعناصر والأجناس المختلفة التي تصاهرت بعضها مع البعض الآخر واختلطت دما وعقلا وفكرا، ونتج عن هذا أن دخل البيت العربي دم فارسي أو روماني أو سوري أو

---

(١) Lestrange. The lands of the eastern caliphate P. 9.

مصري أو بربري الخ. ولم يعد البيت العربي بيتاً بل أشبه بعصبة أمم نتيجة التوليد [(١)]... على أن تيسير الحج لم يكن بالنسبة للمسلمين فقط بل وأيضاً للمسيحيين فالأمير شكيب أرسلان [(٢)] يقرأن الحجاج من الغرب ذهبوا في سنة **٧٣٣** م إلى بيت المقدس والقاهرة وكانوا يجوبون آمنين في الشام وفلسطين وزاروا قصر الخليفة نفسه في دمشق ولم يعترضهم أحد ولا خافوا ولا حزنوا. ويقول في موضع آخر [(٣)] أن شرلمان أمر رسوله اسحاق أن يتوسط بدى الرشيد في تسهيل زيارة المسيحيين لبيت المقدس حتى يزداد عدد التجار والزوار القاصدين إلى البقاع المقدسة. ويؤيد هذا مؤرخ مسيحي وغربي هو الأستاذ بارتولد [(٤)]. بقوله «يقر حجاج نصاري أوربا الغربية الذاهبين إلى بيت المقدس بأن حياتهم وأموالهم في البلاد الإسلامية كانت في مأمن أكثر منها في بلادهم». هذا أثر البريد من الناحيتين الدينة والاجتماعية.

(٣) أما من الناحية الأدبية والعلمية فإني أرى أن نظام البريد قد أعطى العلماء فرصة الاتحال من قطر إلى آخر طلبا في العلم خصوصا في العصور الإسلامية الأولى عندما تفرق الصحابة عند الفتح في الأمصار فكان منهم من سكن فارس ومن سكن العراق ومن سكن الشام ومن سكن المغرب... وكل هؤلاء يحملون حديثاً عن رسول الله، أخذ عنهم التابعون ومن بعدهم. وكان في كل مصر طائفة من الحديث لا تعرف في الأمصار الأخرى, فجد العلماء والمحدثون أمثال المقدسي والطبري والشافعي والأوزاعي في الرحلة يأخذون الحديث عن أهلها ويجمعون ما تفرق منها [(٥)]. وغدت مهمة نظام البريد بطرقه وعماله ودوابه وسككه أن يذلل كل عقبة تعترضهم ويسهل كل مشقة تقف في طريقهم... وهكذا كانت المملكة الإسلامية في سهولة انتقال

(١) فجر الإسلام جـ ٢ ص ١٠٨.

(٢) تاريخ الغزوات ص ١١٦.

(٣) تاريخ الغزوات ص ١٣٢.

(٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٥١.

(٥) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٧٠.

العلماء من مكان فيها إلى مكان، كأنها رقعة شطرنج وهم بيادقها فترى العالم في المشرق فإذا هو في الأندلس، وفيما هو في الأندلس إذا هو في العراق، وفيما هو في العراق إذا هو بمصر والشام، لا يعوقهم جبل ولا نهر ولا يفت في عضدهم وعزمهم وحشة الطريق أو صعوبته وأخطاره، سواء عليهم الصحراء وحرها والبحار وأمواجها... على أن قيام علاقات وصلات وثيقة بين الولايات الإسلامية المختلفة في ظل نظام البريد وتحت سلطان خلافة إسلامية واحدة ساعد على نقل الحضارة الإسلامية من يد إلى يد، وعلى إحداث اللقاح بين العقل العربي والعقل الأجنبي من فارسي ومغربي إلخ. فتاريخ الطبري مثلا وقد سبق الكلام عنه ألف في بغداد في القرن الرابع الهجري والذي يعتبر أوسع مرجع في العصور الإسلامية الأولى انتشر في القرن نفسه في العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه... بدليل أنه ألف في قرطبة للحكم الثاني (٣٥٠_ ٣٦٥ هـ) ملك الأندلس كتاب تاريخي مقتبس من هذا الكتاب_ مع زيادات خاصة بتاريخ الأندلس_ كما كتب في بخاري ملخص للكبري باللغة الفارسية للأمير منصور السامايي [1].

(٤) ومن الناحيتين الاقتصادية والتجارية نرى أن نظام البريد عمل على تنشيط التجارة بين الممالك الإسلامية، ووجد التجار في طريق البريد ما يؤمنهم على حياتهم وأموالهم وامتلأت الأسواق التجارية بالمنتجات المتنوعة، فترى في أسواق مصر منتجات الهند والسند وفي أسواق سمر قند منتجات مصر والشام. ووجد العرب في الطريق فائدة كبيرة إذ فتحت لهم بابا للرزق كبيرا، فمنهم من كان يسكن المدن الواقعة على الطريق ويتاجر لنفسه، ومنهم من كان يستخدم في التجارة كأن يكون سائقاً أو حارساً أو دليلاً.. كما وجدت الدولة في النشاط التجاري وسيلة إلى جزائنها بالأموال التي تجبيها من التجار نظير حمايتها للطرق وتسهيل سبل الانتقال من مصر إلى آخر.

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٤٩.



ملحق للرسالة

خاص بمقارنة وحدة المقياس الطولي عند العرب به في العصر الحاضر

سبق أن أشرنا في الفصل الأول إلى طريقة قياس المسافات عند العرب، ولكن عن لي أن أذكر أن موضوع بحثي هذا قد كشف لي عن ظاهرة قوية تعتبر دليلاً واضحاً وبرهاناً ساطعاً على ما وصل إليه العرب من دقة التصور وعمق التفكير في مختلف شئون الدولة. فكما نرى في عصرنا الحالي اتفاق الدولة على اتخا الميل الإنجليزي (= ١٧٦٠ ياردة) وهو مضاعفات للياردة فالقدم فالبوصة وحدة للمقياس الطولي، أو الكيلو متر الفرنسي (= ١٠٠٠ مترا) وهو مضاعفات للمتر فالسنتيمتر فالمليمتر وحدة أخرى مصطلح عليها كوحدة للأطوال... بينما هذا كله قد أتفق عليه بين الدولة الحديثة نجد أن العرب قد سبقت هذه الدول الغربية في استنباط وحدة عربية لقياس المسافات بين البلدان المختلفة للاستعانة بها على إدارة شئونهم، سموها بريدا وقد أجمعت كل الروايات التاريخية على هذه التسمية.

أما تقدير البريد فقد اختلف فيه القول، فابن فضل الله العمري [١] يقول أن البريد المحرر هو أربعة فراسخ، والفرسخ هو ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي، والذراع أربعة وعشرون إصبعا، والإصبع أربع شعيرات، ظهر واحده إلى بطن أهرى والشعيرة أربع شعيرات من ذنب بغل، فهذا هو البريد المعمول عليه كل عمل.

ويذكر القلقشندي [٢] أن البريد أربعة فراسخ، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي، وهو أربعة وعشرون إصبعا، كل إصبع ست شعرات معترضات هو أحدها لبطن الأخرى، والشعيرة سبع شعرات معترضات من ذنب بغل

---

(١) المصطلح الشريف ص ١٨٤.

(٢) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٦٦.

أو برذون.

ومن مذكرة غير مطبوعة للمهندس الدرسي [(١)] يتبين لنا أن الفرسخ ثلاثة أميال هاشمية، والميل الهاشمي قدر منتهى مد البصر عن الأرض، وهو أن ينظر إلى شخص من أرض مسطحة فلا يدري أهو رجل أو امرأة أو هو ذاهب أو آت. ولم يرد في كتب اللغة ما هي المسافة المعبرة عن المسل، أما في كتب الفقه [(٢)] فقد ذكر أن مسافة القصر في الصلاة هي أربعة يرد أو ستة عشر فرسخا، وهي مسيرة اثنين وعشرين ساعة بالإبل، وقدرت هذه المسافة بما يساوي ٨٨ كيلومترا. وبذلك يكون الليل الهاشمي ١٨٣٣ مترا وهذا يساوي تقريبا ما يعبر عنه بالميل البحري، وهو القوس من خط الاستواء المقابل لدقيقة واحدة (ومقداره ١٨٥٤) وعلى هذا الاعتبار يكون الفرسخ ٥٥٠٠ مترا أو ٣.٤٢ ميلا [(٣)].

ومن أعجب ما صادفني في هذا البحث أن أرى العرب وقد اعتادوا أن يعبروا عن كل شيء في حياتهم بالشعر ألا يفوتهم أن يتخذوا من وحدة القياس عندهم مادة خصبة لصوغ شعرهم ومناجاة بعضهم. فمن مختارات الفقيد مُحَمَّد سرسي مأمون لتعريف مقدار البريد.

إن البريـــد مـــن الفراســـخ أربـــع	ولفرســـخ فـــثلاث أميـــال ضـــعوا
والميــل ألــف أي مــن الباعــات قــل	والبـــــاع أربـــــع أذرع فتتبعـــــوا
ثم الـــــذراع مـــــن الأصـــــابع أربـــــع	مـــن بعـــدها العشـــرون ثم الإصـــبع
ســـت شـــعيرات فظهـــر شـــعيرة	منهـــا إلى بطـــن الأخـــرى توضـــع
ثم الشـــعيرة ســـت شـــعيرات فقـــط	مــن ذيــل بغــل لــيس عــن ذا مرجــع

فكما نرى أن أحدهم ذكر الباع ليكون من أجزاء الميل، نجد الآخرين ذكروا

(١) مدير قلم الحساب بمصلحة المساحة المصرية.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر جـ ١ ص ٧٢.

(٣) مذكرة غير مطبوعة للأستاذ الدرسي.

الذراع ليكون من أجزائه مباشرة، على أنهم جميعا قد أجمعوا على الحد الأدنى لأصغر جزء من هذا البريد يمكن تصوره ويمكن تقديره، وهو اختيار بديع حقا يدل على أتساع التفكير وطول الروية أو يقع على قطر شعرة البغل أو البرذون، لأن اختيار قطر العشرة يعتبر أساس ثابت يمكن الاعتماد عليه في مختلف الأمكنة والأيام، فلا يختلف بالأبيض ولا بالأسود من الخيل ولا بفرس الشمال أو الجنوب. ولكن أولهم قال أن الشعيرة أربعة شعيرات والثاني ثدرها بسبع شعرات والأخير ذكرها بست شعران وهذه ناحية تحتاج إلى توضيح. وأذكر أن تضارب هذه الروايات يرجع أصلا إلى اختلاف حجم ونوع الشعيرة. ولا يفوتني أن أشير إلى إعجابي بالأستاذ الدرسي لاجتهاده في تقريب مقدار الميل الهاشمي إلى العقل والذهن.

وقد دفعني حب المقارنة بين القديم والحديث أن أقوم بعملية حسابية على «أساس الرأي الأخير» لأعرف النسبة بين الميل العربي والكيلو متر الفرنسي أو الميل الإنجليزي المستعملين في زمننا هذا. وخلاصة هذه التجربة أني تمكنت من قياس قطر شعرة الخيل بواسطة آلة القياس الدقيقة المعروفة بالميكرومتر «**Micrometre**»[١]

فتبين لي أن:–

قطرة الشعر الواحدة		= ٠.٠٠٧	من البورصة	
والشعيرة	= ست شعيرات	= ٠.٠٤٢	–	–
والأصبع	= ست شعيرات	= ٠.٢٥٢	–	–
والذراع	= ٢٤ أصبعا	= ٦.٠٤٨	بوصة	
والباع	= أربع أذرع	= ٢٤.١٩٢	–	
والميل	= ألف باع	= ٢٤١٩٠	–	
		= ٦٧٢	ياردة	
		= ٦١٥	مترا	
والفرسخ	= ثلاث أميال	= ٢٠١٦	ياردة	

(١) قام بهذا التحقيق العلمي الأستاذ محمود حسان سعداوي المدرس بكلية الهندسة جامعة القاهرة.

		= ١٨٤٠	مترا
والبريد	= أربعة فراسخ	= ٨٠٦٤	ياردة
		= ٧٣٧٥	مترا

ومن هذه النتيجة يتضح لنا الفرق الواضح بين مقدار الميل العربي بالمتر كم ورد في مذكرة الأستاذ الدرسي (= ١٨٣٣ مترا) وكما ورد في مقدمة الهير شبرنجر (=٢٠٠٠ مترا) بينما في تقديرنا قد بلغ ٦١٥ مترا. ولسنا نعرف أينا أصح ولنترك الحكم للقاريء، ولما يجد من أبحاث خاصة بهذا الموضوع في المستقبل.

وحسبي أن أذكر في نهاية بحثي هذا حاجة الأمة العربية الموحدة في اللغة والدين والتي تسعى لوحدة السياسة والأقتصاد أن تعمل لوحدة البحث العلمي والعلم وأن تعيد للميل العربي ماضيه، أو أن تتفق على أساس لوحدة جديدة للأطوال وتكون دولية معترف بها، بدلا من استعمال الميل الإنجليزي أو الكيلو متر الفرنسي يعرفها البدو الصحراء والحضر في المدرسة والمدينة ونكون بذلك قد أحيينا تراث الماضي واتفقنا في الحاضر.

هذا خلاصة في قمت به من بحث وتنقيب واستقصاؤ عن مادة «نظام البريد في الدولة الإسلامية» وكان رائدي أبدا الصدق والإخلاص للحق، فإن أصبت فحمدا لله على توفيقه، وإن اخطأت فالحق أردت ولكل أمريء مانوى.

مصادر الرسالة

نورد في الثبت الآتي مجموعة المصادر العربية والإفرنجية التي اعتمدنا عليها وقد رتبت أسماء المؤلفين في جميعها حسب أحرف الهجاء:-

(أولا): مصادر قديمة:

(١) ابن الأثير : (+ ٦٣٠هـ و ١٢٣٨م): علي بن أحمد بن أبي الكرم الكامل في التاريخ: ١٢ جزءاً طبعة مصر ١٢٧٤.

(٢) ابن الأثير : (٦٠٦هـ و ١٢١٠م) مجد الدين أبي السعادات المبارك بن مُحَمَّد الجزري النهاية في غريب الحديث والأثر. المطبعة العثمانية بمصر.

(٣) ابن بطوطه : (+ ٧٧٩هـ و١٣٧٧م): أبو عبدالله مُحَمَّد بن عبدالله تحفة النظار في غرائب الأمصار. جزأين. من المطبعة الأميرية.

(٤) الجاحظ: : (٢٢٥هـ و ٨٣٩م) أبو عثمان بن بحر.
كتاب الحيوان ٧ جزء.

(٥) ابن حوقل : (٣٦٧ هـ و٩٧٧م): أبو القاسم مُحَمَّد بن حوقل المسالك والمماليك. طبعة ليدن.

(٦)ابن خرداذبه : (٣٠٠هـ و ٩١٢_ ٩١٣م): أبوالقاسم عبيدالله بن عبدالله المسالك والمماليك. طبعة ليدن.

(٧) ابن خلدون : (+ ٨٠٨هـ و ١٤٠٥م): أبوزيد ولي الدين عبدالرحمن بن مُحَمَّد (أ) مقدمة بن خلدون. طبعة بولاق.

(٨) : (ب) العبر وديوان المبتدأ أو الخبر: ٧ جزأ. القاهرة ١٢٨٤هـ.

(٩) السامري : (   ): أبو الفتح بن أبي الحسن.
تاريخ اليهود. طبعة جوتا بألمانيا ١٨٦٥م.

(١٠) السيوطي : (+ ٩١١هـ و١٥٠٥م): عبد الرحمن بن أبي بكر جمال

الدين حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. جزءان. مطبعة الموسوعات بمصر.

(١١) ابن شاهين الظاهري : (٨٧٢هـ و١٤٦٧م): فرس الدين خليل. زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والممالك. طبعة باريس ١٨٩٣م.

(١٢) الاصطخري : (٣٠٩هـ و٩٢١م) أبو إسحاق إبراهيم بن مُحَمَّد الفارسي مسالك المماليك. طبعة ليدن.

(١٣) الطبري : (+ ٣١٠ و٩٢٢م): أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير. (أ) تاريخ الأمم والملوك طبعة دي غويه ٧ جزء (ليدن ١٨٨١– ١٨٨٣م).

(١٤) : (ب) تفسير الطبري.

(١٥) عريب بن سعد : (+ ٣٦٦هـ و ٩٧٦م): القرطبي. صلة تاريخ الطبري. القاهرة ١٢٤٨هـ.

(١٦) العمري : (٧٤٩هـ و ١٣٤٨م) شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله التعريف بالمصطلح الشريف. طبعة مصر.

(١٧) أبو الفدا : (+ ٧٣٢ هـ و ١٣٣١م): إسماعيل بن علي عماد الدين صاحب حماه المختصر في أخبار البشر. طبعة ليدن.

(١٨) القرآن الكريم

(١٩) القلقشندي : (+ ٨٢١هـ و ١٤١٨م): أبو العباس أحمد صبيح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٤ دزءاً القاهرة ١٩١٣– ١٩١٧م.

(٢٠) الماردس : (+ ٤٥٠هـ و ١٠٥٨م): أبو الحسن على بن مُحَمَّد بن حبيب البصري.الأحكام السلطانية. القاهرة ١٢٩٨هـ.

(٢١) المسعودي : (+) ٣٤٦هـ و ٩٥٦م): أبو الحسن علي بن الحسين بن علي مروج الذهب ومعادن الجوهر. طبعة دار الرجاء ببغداد.

(٢٢) مسكويه : (+ ٤٢١هـ و١٠٣٠م): أبو علي أحمد بن مُحَمَّد. كتاب

تجارب الأمم. طبعة ليدن.

(٢٣) المقدسي : (+ ٣٨٧هـ و٩٩٧م): شمس الدين أبو عبدالله محمَّد بن أحمد أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. طبعة ليدن ١٩٠٦.

(٢٤) المقريزي : (+ ٨٤٥هـ و ١٤٤١م): تقى الدين أحمد بن علي. (أ) السلوك في معرفة دول الملوك. طبعة دار الكتب.

(٢٥) : (ب) المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. مطبعة النيل بمصر ١٣٢٥هـ.

(٢٦) ابن منظور : (٧١١هـ و١٣١١م) جمال الدين أبو الفضل محمَّد بم مكرم الخزرجي الإفريقي_ لسان العرب.

(٢٧) ياقوت : (٦٢٦هـ و١٢٢٩م): شهاب الدين أبوعبدالله الحموي الرومي. معجم البلدان: ١٢ جزءاً. القاهرة ١٣٢٣هـ.

(ثانياً) مصادر حديثة:

(١) و(٢) أحمد أمين: الأستاذ : (أ) فجر الإسلام جـ١.
(ب) ضحى الإسلام جزءان.

(٣) بارتولد. الأستاذ : تاريخ الحضارة الإسلامية.

(٤) جمال الدين سرور: الدكتور : الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عهده.

(٥) جمال العربي : تاريخ البريد في العالم.

(٦) جورجي زيدان. المرحوم الأستاذ : تاريخ التمدن الإسلامي ٦ جزء.

(٧) حسن إبراهيم حسن. الدكتور : (أ) النظم الإسلامية.
(ب) تاريخ الإسلامي السياسي جـ ٣.

(٨) الخضري. المرحوم الأستاذ محمَّد : محاضرات تاريخ الدولة العباسية.

(٩) دائرة معارف البستاني جـ ٥.

(١٠) دائرة المعرف الإسلامية جـ ٣

(١١)دائرة معارف القرن العشرين

ج ٢
(١٢) سليم حسن. الأستاذ : مصر القديمة جزءان.
(١٣) شكيب أرسلان. المرحوم الأمير : تاريخ غزوات العرب.
(١٤) كرد علي. الأستاذ مُحَمَّد : (أ) خطط الشام ج ١.
(١٥) (ب) الإدارة الإسلامية في عز العرب.
(١٦) (جـ) الإسلام والحضارة العربية.
(١٧) عبد الحميد العبادي. الأستاذ : مذكرات غير مطبوعة.
(١٨) مصلحة البريد المصرية : تاريخ البريد في مصر.
(١٩) الكتاني. الأستاذ : التراتيب الإدارية جزأين.
(٢٠) نعمان أنطون. المرحوم : الطائر الغريد في وصف البريد.

(ثالثاً): مجلات:

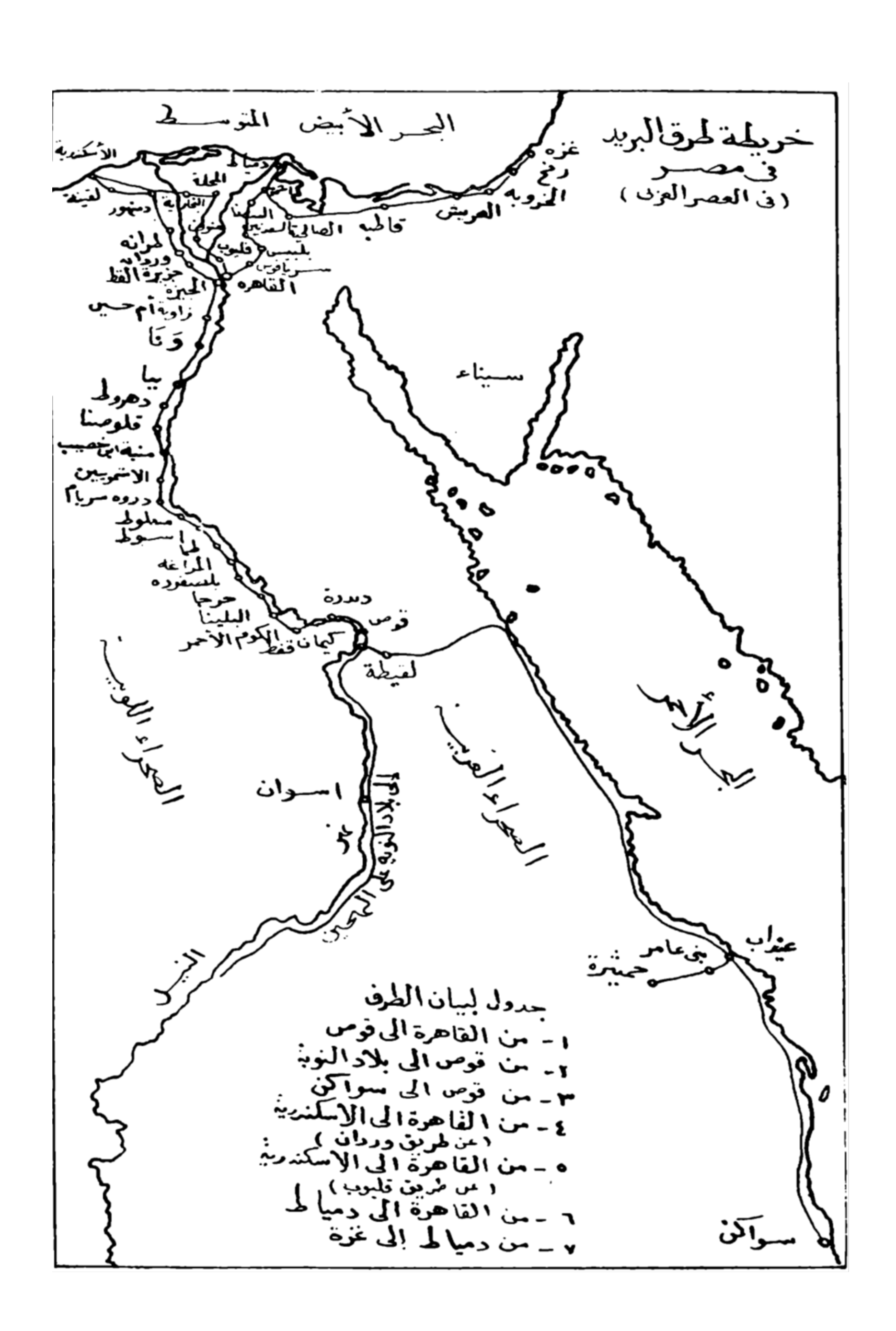
(١) الراديو المصري : العدد ٤٦٤.
(٢) الرسالة : العدد ٤٢ من السنة الثانية.
العدد ١٠٧ لسنة ١٩٣٥.
(٣) المستمع العربي : العدد السابع من السنة الرابعة.
(٤) المقتطف : عدد خاص سبتمبر سنة ١٩٣٧.
(٥) الهلال : المجلد السابع من السنة العاشرة.
(٦) الوقائع المصرية : العدد ١٥٢ الصادر في ١٦/٨/١٩٤٢.

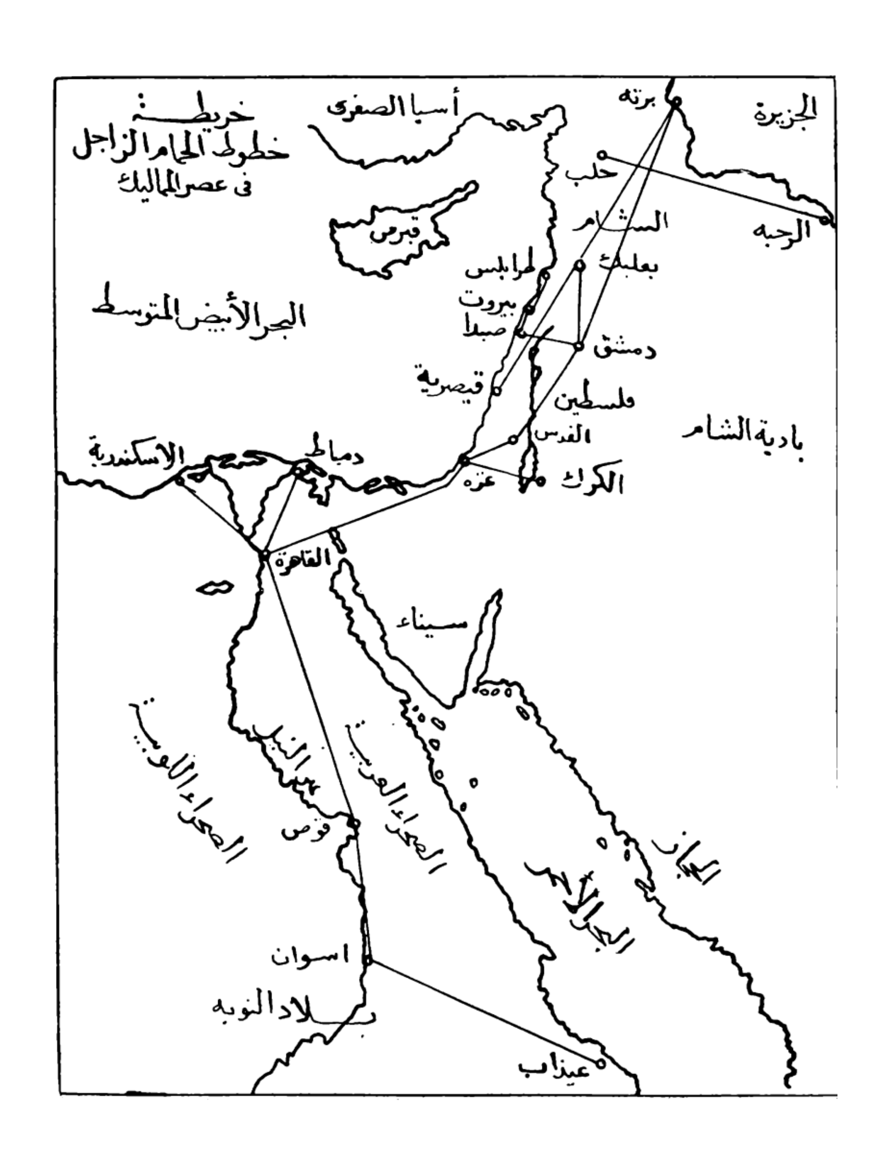
(رابعاً): المصادر الإفرنجية:

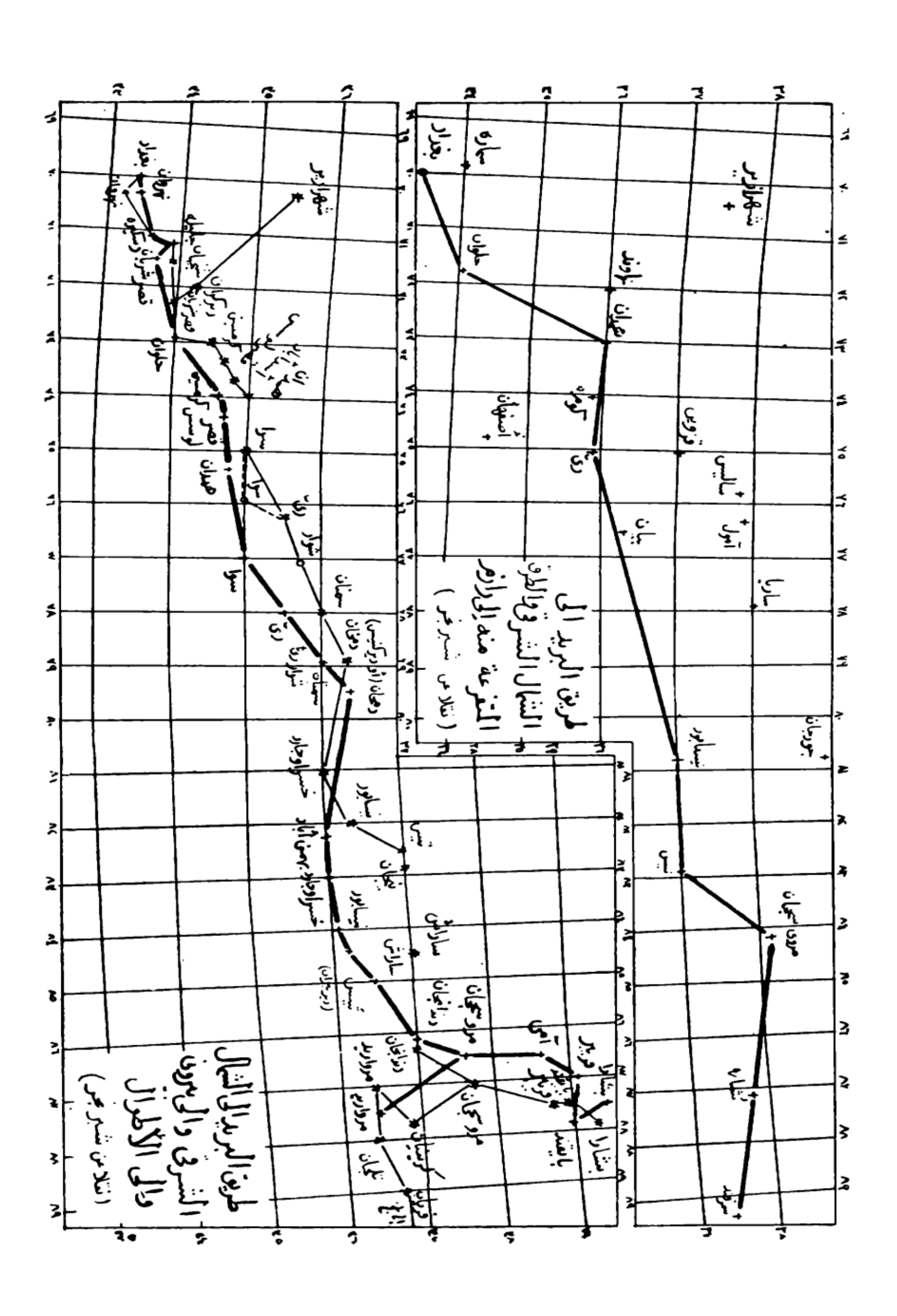
1) Amir Ali. Sayed.
A Short History of the Saracens. London 1931.
2) Arnold: W.T.
The Roman System of Provincial Administration. Oxford 1906.
3) Charles Diehl.
The Government and Administration of the Byzantine Empire-

Cambridge Ancient History. Vol. X-II.
4) Christensen, A:
L' Empire des Sassanide.
5) Gibbon, Edward:
The Rise & Fall of the Roman Empire- London.
6) Henri Lamens:
L'Empire des Omayades.
7) Herbert, M. J. L.
The Mongols- Cambridge MediavelHistory Vol. IV.
8) Lamb, H.
La Vie de Tamerlan- Paris 1931.
9) Lane Poole, Stanely.
(a) A History of Egypt in the Middle Ages, 2nd Edition.
(b) Saladin & the Fall of the Kingdom of Jerusalem. 1898.
10) Lestrange, G:
The lands of the Eastern Caliphate. Camphridge 1930.
11) Mez, Adam.
Des Renaissance des Islams.
نقله إلى العربية الدكتور مُحَّد عبدالهادي أبو ريده وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر.
12) NassiriKhosrau:
Relation du Voyage en Syrie, en Palestine et en Egypte.
13) Pierre Larousse:
Grand Dictionnaire Universel- Vol XII. Paris.
14) Quatemère: Histoire des Sultan Mamlouks de L'Egypte. Paris. Vol. lier.
15) Sauvaget, J.
La Pos'te au Cheveaux dans L'Empire des Mamelouks, paris 1941.
16) Sprenger:
Die Poste- UndReiserouten des Orients Leipzig 1864.

17) Wiet et Henri Murier:
Precit de L'histoire de L'Egypte.
18) Encyclopaedia Britannica, Fourteenth edition.
(See post in vol 18 and Pigeon Post in vol 17).


خريطة لطرق البريد
في مصر
(في العصر العربي)
البحر الأبيض المتوسط
الأسكندرية
غزه
رفح
العريش
قاطيه
الصالحية
بلبيس
قليوب
القاهره
الجيزة
وردان
سيناء
بيا
دهروط
قلوصنا
الاشمونين
اسيوط
المراغه
قوص
البلينا
الكوم الأحمر
لقيطة
اسوان
عيذاب
بني عامر
حميثرة
سواكن
النيل
جدول لبيان الطرق
١ - من القاهرة الى قوص
٢ - من قوص الى بلاد النوبة
٣ - من قوص الى سواكن
٤ - من القاهرة الى الاسكندرية
(عن طريق وردان)
٥ - من القاهرة الى الاسكندرية
(عن طريق قليوب)
٦ - من القاهرة الى دمياط
٧ - من دمياط الى غزة


خريطة
خطوط الحمام الزاجل
في عصر المماليك
أسيا الصغرى
برته
الجزيرة
حلب
الرحبه
الشام
قبرص
طرابلس
بعلبك
بيروت
صيدا
دمشق
البحر الأبيض المتوسط
قيصرية
فلسطين
بادية الشام
القدس
الاسكندرية
دمياط
غزه
الكرك
القاهرة
سيناء
الصحراء اللوبية
نهر النيل
الصحراء العربية
قوص
الحجاز
البحر الأحمر
اسوان
بلاد النوبه
عيذاب


طريق البريد الى الشمال الشرقي والطرق المتفرعة منه إلى رازم
(نقلا عن شبرنجر)
طريق البريد الى الشمال الشرقي والى بيرون والى الأطراف
(نقلا عن شبرنجر)
بغداد
سماره
حلوان
شهرازير
همذان
كوماه
ري
أصفهان
قزوين
ساليس
آمول
ساريا
بيان
نيسابور
جورجان
نيس
مروى سيجان
سرخس
سوا
سمنان
شوار
دمغان
خسراوجارد
بيمن آباد

جدول رقم (١)

بين المسافات على طريق البريد إلى الشمال الشرقي والطرق المتفرعة منه إلى رازم «نقلا عن شبرنجر»

جدول رقم (٢)

يبين المسافات على طريق البريد إلى الشمال الشرقي وإلى بيروني وإلى الأطوال «نقلا عن شبرنجر»

من بغداد إلى بخارا جدول رقم (١)

من	إلى	المسافة بالفرسخ
بغداد	نهروان	٤
نهروان	دسكيره	١٢
دسكيره	جليلة	٧
جليلة	قصر شريان	١٥
قصر شريان	حلوان	٤
حلوان	كرمسيس	٣٠
كرمسيس	قصر لوسس	١٤
قصر لوسس	همدان	١٥
همدان	سوا	٣٧
سوا	رى	٢٤
رى	سمنان	٣١
سمنان	دمغان	١٧
دمغان	بهمن أباد	٤٦
بهمن أباد	خسراوجاد	١٢
خسراوجاد	نيسابور	١٥
نيسابور	تيس	١٣
تيس	ساراش	٢٥
ساراش	دندابخان	٢٠
دندابخان	مروسحجان	١٦
مروسحجان	آمى	٣٦

من بغداد إلى بخارا جدول رقم (٢)

من	إلى	المسافة بالفرسخ
بغداد	نهروان	٤
نهروان	دسكيره	١٢
دسكيره	جليلة	٧
جليلة	شنجنيان	٩
شنجنيان	قصر شربان	٦
قصر شربان	حلوان	٤
حلوان	كرمسين	٣٠
كرمسين	قصر لوسس	١٤
قصر لوسس	أسد أباد	٧
أسد أباد	همدان	٨
همدان	سوا	٣٧
سوا	رى	٢٤
دى	شوار	٣١
شوار	سمنان	٢٢
سمنان	دمغان	١٧
دمغان	خسراوجارد	٥٨
خسراوجارد	نيسابور	١٥
نيسابور	تيس	١٣
تيس	نيجان	٦
نيجان	ساراش	٢٠

آمی	فربیر	٢
فربیر	بایقند	–
بایقند	بخارا	–
مروسحجان	مروارید	٤٧

ساراش	داندبخان	٢٠
داندنجان	مروسحجان	١٦
مروسحجان	فربیر	٣٨
فربیر	بایقند	١٢
بایقند	بخارا	٥
مروسحجان	کرینیان	٢٥
کرینیان	مروادید	٢٢
مروارید	تلجان	٢٣
تلجان	فریاب	١٩
فریاب	بلخ	–
قصر شریان	دیر کران	٢
دیر کران	شهرازیر	١٨

The Post System in Moslem Sate

A thesis for which the author has been granted the M. A degree from the Faculty of Arts, Cairo University. As it was written with the guidance of Professor Abd el Hamid el Abady, previous dean of the Faculty of Arts, Alexandria University, he has been so kind as to introduce the book.

The book begins with an explanatory note and a short criticism of the main references on which the author relied. The first chapter given an idea of the Egyptian. Roman and Persian Post and how it developed for state affairs and not for personal needs.

In the second chapter the author surveys the history of the post during the time of Prophet Mohammed, the four Khalifs, the Omayyad's and the Abbasside's. The effect of the Roman and Persian post is clear.

The department of post, its administrator. Officials, couriers, horsemen and finance are dealt with in the third chapter. The writer enumerates the Post roads, the post stops and the inns in the Islamic Empire in the next chapter.

The fifth chapter is devoted to the Egyptian Post from the Arabic conquer to the epocof es-Sultan ez-ZahirBebars.

The pigeon Post, pigeonry, various kinds of pigeons and its roads occupy the sixth chapter. The chapter explains the different ways of sending messages, by fire, drums and water.

In conclusion, the post system helps the Khalifs to carry on their duty in the whole empire from end to end as it enables the pilgrimages to go to Mecca& Jerusalem, and the intellectuals to go and fro. Cultural and commercial relations develop due to the post system.

NazirHassaanSaadawi.
Cairo 1953

الفهرس

تقديم ٥

تمهيد ٧

بحث في مصادر الرسالة ١٥

الفصل الأول: البريد قبل الإسلام ٢٩

الفصل الثاني: البريد في الدولة الإسلامية ٥٣

الفصل الثالث: ديوان البريد وعماله ٨٦

الفصل الرابع: طرق البريد وسككه ١٠٩

الفصل الخامس: البريد في مصر الإسلامية ١٥٢

الفصل السادس: البريد الجوي ١٧٠

الفصل السابع: نظام التخاطب بالمشاعل والطبول والماء ١٨٨

الخاتمة ٢٠٣

ملحق للرسالة ٢١٢

مصادر الرسالة ٢١٦